من أسرار البيان القرآني



تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي



من أسرار
البيان القرآني

- الموضوع: علوم القرآن
- العنوان: من أسرار البيان القرآني
- تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

ٱلطَّبۡعَةُ ٱلثَّانِيَةُ

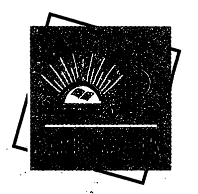
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

ISBN 978-614-415-197-6

- الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
- الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
- القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 368 / الوزن: 750 غ

ISBN 978-614-415-197-6

9 786144 151976



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: +963 11 2225877
+963 11 2228450

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: +961 1 817857
+961 1 705701
جوال: +961 3 204459

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

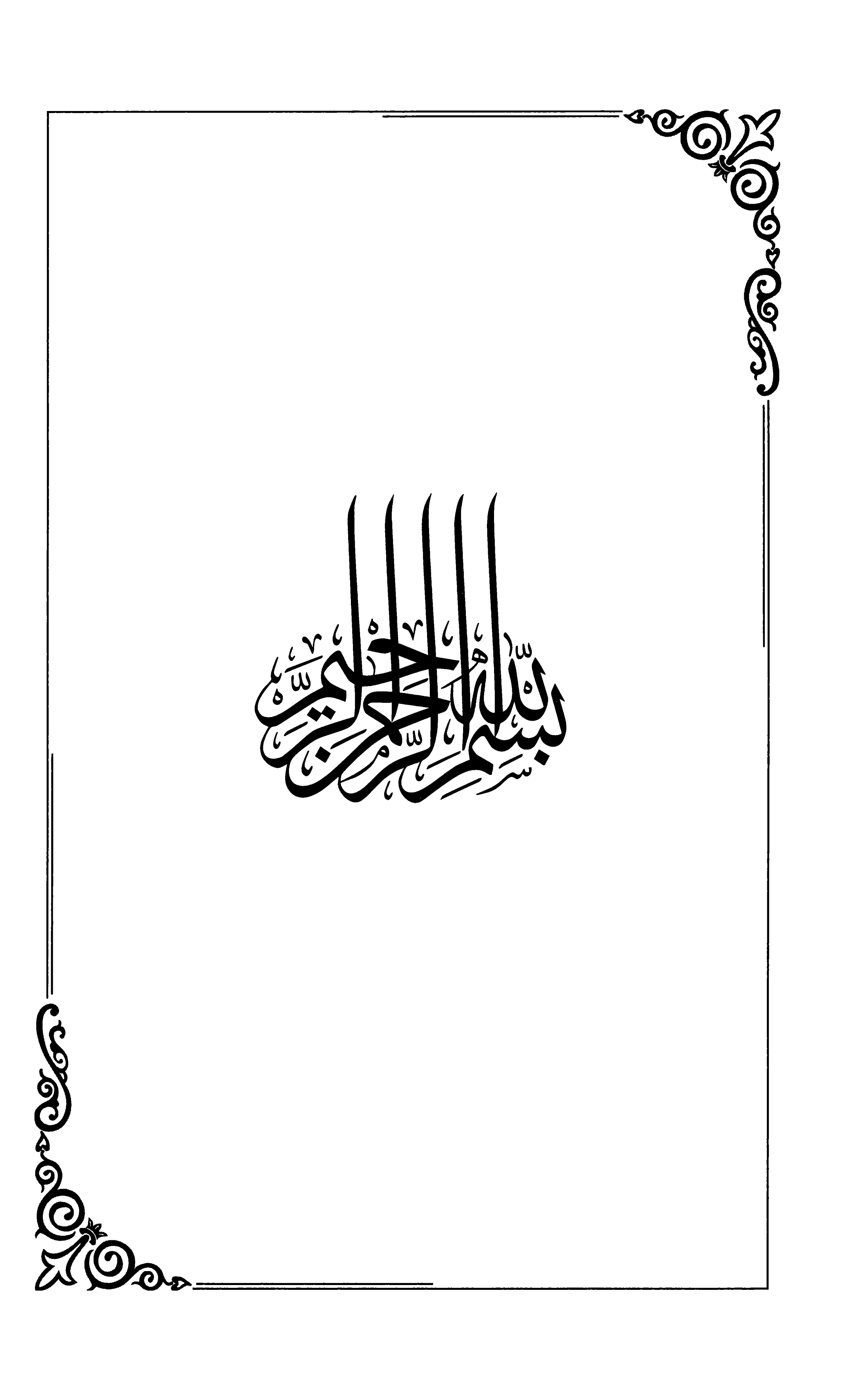
 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

من أسرار البيان القرآني

تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي




بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على إمام البلغاء وسيد الفصحاء سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار ومن تبعهم بإحسان .

وبعد :

فهذا الكتاب يبين طرفاً من أسرار البيان التي لا تنتهي في القرآن ولا ينقضي منها العجب ، وكلما أنعمت النظر وأعملت الفكر ازددت يقيناً وبصيرةً أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى .

لقد درست في هذا الكتاب طرفاً من الأبنية القرآنية من مصادر وصفات ، وطرفاً من المفردات التي تبدو كأنها مترادفة ، فوجدت أن كل اختيار لبناء أو مفردة إنما اختير اختياراً مقصوداً ، ووضع وضعاً فنياً عجيباً .

ثم بحثت مواضع أخرى من توكيد ، وذكر وحذف ، وتقديم وتأخير ، وتشابه واختلاف ، ثم عرضت للفاصلة القرآنية .

وأتبعت ذلك بتفسير آيات مختارة .

فكان كل تعبير أنظر فيه أو أقارنه بما يبدو أنه يشابهه يؤكد هذه الحقيقة ، وهي أن كل لفظة في هذا التعبير أو ذاك إنما اختيرت اختياراً مقصوداً ،

وأن من أوتي حظًّا من البصر في اللغة وعلماً بقوانينها يتضح له هذا الأمر اتضاحاً لا لبس فيه ولا غموض.

كنت وأنا ألقي المحاضرات على طلبة الدراسات العليا (الدكتوراه أو الماجستير) آتي بنص قرآني ثم أقول لهم: ماذا لو أبدلت هذه الكلمة بهذه الكلمة التي تبدو كأنها مرادفة لها؟ وماذا لو قدمت هذه الكلمة أو أخرتها عن مكانها؟ وماذا لو زدت هنا في التوكيد أو نقصت؟

ثم آتي بنصين يكادان يكونان متماثلين إلا في أمور يسيرة فأقول لهم: ماذا لو جعلت هذه الكلمة في النص الآخر وجئت بتلك إلى هنا، ما الذي سيحدث؟.

فيسكتون وكأنهم يقولون: لا شيء في ذلك.

ثم نبدأ بتحليل النص ووضعه في سياقه واستذكار القواعد اللغوية ثم أقول لهم: الآن لنغير في النص.

فيصيحون جميعاً بلا استثناء: مستحيل يا أستاذ مستحيل، إنها معادلة جبرية، لا يمكن.. إنها رياضيات، لا يمكن لا يمكن.

فأقول لهم: فمن قائل هذا الكلام؟

فيقولون بتأثر بالغ: إنه الله، إنه الله.

والآن أعود إلى مواضيع هذا الكتاب فأقول:

لقد بذلت جهدي في أن لا أكون متعسفاً فيما عرضت له.

ولا أدّعي أني لم أقع في شيء من ذلك، بل ربما وقعت، ولكني لم أتعمد ذلك، وقد حاولت جهدي أن أنأى عن التعصب للنص وتحميله ما لا يحتمل.

وكنت مقتنعاً بما قلته وقررته.

كما حاولت ألا أخرج على أصول اللغة وقواعدها المعروفة .

وعلى أية حال فهي محاولة أخرى في هذا المجال تضاف إلى أخواتها من المحاولات السابقة .

وأرجو من القارئ العزيز أن يعذرني فيما وقعت فيه من هنات وأغلاط ، أو يحسب أنني وقعت فيه ، فذلك مبلغنا من العلم .

كما أرجو ألاّ يضنّ عليّ بدعوة يناله منها أجر من يدعو لأخيه بظهر الغيب .

نسأله سبحانه أن يجعلنا هداة مهديين غير ضالّين ولا مضلّين .

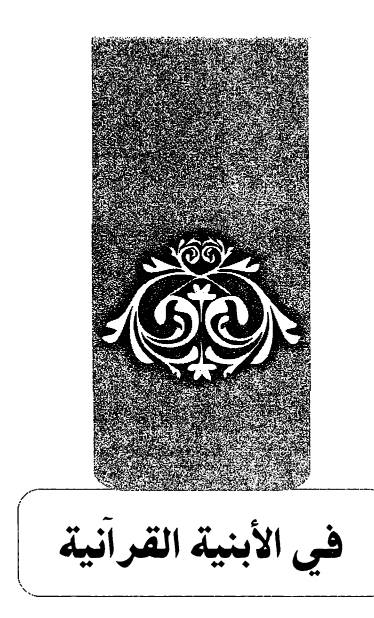
وأن يرزقنا الإخلاص والسداد والإحسان في القول والعمل وفي كل ما ينبغي أن يكون فيه ذلك .

وألا يحرمنا أجر المجتهدين ـ وإن لم نكن منهم ـ فهو أحسن مأمول وأكرم مسؤول إنه الله رب العالمين .

فحسبي ربي أن أفوز بنظرة   وحسبي ربي أن تكونَنّ راضيا

فيا ليت شربي غير ودّك غصة   و«يا ليت شربي من ودادك صافيا»

فاضل السامرائي



في الأبنية القرآنية

الملاحظ في الأبنية القرآنية أنها استعملت على وفق أمرين:

الأمر الأول أنها استعملت على وفق الدلالات المشهورة المعروفة من معاني الأبنية من المصادر وصيغ المبالغة والجموع وغيرها مما هو مقرر في كتب اللغة.

والأمر الآخر أنه خص أبنية بدلالات خاصة كالأعين والعيون، والقعود والقاعدين، والصَّوْم والصيام، وغيرها. إذ القرآن لا يستعمل بناءين مختلفين من مادة لغوية واحدة بدلالة متماثلة، بل لا بد أن يخص بناء أو لفظاً باستعمال معين أو دلالة خاصة.

وقد ذكرنا طرفاً من هذا التخصيص في كتبنا (معاني الأبنية في العربية) و(التعبير القرآني) و(بلاغة الكلمة في التعبير القرآني). وسنضرب أمثلة لطرف من الأبنية واستعمالاتها ودلالاتها.

١- في المصادر وأشباهها:

من المعلوم أن مصادر الأفعال غير الثلاثية لها قواعد في الصوغ وهي تدل على معان مرتبطة بمعاني أفعالها كالـ(تفعيل) مصدر (فعّل)، و(إفعال) مصدر (أفعل) وغيرها. فإن (فعّل) مثلاً له معانٍ كالتكثير والمبالغة والنسبة إلى أصل الفعل والصيرورة وغيرها، فيكون لمصدره هذه الدلالات. وإن (أفعل) له معان كالتعدية والصيرورة والسلب

والإزالة والتعريض وغيرها فيكون لمصدره هذه الدلالات.

أما مصادر الأفعال الثلاثية فلها ضوابط، وهي لا تطّرد اطّراد مصادر الأفعال غير الثلاثية. وقد ذكر الصرفيون دلالات لقسم من أبنيتها كالفَعْلِ والفُعول والفِعال والفِعالة، غير أنه في حالات كثيرة لا يفرقون بين أبنية هذه المصادر من حيث الدلالة. وقد ذكرنا ذلك بتفصيل ما في كتابنا (معاني الأبنية في العربية)، غير أن القرآن يستعمل أحياناً مصادر مختلفة لفعل واحد، ذكر علماء اللغة دلالة بعضها، وأحياناً لم يذكروا سبب المجيء بهذا المصدر دون ذلك، وما دلالة كل منها كالفسق والفسوق، والمعصية والعصيان، والخُسر والخسار والخسران، وغيرها.

بل أقول على وجه الدقة: لم أر من أشار إلى ذلك، وإن كان من المحتمل جداً أن باحثين معاصرين أو علماء قدامى ممن درسوا القرآن ذكروا هذا الأمر، غير أني لم أطلع عليه.

وقد حاولت أن أجد تعليلاً لقسم من هذه المصادر وأشباهها، وأسأل الله ألاّ أحرم أجر المجتهدين على أية حال.

وإليك طرفاً من ذلك، فليس قصدي ههنا الاستقصاء، وإنما هو التمثيل.

الإثم والأثام:

الإثم في اللغة معروف، وهو الذنب. واستعمله القرآن لذلك.

أما الأثام: بفتح الهمزة، فهو الإثم، وهو أيضاً جزاء الإثم وعقوبته.

وقد استعمله القرآن بمعنى جزاء الإثم، ولم يرد إلا في موطن واحد وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

فهو هنا بمعنى مجازاة الإثم وعقوبته[١].

الثواب والمثوبة:

الثواب والمثوبة كلاهما بمعنى الجزاء، غير أنه لم يستعمل الثواب إلا في الخير، وبذا يختلف عن الجزاء، فإنه استعمل الجزاء في الخير والشر. قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ [فصلت: ٢٨].

أما الثواب فلم يستعمله إلا في الخير. قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

وأما المثوبة فقد استعملها جزاء للخير والشر فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ١٠٣]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠].

الحُكم والحكمة:

الحُكم يأتي بمعنى القضاء، ومنه (الحكم بين المتخاصمين).

ويأتي بمعنى الفقه والعلم. وقد جاء في القرآن لهذين المعنيين.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ [النمل ٧٨]. وهذا بمعنى القضاء.

وقال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، وقال: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].

---

(١) انظر لسان العرب (أثم).

وهذا بمعنى الفقه والعلم.

وأما الحكمة فهي توفيق العلم بالعمل ووضع الشيء في محله. جاء في (لسان العرب): «الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»[(١)].

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وقد يؤتى بالحكم محتملاً لمعنيي القضاء والحكمة، ولا يمنع أن يكون المعنيان مرادين معاً، وهو ما يسمى بالتوسع في المعنى، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٤].

فهذا يحتمل معنيي القضاء والحكمة، أي فاصبر لقضاء ربك، فإن ذلك لحكمة أرادها، والمعنى: فاصبر لقضائه وحكمته.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [الأنبياء: ٧٩] فقد آتاهما القضاء والحكمة.

وقد ذكر أن الحكمة تأتي عن طريقين: التعليم، وإيتاء الله إياها لعبد من عباده.

أما الحكم فقد ذكر أنه مما يؤتى ولم يذكر أنه مما يعلّم. قال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩] [آل عمران: ٤٨، ١٦٤] [الجمعة: ٢].

---

(١) لسان العرب (حكم).

وقال: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال: ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠].

فذكر أنّ الحكمة تؤتى وتعلّم.

وسمى القرآن حكمة. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ ﴾ [الإسراء: ٣٩].

وعطف الحكمة على الكتاب، وذكر أنه سبحانه أنزلهما على رسوله فقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

فقد ذكر أن الحكمة مما يتلى. والذي يتلى هو القرآن وليس شيئاً آخر.

وسماه حكماً أيضاً، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ ﴾ [الرعد: ٣٧].

ولم يذكر أنه علّم أحداً الحكم، وإنما يذكر أنه آتاه الحكم أو وهب له ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال على لسان سيدنا موسى: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ [الشعراء: ٢١].

فالحكم أوسع دلالة من حيث هو يجمع بين معنيين : القضاء والفقه .

والحكمة أوسع من حيث إنها تعلّم وتؤتى .

فهي مما يحتاج إلى التلبث والتعلم فزاد في بنائها لذلك ، ولأنها مما يتعلم ويؤتى ، والله أعلم .

الحياة والمحيا ، والموت والممات:

استعمل القرآن (الحياة) عامة لجميع أنواع الحياة سواء كانت حياة الناس أم غيرهم. واستعملها نكرة ومعرّفة بأل وبالإضافة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣] ، وقال : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٢٤] ، وقال : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون ٣٧] .

أما (المحيا) فاستعمله خاصاً بحياة الناس ، ولم يستعمله إلا مضافاً إلى ضميرهم ومقابلاً للممات ، قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ [الجاثية ٢١] ، وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] .

ونحوه الموت والممات ، فإنه استعمل (الموت) عامًّا للبشر وغيرهم ، واستعمله منكراً ومعرّفاً بأل ، وبالإضافة مقابلاً للحياة ، ومفرداً غير مقابل لها ، قال تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ ﴾ [النساء: ١٥] .

وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤]، وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وقال: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] فاستعمله للأرض.

أما (الممات) فقد استعمله خاصاً بالبشر ولم يستعمله منكراً، ولم يستعمله إلا مقابلاً للحياة أو للمحيا، ولم يرد مفرداً من دون مقابلة بإحداهما.

قال تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥].

وقال: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية ٢١]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

الخُسر والخسار والخسران:

الخُسر: استعمل القرآن (الخسر) لعموم الخسارة سواء كانت قليلة أم كثيرة، فهو لمطلق الخسارة. قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر] فقد ذكر أن الإنسان واقع في الخسارة ولم يستثن إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. فمن نقص في صفة أصابه الخسر على قدر ذلك. فمن آمن وعمل صالحاً ولم يتواصَ بالحق ولم يتواصَ بالصبر كان له نصيب من هذه الخسارة.

والخسارة الكبرى لمن فقد هذه الصفات جميعاً، وعلى هذا قلّما ينجو إنسان من الخسر، وهو في الغالب له نصيب من ذلك.

وقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٨ ـ ٩] وهذه الخسارة كبيرة.

فاتضح أن (الخسر) لمطلق الخسارة.

الخسار: وأما (الخسار) فاستعمله للزيادة في الخسارة. فإذا كان المرء خاسراً وازداد خسراناً على خسارته فهذه الزيادة سماها القرآن خساراً.

فما زاد من الخسران فوق خسارته سماه القرآن خسارًا. ولم يستعمل القرآن الخسار في غير هذا. قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] فالظالم خاسر، فإذا نزل شيء من القرآن زادهم عناداً وظلماً فزادت خسارتهم.

وقال: ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر: ٣٩].

فالكافر خاسر، فمن زاد كفره زاد خساراً.

وقال: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [نوح: ٢١].

فلم يستعمل الخسار إلا مع الزيادة في الخسران. وانظر كيف استعمل لفظ الزيادة مع الخسار ولم يستعمل هذا اللفظ مع غيره من ألفاظ الخسران.

الخسران: أما (الخسران) فاستعمله لأكبر الخسران وأعظمه ولم يستعمله للخسار القليل. قال تعالى: ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١] وهل هناك أكبر من خسران الدنيا والآخرة؟.

وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر ١٥].

وانظر عظم هذه الخسارة ، فقد خسر نفسه وأهله ، وهو أعظم من أي خسارة.

وقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩ ـ ١٢١].

فأنت ترى أنه استعمل الخسران لأعظم الخسار وأفدحه.

وبذا يتضح أن الخسر استعمله لمطلق الخسار سواء كان قليلاً أم كثيراً.

والخسار للزيادة في الخسارة.

وأما الخسران فلأعظم الخسار وأفدحه. وكأن زيادة المبنى دليل على زيادة المعنى.

فالخسار زاد على (الخسر) بالألف ، فاستعمل للزيادة في الخسار.

و(الخسران) زاد عليه بالألف والنون، فكان لأعظم الخسارة وأبلغها.

الرضوان والمرضاة:

الرضوان هو أكبر الرضا وأعظمه ، ولذلك اختص في القرآن الكريم برضاء الله ولم يستعمله مع غيره. قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة ٧٢] ، وقال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢] ، وقال: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦].

وقد ورد هذا المصدر (١٣) ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم كلها في رضوانه سبحانه. جاء في (المفردات في غريب القرآن): «الرضوان الرضا الكثير ، ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى خصّ لفظ الرضوان

في القرآن بما كان من الله تعالى ، قال عز وجل: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧] ، وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: ٨] ، وقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١]» (١).

وأما (**المرضاة**) فهي عامة في مرضاة الله وغيره. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] ، وقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١].

ثم من ناحية أخرى أنه أطلق الرضوان في ابتغاء الرضا وغيره ، قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢] وهذا في اتباع الرضا.

وقال: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧].

وهذا في ابتغاء الرضوان.

وأما (**المرضاة**) فلم يستعملها إلا في ابتغاء الرضا ، ولم ترد في غير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥] ، وقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ففي كل من اللفظتين ـ الرضوان والمرضاة ـ خصوص من ناحية ، وعموم من ناحية أخرى.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (رضي) ٢٠٣.

فالرضوان خاص بالله ، عام في الابتغاء وغيره .

والمرضاة عامة في الله وغيره ، خاصة بالابتغاء .

الشكر والشكور:

ورد مصدر الفعل (شكر) في القرآن الكريم بصورتين وهما : الشُّكر والشُّكور .

وقد ورد (الشكر) مرة واحدة وهو قوله تعالى : ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ [سبأ : ١٣] .

وورد (الشكور) مرتين وهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٩] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴾ [الفرقان : ٦٢] .

وقد خص القرآن (الشكر) بالعمل فقال : ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ [سبأ : ١٣] . وهو إما أن يكون مفعولاً لأجله ، أي : اعملوا لأجل الشكر لله ، أو مفعولاً به للفعل ، أي : اعملوا الشكر لله . فإن الشكر قد يكون بالعمل وقد يكون باللسان ، وهنا خصه بالعمل سواء كان مفعولاً لأجله أم مفعولاً به .

واستعمل (الشكور) لمعنيين : الشكر بالعمل ، والشكر بالقول .

ففي معنى الشكر باللسان قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٩] أي : لا نريد منكم جزاء على عملنا ولا شكراً باللسان .

وفيما يحتمل الشكر باللسان والعمل قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴾ [الفرقان : ٦٢] وهو هنا يحتمل الشكر باللسان والعمل .

وعلى أية حال فإنه خصَّ (الشكر) بالعمل ، وجعل الشكور للقول والعمل .

فكأن زيادة البناء دلت على زيادة المعنى ، وكأنه قابل بهما الكفر والكفور. فإن (الكفر) أكثر ما يستعمل في الدين ، وأما (الكفور) فقد استعمله القرآن لمعنيين : لجحود النعمة وللكفر في الدين(١).

فلما كان (الكفر) استعمله القرآن لمعنى واحد قابل به الشكر ـ وهو على وزنه ـ فاستعمله لمعنى واحد وهو الشكر بالعمل .

ولما كان (الكفور) استعمله القرآن لمعنيين قابل به الشكور ـ وهو على وزنه ـ فاستعمله لمعنيين: الشكر باللسان والشكر بالعمل. والله أعلم .

العَدْو ـ العدوان ـ العداوة:

وردت هذه المصادر للفعل (عدا) ، قال تعالى : ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: ٩٠] ، وقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] ، وقال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

وأصل معنى الفعل (عدا) هو التجاوز على الآخرين .

إن العَدْو أكثر ما يستعمل في المشي والحركة والأمور العلاجية ، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: ٩٠] وهذا مشي وحركة .

وقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

---

(١) انظر مفردات الراغب (كفر).

وأما العداوة فهي أمر قلبي ، قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [المائدة: ٦٤] ، وقال : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] .

وأما العدوان فمعناه الظلم والإخلال بالمعاملة ، فقولك : (لا عدوان عليَّ) يعني (لا سبيل عليَّ) ، قال تعالى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ﴾ [القصص: ٢٨] أي فلا سبيل عليَّ .

وقال : ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٦٢] .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [المجادلة: ٩] .

وكثيراً ما يقترن الإثم بالعدوان ، والبغضاء بالعداوة .

والفرق بين الإثم والعدوان أن العدوان إنما يتعلق بالغير ، وأما الإثم فهو عام ، فقد يكون تعدياً على حقوق الغير وقد لا يكون ، وإنما هو عموم الذنب سواء كان يتعلق بالآخرين أم لا . قال تعالى : ﴿ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ١٨٨] ، وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨] وهذا يتعلق بالآخرين .

وقال : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٧٣] .

وقال : ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] .

وقال : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وهذا مما لا يتعلق بالغير .

جاء في (المفردات في غريب القرآن): «العَدْو التجاوز ومنافاة الالتئام ، فتارة يعتبر بالقلب فيقال له العداوة والمعاداة ، وتارة بالمشي

فيقال له العَدْو ، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له العدوان والعدو» [١] .

وجاء في (لسان العرب) : «وقوله تعالى : ﴿ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣] أي فلا سبيل ، وكذلك قوله ﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ [القصص : ٢٨] أي فلا سبيل عليَّ . . . وعدا عَدْواً : ظلم وجار . . .

والعدوان : الظلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة : ٢] يقول : لا تعاونوا على المعصية والظلم . . . وعدا بنو فلان على بني فلان ، أي ظلموهم . . .

وعدا الأمر يعدوه وتعداه كلاهما : جاوزه . . .

والعداوة اسم عام من العَدْو ، يقال : عدوّ بيّن العداوة» [٢] .

العصيان والمعصية:

ورد للفعل (عصى) هذان المصدران في القرآن الكريم .

فـ (**العصيان**) ورد مرة واحدة وهو قوله : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات : ٧] .

وأما (**المعصية**) فقد وردت مرتين وهما قوله : ﴿ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [المجادلة : ٨] ، وقوله : ﴿ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [المجادلة : ٩] .

وقد خص (**المعصية**) بمعصية الرسول ، وأما (**العصيان**) فقد استعمله عاماً كما هو ظاهر .

---

(١) المفردات في غريب القرآن (عدو) .
(٢) لسان العرب (عدو) .

الغفران والمغفرة:

ورد هذان المصدران للفعل (غفر).

فالغفران ورد مرة واحدة وهو في طلب المغفرة من الله، أي في الدعاء، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة ٢٨٥].

وأما المغفرة فقد وردت ثمانياً وعشرين مرة، وقد استعملت عامة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فالغفران اختلف عن المغفرة في الاستعمال القرآني في أمرين:

الأول: هو في طلب المغفرة، أي في الدعاء، ولم تستعمل المغفرة في الدعاء.

والأمر الآخر: أنه خاص بالله، أما المغفرة فهي عامة سواء كانت من الله أم من غيره، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧] فهذه المغفرة من الله.

وقال: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾ [البقرة: ٢٦٣] وهذه المغفرة من المنفق؛ لأن المسلم قد يغفر لأخيه زلته، وليست المغفرة خاصة بالله تعالى. قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]، وقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

لكن الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة.

فاستعمل المغفرة عامة والغفران خاصًا.

الفسق والفسوق:

ورد هذان المصدران للفعل (فسق).

أما (الفسق) فقد ورد في سياق الأطعمة وبخاصة الذبائح، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقال: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وأما الفسوق فقد ورد للخروج عن طاعة الله عامة. قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

وقال: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١].

فاستعمل الفسوق لما هو أعم، وكأنه لما زاد في المعنى زاد في البناء والله أعلم.

الإقام والإقامة:

استعمل القرآن (الإقام) خاصًّا بإقام الصلاة. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

أما (الإقامة) فقد استعملها لما يقابل الظعن والسفر، قال تعالى: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠].

إن الإقام والإقامة واحد ولهما دلالتان:

الأولى: توفية الشيء حقه.

والأخرى: البقاء في المكان والثبات فيه.

غير أنه خص الإقام بالمعنى الأول فاستعمله لإقامة الصلاة أي توفيتها حقها، وخص الإقامة بالبقاء في المكان.

وأصل المصدر (الإقامة) وحذفت التاء تخفيفاً، فكأنه لما كان المكث في المكان والبقاء فيه يستدعي وقتاً أطول من إقامة الصلاة زاد في بنائه.

فزاد في بناء ما يقتضي المكث الطويل وحذف ما يقتضي المكث الذي هو أقل، إلا أنه جاء في (التهذيب): «أقمت إقامة، فإذا أضفت حذفت الهاء كقوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]» [(١)].

ويردّه قوله تعالى: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ فإن الإقامة مضافة ولم تحذف تاؤها، ونحو قولنا: (أردت إقامة شهر) والله أعلم.

---

(١) لسان العرب (قوم).

الكبَر ـ الكِبْر ـ الكبرياء:

(**الكبَر**) بفتح الباء، نقيض الصِّغَر، وخصه القرآن بالكبر في السن، قال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

وقال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء ٢٣].

أما (**الكِبْر**) بكسر الكاف وسكون الباء فللأمور المعنوية، قال تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال في حديث الإفك: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

ففي الآية الأولى ورد الكبْر بمعنى التكبر.

وفي الآية الثانية ورد في إشاعة الإفك، وكلاهما أمر معنوي.

وأما (**الكبرياء**) فمعناه العظمة والملك[1]، وهي تدل على السعة والشمول.

قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧]. وقال على لسان فرعون وملئه لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨].

فالكبرياء هنا عامة شاملة (الكبرياء في الأرض) وبذلك تكون الكبرياء أوسع من الكبَر والكِبْر.

والكبرياء مختصة بالله تعالى، جاء في (المفردات في غريب القرآن): «الكبرياء الترفع عن الانقياد وذلك لا يستحقه غير الله فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾»[2].

---

(١) لسان العرب (كبر).

(٢) المفردات في غريب القرآن (كبر).

٢ ـ أبنيــة الصفــات:

استعمل القرآن الصفات من اسم الفاعل واسم المفعول وصيغ المبالغة والصفة المشبهة واسم التفضيل على ما هو معلوم من قواعد اللغة ، من أن المبالغة تفيد التكثير ، وأن الصفة المشبهة بحسب أوزانها ، فمنها ما يفيد الخلو والامتلاء والحدوث ، ومنها ما يدل على الصفات والنعوت الظاهرة أو الباطنة ، ومنها ما يدل على الثبوت ونحو ذلك. غير أن القرآن يخص قسماً من الأبنية باستعمال أو بدلالة معينة وإن كان الاستعمال لا يخرج عن المعنى العام من كونه للمبالغة أو غيره.

ونريد أولاً أن نذكر خطوطاً تعبيرية في القرآن قبل أن نشرع بذكر أمثلة من الصفات فنقول:

١ ـ إنه لم ترد صيغة (فاعل) مع العموم المطلق ، أعني قوله (كل شيء) ، وإنما يأتي بصيغة المبالغة (فعيل) أو جمع التعظيم لفاعل ، وقد جاء ذلك مرة واحدة وهو قوله: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] فلم يرد نحو (على كل شيء قادر) ولا (بكل شيء عالم) إنما ورد نحو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وذلك لأن (كل شيء) يقتضي التكثير والمبالغة ، فلا تناسب صيغة (فاعل) التي لا تدل على ذلك.

وأما قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فإنه جمع للتعظيم ، والتعظيم مناسب للعموم.

قد يجيء اسم الفاعل لغير الثلاثي مع العموم المطلق كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥] و﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] وذلك لأنه ليس لغير الثلاثي صيغ مبالغة إلا ما كان فعله يدل على المبالغة والتكثير نحو فعّل وافتعل وغيرهما ، فاسم الفاعل منهما يدل على المبالغة والتكثير نحو مقتدر ومكذّب ونحوهما.

٢ ـ لم يأت مع العموم المطلق (كل شيء) من صيغ المبالغة غير صيغة (فعيل) فلم يأت نحو (بكل شيء علاّم) أو غيرهما من صيغ المبالغة ، وإنما خص ذلك بصيغة (فعيل) نحو قدير وعليم وشهيد وحسيب ووكيل وحفيظ ورقيب وبصير.

٣ ـ قد يخص وصفاً بتعبير معين أو بحالة معينة دون أخواته مما اشتق من مادة لغوية واحدة ، فهو مثلاً يستعمل (علاّم) مع الغيوب ، ولم يستعمله مع شيء آخر ، بخلاف (عليم).

واستعمل (ظَلاّم) مع (العبيد) خاصة ولم ترد مطلقة. وقد ورد هذا الوصف في خمسة مواطن من القرآن الكريم كلها في نفي ظلم الله للعبيد وذلك نحو قوله: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وكلها مجرورة بالباء الزائدة المؤكدة.

وخص (ظلوم) بأنه وصف للإنسان فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، وقال: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب ٧٢].

واستعمل (سمّاع) وصفاً خاصًّا بالإنسان ولم يستعمله لغيره ، كما استعمله في الذم فقط مثل ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة: ٤١] ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة ٤٧].

بخلاف (سميع) فإنها استعملت لله واستعملت للإنسان. وفي استعمالها للإنسان استعملها للمدح نحو ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤].

ووردت صيغة (تواب) بالإفراد خاصة بالله تعالى وذلك نحو قوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] ، ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

أما جمع هذه الصفة فقد وردت للإنسان وهو قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٤ ـ قد يستعمل اسمين من أسمائه الحسنى مقترنين، فهو مثلاً يقرن اسمه الرحيم بالغفور كثيراً فيقول (غفور رحيم) ولم يقترن اسمه (الرحيم) بـ (الغفار) فلم يقل مرة (الغفار الرحيم) أو (الرحيم الغفار).

وقرن اسمه (الغفار) بالعزيز ولم يقرنه باسم آخر، أو يأتي به مفرداً غير مقترن باسم آخر، قال تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص: ٦٦]، وقال: ﴿ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]، وقال: ﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤٢].

وقد يفرده وذلك نحو: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وقرن اسمه (القهار) باسمه (الواحد) ولم يستعمله مع غيره وذلك في ستة مواضع.

واستعمل لفظه (القاهر) مع قوله (فوق عباده) فيقول: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١].

ويقرن اسمه (القوي) باسمه (العزيز) ولم يقرنه بغيره وذلك في سبعة مواضع من القرآن الكريم وذلك نحو قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠، ٧٤].

أو أن يذكر معه وصف (شديد العقاب) وذلك في موضعين من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢]، وقال: ﴿ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢].

وقرن اسمه (الكبير) باسمه (العلي) أو بما هو منه في الاشتقاق.

فلا يصف نفسه بالكبير إفراداً أو مع أي وصف آخر، قال تعالى:

﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢] ، وقال: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢ ، لقمان: ٣٠] ، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤].

وقال: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩] و(المتعال) مشتق من مادة (العلي) نفسها.

٥ ـ عند الكلام على الله تعالى يضيف اسم التفضيل نحو (خير وأحسن وأرحم) لجمع اسم الفاعل، ولم يضفه لجمع صيغ المبالغة، وذلك نحو (خير الراحمين) و(خير الغافرين) و(خير الرازقين) و(أرحم الراحمين) و(أحسن الخالقين)، فلم يرد نحو (خير الرزّاقين) ولا (أحسن الخلّاقين) ونحوها.

٦ ـ الملاحظ أنه إذا اجتمع وصفان أحدهما على زنة (فاعل) والآخر على زنة (فعّال) في فاصلة آية نحو (ساحر كَذَّاب) و(كاذب كَفَّار) فإن السياق يكون فيما تدل عليه صيغة المبالغة (فعّال) أظهر مما تدل عليه صيغة (فاعل) وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤] فجاء بالسحر على صيغة (فاعل)، وجاء بالكذب على صيغة (فعّال) التي هي للمبالغة.

ولو نظرنا في السياق لوجدنا أنه في الكذب وليس في السحر، فقد قال بعدها: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ أي كذب. وقال بعدها: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص: ١٢ ـ ١٤].

فالسياق كما ترى في الكذب والتكذيب وليس في السحر.

ونحوه قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٤].

والسياق في الكذب والتكذيب وليس في السحر. فقد قال في سياق هذه القصة، أي قصة موسى: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [٢٨].

وقال في سياقها أيضاً: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [٣٦ ـ ٣٧].

ولم يرد في سياقها شيء يتعلق بالسحر.

ونحوه قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فجاء بالكذب على صيغة فاعل، وجاء بصفة الكفر على صيغة (فعّال)، ولو نظرت في السياق لرأيت أنه في سياق الكفر وليس في سياق الكذب، فقد قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٣ ـ ٤].

ويستمر في إثبات عقيدة التوحيد وإبطال الكفر والشرك من نحو قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: ٦ ـ ٧].

وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [٨].

فالسياق كما ترى في الكفر لا في الكذب ، فجاء بالكفر على صيغة المبالغة ، وجاء بالكذب على صيغة (فاعل) ، بخلاف الآيات السابقة التي كان السياق فيها على الكذب ، فجاء به على صيغة المبالغة .

ونحوه قوله تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح : ٢٧].

فقد جاء بصيغة الفجور على زنة (فاعل) أي فاجر ، وجاء بصفة الكفر على (فعّال) ، والفرق بين الفجور والكفر أن الفجور هو الانبعاث في المعاصي والمحارم[١] .

أما الكفر فهو في الاعتقاد ، وليس من الحتم أن يكون الفاجر كافراً ، فقد يفجر المؤمن ، أي يعصي ويفسق .

ولو نظرنا في جو سورة نوح وسياق الآية التي ذكرناها لرأينا أنه في الدعوة إلى التوحيد وفي ذكر المجتمع الكافر المشرك وعقائده .

فقد قال نوح لقومه : ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ .

وذكر أنه دعا قومه ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً .

وأنه كلما دعاهم إلى ذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً .

وقالوا : ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ .

فهم يصرون على عبادة الأصنام ورفضهم للتوحيد .

ثم إنه دعا على الكافرين فقال : ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ .

---

(١) انظر لسان العرب (فجر) .

ودعا للمؤمنين والمؤمنات ، والمؤمن نقيض الكافر فقال: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ .

فالسياق كما هو ظاهر في الكفر فجاء به على صيغة المبالغة نظير ما مر والله أعلم .

إلى غير ذلك من الخطوط .

وسنذكر الآن أمثلة من الصفات :

آثم ـ أثيم:

الآثم هو اسم الفاعل من (أثم) ، والأثيم صيغة مبالغة ، فاستعمل الأثيم للمبالغ في الإثم ، واستعمل الآثم لمن هو أقل منه إثماً .

فقد استعمل الآثم لمن ارتكب إثماً معيناً ، وقد خص القرآن الآثم بمن يكتم الشهادة أو بمن ارتكب إثماً على العموم فقال: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ [البقرة ٢٨٣] ، وقال: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وقال فيمن ارتكب إثماً على العموم من دون تخصيص بأمر معين: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤].

أما الأثيم فهو المبالغ في الإثم ، قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ٧ ـ ١٠].

فقد ذكر أنه أفاك مبالغ في الإثم ، وأنه مستكبر على آيات الله يتخذها هزواً ، ثم توعّده بالعذاب المهين والعذاب العظيم .

ولا شك أن هذا مبالغ في الإثم .

وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٥].

فذكر من صفاته أنه كثير الحلف مهين، وأنه يهمز الناس ويعيبهم ويمشي بالنميمة بين الناس، وأنه يمنع الخير عنهم ويعتدي عليهم ويستهزئ بآيات الله، فإنه إذا تليت عليه الآيات قال أساطير الأولين.

ولا شك أن كل واحدة من هذه الصفات يكون صاحبها أثيماً فكيف إذا جمعها كلها؟.

وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٩].

ولا شك أن هذا العذاب إنما هو لمن بالغ في الإثم دون من لم يبالغ.

تائب ـ توّاب:

ورد (**التائبون**) و(**التائبات**) أي بصورة اسم الفاعل مرتين وهما قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

وورد (**التواب**) إحدى عشرة مرة كلها لله تعالى.

وورد جمع (التواب) وهو (**التوابون**) مرة واحدة في المؤمنين وهو

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أما وروده بصيغة المبالغة لله فإن كثرة ما يقع من التوبة منه على عباده تستدعي صيغة المبالغة، فجميع العصاة من المسلمين والطائعين الذين يطلبون التوبة إلى قيام الساعة بهم حاجة إلى التوبة، وهو سبحانه يتوب عليهم.

فالمناسب الإتيان بصيغة (التواب) وهذا من رحمته بعباده سبحانه.

وأما قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ...﴾ في سورة التوبة فإنه أمر بتبشير هؤلاء، وقد جاء باسم الفاعل ولم يأت بصيغ المبالغة، فلم يقل (التوابون) ولا (الحمّادون) ولا الأمارون بالمعروف، ليدل على سعة رحمته بهم وعظيم تفضله عليهم، فإنه بشّر من لم يكثر ولم يبالغ في ذلك من المؤمنين. وهذه نعمة كبيرة ومنّة عظيمة.

وأما آية التحريم ـ وهي قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ...﴾ ـ فإنها جاءت تعقيباً بعد قوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا...﴾.

وقد نبأت بهذا السر، ووقع في هذا الأمر من بعض أزواج النبي ما يقع بين الضرائر، وهذا تكفي فيه التوبة ولا يستدعي المبالغة فيها. فإن المبالغة في التوبة والإكثار منها تكون من الآثام الكبيرة، فإن التوبة على قدر الذنب، فلم يستدع المقام المجيء بصيغة المبالغة.

وأما المجيء بصيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فإنه ذكر قبل هذه الآية جملة أمور تدعو مخالفتها إلى التوبة وهو قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٩ ـ ٢٢٢].

وهذه كلها أمور تستدعي المبالغة في التوبة، فإن الخمر والميسر من الكبائر، وأكل مال اليتيم من الكبائر، ونكاح المشركات وإنكاح المشركين لا يحلّ بحال من الأحوال، وهو باطل يدخل في الزنى، وهو من الكبائر، فاقتضى ذلك المجيء بصيغة المبالغة.

ثم إن هذا الجزء من الآية وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ ورد بعد قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾.

ذلك أن مسألة المحيض واعتزال النساء في المحيض يختلف عن كل ما سبق، فإنه ليس كل الناس يشربون الخمر، ولا كل الناس يكفلون اليتيم، وأقلّهم من ينكح مشركة أو يُنكح مشركاً، فإن ذلك لا يقع في أجيال.

أما المحيض فهو واقع ولا بد، فإنه يحدث لكل بالغة من الإناث.

وهذا النهي يعني كل متزوج، فهو إذن حاصل في كل بيت إلى قيام الساعة، فاحتمال الوقوع فيه أكثر من غيره، فاقتضى ذكر التوابين

لاحتمال أن هذا يقع كثيراً ، وربما يتكرر الوقوع فيه من الشخص ، فاستدعى ذكر صيغة المبالغة.

وقدم التوابين على المتطهرين ؛ ذلك لأنه قدم ما يستدعي التوبة من الأعمال وأخر ما يستدعي التطهر وهو المحيض ، فقدم التوابين على المتطهرين . والله أعلم.

خائن ـ خوّان:

استعمل صيغة المبالغة (خوّان) للمكثر من الخيانة والمبالغ فيها دون اسم الفاعل ، فإنه استعمله لمن هو دون الأول في الكثرة.

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨] فهو لم يذكر أنهم خانوا ، وإنما قال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ أي إن خفت منهم ذلك ، فجاء باسم الفاعل ولم يأت بصيغة المبالغة ؛ لأنهم لم يخونوا أصلاً وإنما خيفت منهم الخيانة.

وقال في يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢].

فإن الخيانة لم تقع ولذا قال: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ باسم الفاعل ولم يقل (الخوّانين). ثم إن هذا إنما هو حادثة واحدة.

غير أنه قال: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ . . . وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٠٧ ـ ١١٢].

فجاء بصيغة المبالغة (خَوَّان) لما ذكر أنهم ﴿ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ بصيغة

المبالغة ولم يقل (يخونون) ، وذكر صفات أخرى تفضح خيانتهم وتدل على مبالغتهم في الخيانة. فهم يستخفون من الناس ويبيتون ما لا يرضي الله من القول ، وذكر أنهم فعلوا الخطيئة وكسبوا الإثم ورموا به البريء إلى غير ذلك من الصفات السيئة ، فناسب ذكر صيغة المبالغة في الخيانة.

سميع ـ سمّاع:

ورد (السميع) وصفاً لله سبحانه كثيراً وذلك نحو: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ و﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ و﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾. وقد ورد وصفاً لغيره قليلاً ، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤] ، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

أما (السمّاع) فاستعمل وصفاً للإنسان فقط ، كما أنه استعمل في الذم ولم يستعمل في المدح.

واستعمل حيث ورد مُعدّى إلى مفعوله باللام المقوية. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة: ٤١] ، وقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] ، وقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة ٤٧].

أما السميع فلم ترد معداة بنفسها ولا بحرف ، وقد وردت مضافة إلى مفعولها وهو (الدعاء) خاصة نحو (سميع الدعاء) و(لسميع الدعاء) واستعملت في المدح فقط.

شاكر ـ شكور:

استعمل القرآن اسم الفاعل (شاكر) حيث لا يقتضي المبالغة ، واستعمل صيغة المبالغة (شكور) فيما يقتضي ذاك.

فكل ما ذكر الله فيه عن نفسه أنه (شكور) ورد في سياق مضاعفة الأجور والزيادة من فضله سبحانه ، بخلاف اسم الفاعل .

قال : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٠] ، وقال : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى : ٢٣] ، وقال : ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن ١٧] .

بخلاف اسم الفاعل فإنه لم يرد في مثل هذا السياق ، قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٥٨] .

فإنه لم يذكر جزاء أصلاً ولا مضاعفة أجور .

وقال : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] فإنه لم يذكر جزاء ، وإنما قال : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ﴾ .

فوضع كل تعبير فيما يناسبه .

ظلوم ـ ظلّام:

كلتاهما من صيغ المبالغة ، غير أنه خصص (ظلوم) بأنه وصف للإنسان على العموم ، قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وقال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

وأما (ظلام) فقد خصها ربنا بنفي الظلم عن نفسه ، وقد وردت خمس مرات وكلها متعلقة بنفي الظلم للعبيد. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢ ، الأنفال: ٥١] ، وقال: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] ، وقال: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩].

وقد جاء بصيغة المبالغة (ظَلاَّم) الدالة على التكثير ، لأنه علّقه بالعبيد وهم كثير. فالذي يظلم الخلق الكثير هو ظلّام وليس ظالماً فقط.

جاء في (البحر المحيط): «وهذا تكثير بسبب المتعلق» [١].

وأطلق صفة الإنسان (ظلوم) ولم يعلقها بشيء ؛ لأنه أراد وصفه بالظلم المطلق والله أعلم.

عالم ـ عليم ـ علاّم:

استعمل القرآن صفة (**العالم**) متعلقة بالغيب المفرد أو الغيب والشهادة ، فيقول مثلاً: (عالم الغيب). قال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٣] ، وقال: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦].

أو يقول (عالم الغيب والشهادة) وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقد ورد هذا الوصف ثلاث عشرة مرة كلها مختصة بعلم الغيب أو الغيب والشهادة.

---

(١) البحر المحيط ٣/٤٥٦.

وأما (علاّم) فقد خص استعمالها متعلقة بـ (الغيوب) جمع (الغيب). وقد ورد هذا الوصف أربع مرات كلها متعلقة بالغيوب، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩، ١١٦]، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨] وذلك أنه لما كان هذا الوصف للمبالغة والتكثير جاء بالجمع معه مناسبة للتكثير. وهو نظير ما مر في قوله (بظلام للعبيد).

وأما (عليم) فقد استعملها غير مختصة بمعلوم معين، فهو أحياناً يطلقها من كل متعلق، كأن يقول: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، أو يقول: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، أو يقول: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

أو يجعلها متعلقة بكل شيء فلا تترك شيئاً من الأشياء إلا شمله هذا الوصف وذلك نحو قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

أو يعلقها بمجموع ولا يعلقها بمفرد وذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥]، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣] فعلق الوصف بالظالمين والمتقين والمفسدين بالجمع لا بالإفراد.

أو يعلقها بما ارتبط بالمجموع وذلك نحو ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥] فإنه جمع الفاعلين فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ فإن الفاعلين كثر وليس فاعلاً واحداً. ونحوه قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فذكر الصدور وليس صدراً واحداً.

فاتضح أنه استعمل وصف (**العليم**) مطلقاً غير مقيد بمعلوم معين، بخلاف (**علاّم**) فإنه خصصه بعلم الغيوب مجموعة. وأما (**عالم**) فقد خصه سبحانه بعلم الغيب مفرداً غير مجموع.

وهذا الأمر متعلق بصفاته سبحانه خاصة.

غافر ـ غفّار ـ غفور:

استعمل (**غافر**) مع الذنب ولم يستعمله مع الجمع، قال تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٣].

فإذا كثرت الذنوب جاء بصيغة المبالغة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد ورد وصف (**الغفار**) خمس مرات، منهن ثلاث مقترن باسمه العزيز نحو ﴿ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥] ولم يرد مقترناً باسم آخر غير اسمه (العزيز).

وورد مرتين غير مقترن باسم آخر وهما قوله: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقوله: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح: ١٠].

وأما (**الغفور**) فقد ورد كثيراً، وقد اقترن بعدد من أسماء الله الحسنى وأكثر ما اقترن باسمه الرحيم. وقد اقترن به أكثر من سبعين مرة نحو ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

واقترن أيضاً باسمه الحليم نحو: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وباسمه العفوّ نحو: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وباسمه العزيز: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وباسمه الشكور: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠].

وباسمه الودود مع أسماء أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٤ ـ ١٥].

ويتضح مما مر أن اسمه (الغفور) أوسع استعمالاً من اسمه (الغفار) وأكثر وروداً منه، فقد ورد أكثر من تسعين مرة.

فاعل ـ فعّال:

ورد (فاعل) مرة واحدة في القرآن الكريم وهو قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

وورد (فعّال) مرتين وهما قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

فجاء باسم الفاعل للشيء الواحد فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾، وجاء بصيغة المبالغة للتكثير وهو (ما يريد) وهو يشمل عموم ما يريد.

كفّار ـ كفور:

الفرق بين كفّار وكفور اللذين هما كلاهما من صيغ المبالغة أن (كفّار) على وزن (فعّال) الذي يكون لمن يفعل الفعل وقتاً بعد وقت ويكرر فعله[(١)]، وقيل إنه لمن صار له صنعة[(٢)].

وأن (كفور) على وزن (فعول) الذي يكون لمن دام منه الفعل[(٣)].

---

(١) ينظر الفروق اللغوية ١٢ ـ ١٣، كشف الطرة ٧٩ ـ ٨٠، درة الغواص ٨٩.

(٢) ينظر همع الهوامع ٢/ ٩٧، كشف الطرة ٧٩ ـ ٨٠.

(٣) ديوان الأدب ١/ ٨٥، كشف المعاني في المتشابه من المثاني ٢٢٠.

وهذا الوزن كما رجحنا في كتابنا (معاني الأبنية) منقول من أسماء الذوات كالوَضوء والسَّحور والبَخور للدلالة على أن الموصوف بهذا الوصف صار كأنه مادة لما وصف به ، فالصبور كأنه مادة للصبر ، والغفور كله مغفرة[١] .

وعلى هذا **فالكفّار** هو الذي يزاول الكفر ويجدده وقتاً بعد وقت. وأما **الكفور** فهو الذي دام منه الكفر بحيث أصبح كأنه مخلوق من الكفر كما قال تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ووصفه بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١] فجاء بوصفه على (فعول).

وقال: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ﴾ [النساء: ١٢٨] ووصفه بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

وقال: ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

ولذا جاء وصف الإنسان **بالكفور** في كثير من الآيات على معنى كأنه مخلوق من هذا الوصف وذلك كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود: ٩] ، وقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨] ، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٦].

ولم يرد وصفه **بالكفّار** إلا في آية واحدة وهو قوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وذلك لما كان ذلك في سياق ذكر النعم المتعددة التي لا تحصى والمتجددة والتي تقتضي شكراً متجدداً لكل نعمة جاء بـ (الكفّار) الذي يكفر النعم بصورة مستمرة.

---

(١) انظر معاني الأبنية ١١٠ وما بعدها.

ومن الملاحظ أن (كَفار) لم ترد صفة منفردة في القرآن ، بل كلها وردت مقترنة بصفة أو أكثر وذلك نحو ﴿كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ، ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، ﴿كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] ، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [ق: ٢٤ ـ ٢٦] ، ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

أما (الكفور) فقد وردت مفردة ومقترنة بصفة أخرى وذلك نحو: ﴿كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] ، ﴿كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢] ، ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى ٤٨].

ولأن صيغة (فَعّال) تدل على الاستمرار والتجدد والمزاولة وقتاً بعد وقت كان فيها جانب الحدث أظهر (فعول) ، ولذلك كثيراً ما تتعدى إلى غيرها باللام أو بغيرها ، بخلاف (فعول) فإن تعديها أقل وذلك نحو قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] ، ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١] ، ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [القلم: ١٢] ، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] ، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] ، ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥] ، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٦] ، ﴿بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وغيرها.

إلى غير ذلك من الصفات.

* * *



في المفردات

هذه طائفة من المفردات القرآنية مما قد يدور في الذهن السؤال عنه وعن استعماله ، نسأل الله سبحانه أن يجنبنا الزلل في تفسير ذلك وبيانه .

أتى وجاء:

أثير سؤال عن الاختلاف في دلالة كل من جاء وأتى في القرآن الكريم ، ورجحنا في كتابنا (لمسات بيانية) ما ذهب إليه الراغب في المفردات من أن الإتيان مجيء بسهولة ، وأن المجيء أعم ، أي أنه يؤتى بالمجيء لما هو أصعب وأشق مما تستعمل له (أتى) [(١)].

وضربنا لذلك أمثلة عديدة. إلا أنه أثير سؤال آخر وهو أن القرآن يستعمل كلاًّ من (جاء) و(أتى) في تعبيرين متشابهين مما لا يدل على الاختلاف بينهما وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

وقد ذكرنا في أكثر من مناسبة أنه لا يصح اقتطاع جزء من الآية أو اقتطاع آية من سياقها للتدليل على الرأي ، وإنما ينبغي أن يوضع كل تعبير في سياقه ليتبين الفرق بين استعمال وآخر.

---

(١) لمسات بيانية ١١٣ وما بعدها ، وانظر المفردات ٦ ، ١٠٢ .

ولو نظرنا في سياق كل من هذين التعبيرين لتبيّن الفرق بينهما .

قال تعالى في الصافات : ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ . . . ﴾ إلى أن قال : ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٩٧] .

ثم ذكر بعد ذلك أنه بشره بغلام حليم ، وأنه أُمر بذبحه وهمّ بذلك إلى أن قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ [١٠٦] .

وقال في الشعراء : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٧ ـ ٩٠] .

ومن النظر في سياق كل من التعبيرين يتضح الفرق بين المجيئين ، فإن مجيء إبراهيم بقلب سليم في الصافات أعقبه أن ألقي في النار بعد أن حطم الأصنام ، وأن يطلب منه أن يذبح ولده الوحيد حتى قال الله في ذلك : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

وأما الإتيان في الشعراء فقد أعقبه بتقريب الجنة : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

حتى أنه لم يذكر شيئاً من أهوال المحشر وأحواله .

ومما أثير في هذا الباب أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر : ٧٣] .

فإنه استعمل في السعداء (جاؤوها) مع أنه استعمل فيهم في الشعراء (أتى) في الآية التي ذكرناها سابقاً وهي قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ مع أن كلا الفريقين من السعداء ولا فرق بينهما .

والحق أن السياق مختلف في كل منهما .

فإنه في سياق الشعراء لم يذكر أي شيء عن أهوال المحشر ، وإنما

ذكر تقريب الجنة للمتقين.

وأما في الزمر فقد ذكر شيئاً من ذلك، فقد ذكر النفخة والصعقة والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء وتوفية كل نفس ما عملت، فقد قال: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨ ـ ٧٠].

ولا شك أن هذا المجيء أشق وأصعب مما في سياق الشعراء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لو نظرنا في سياق السعداء في كل من السورتين، فقد قال في الشعراء: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٩ ـ ٩٠].

وقال في الزمر: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣].

والفرق واضح بين المقامين، فإنه في الشعراء ذكر أن الجنة قُربت لهم.

وأما في الزمر فقد ذكر أن المتقين سيقوا إليها زمراً.

ولا شك أن سَوق الشخص للوصول إلى شيء ما أعسر وأشق من أن يقرّب إليه ذلك الشيء.

فاتضح الفرق بين المقامين.

ومن الفرق بين هذين الفعلين في الاستعمال القرآني أن القرآن لم يستعمل غير الفعل الماضي من المجيء، فلم يأت منه بمضارع ولا أمر ولا اسم فاعل أو مفعول، بخلاف (أتى) فإنه استعمل منه الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول.

ولعل ذلك يعود إلى ثقل تصريفات (جاء) في اللفظ ، وسهولة تصريفات (أتى) ، فإن (يأتي) أخف من (يجيء).

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن ما لم يقع من الأمور المستكرهة أخف مما وقع منها ، فإن الأمور المستكرهة إذا وقعت كانت أشق وأثقل مما لم يقع منها. وقد قيل (فما راءٍ كمن سمعا). ففرق القرآن بين ما وقع وما لم يقع. فاستعمل لما لم يقع مضارع (أتى) دون مضارع (جاء) ، أما ما وقع من الأحداث فإن بعضها أثقل من بعض ، فاستعمل لما هو أثقل (جاء) ، ولما هو أخف (أتى) والله أعلم.

البحر ـ اليمّ:

استعمل القرآن الكريم (البحر) و(اليمّ) ، وقد أثير سؤال عن الفرق بينهما ، مع أنه قد يستعمل الكلمتين في مقامين متشابهين وذلك كما في قصة موسى مثلاً ، فإنه مرة يستعمل البحر ومرة يستعمل اليم. قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وقال في فرعون: ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص: ٤٠].

فلم ذاك؟

نريد أن نذكر أولاً أن كلمة (يم) هي عبرية وبالسريانية (يما) ، وبالأكدية (يمو) [١].

وقد ذكر ذلك اللغويون العرب[٢] وأيدته الدراسات الحديثة[٣].

---

(١) حاشية كتاب (المعرب) للجواليقي للمحقق الدكتور ف. عبد الرحيم ٦٤٦.

(٢) انظر لسان العرب (يم) ، الإتقان للسيوطي ١/ ٤٤٣ ، المعرب للجواليقي ٦٤٥.

(٣) انظر حاشية المعرب ٦٤٦.

وقد وردت كلمة ﴿اليم﴾ في القرآن الكريم ثماني مرات وكلها في قصة موسى[1].

ولم ترد في غير هذه القصة، وهو من لطيف الاستعمال، فقد استعمل الكلمة العبرانية في قصة موسى وقومه وهم العبرانيون.

أما كلمة ﴿البحر﴾ فقد استعملت في قصة موسى وفي غيرها من المواطن.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٥٠]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤].

ومن الملاحظ في استعمال هاتين الكلمتين أنه لم يستعمل (اليم) إلا في مقام العقوبة أو الخوف، ولم يستعملها في مقام النجاة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القصص: ٧].

وقال: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [طه: ٣٨ ـ ٣٩].

وهذا في مقام الخوف.

وقال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وقال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠].

وهذا في مقام العقوبة.

---

(١) انظر حاشية المعرب ٦٤٥.

أما (البحر) فقد استعمله عامًّا في النعم وغيرها، في بني إسرائيل وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقد استعمل في مقام نجاة بني إسرائيل (البحر) ولم يستعمل (اليمّ).

لقد استعمل (البحر) في النجاة والإغراق، أما (اليم) فاستعمله في الإغراق والخوف ولم يستعمله في النجاة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٥٠]. فاستعمله في النجاة والإغراق.

وقال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقال: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٧-٧٨].

فاستعمل (البحر) للنجاة و(اليم) للغرق.

وقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ

﴿أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٦].

وقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٣ ـ ٢٤].

الثعبان والحية:

فَرّق جمع من اللغويين بين الثعبان والحية، فقالوا: إن الثعبان هو الحية الضخمة الطويلة. وقيل هو الذكر الأصفر الأشعر وهو من أعظم الحيات(١).

أما الحية فتطلق على الصغير والكبير والأنثى والذكر(٢)، وعلى هذا فكل ثعبان حية وليس كل حية ثعباناً.

وورد لفظ (الثعبان) مرتين في القرآن الكريم في قصة موسى وذلك أمام فرعون وملئه خاصة. قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٢ ـ ٣٤].

ونحوه في الأعراف.

وكأنه ذكر الثعبان لأنه أراد أن يرهب فرعون ويدعوه ذلك إلى الإيمان.

أما لفظ (الحية) فورد في موطن واحد وهو عندما رأى موسى النار وناداه ربه قائلاً: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٧ ـ ٢٠].

وكأنه ذكر الحية لأنه أراد أن يريه قدرته سبحانه وليس الغرض

---

(١) لسان العرب (ثعب)، تاج العروس (ثعب).
(٢) لسان العرب (حيا).

الإخافة ، ولذا لم يذكر ههنا أنه خاف أو هرب وإنما قال: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١].

فذكر الثعبان أمام فرعون وذكر الحية خاليًا.

وقد نقول: أليس في ذلك تناقض أو اختلاف؟.

والجواب: كلا ، فإن الثعبان حية ولم يخالف أحدهما الآخر. والموقف مختلف ، فذكر كل لفظ بما يناسبه وما يقتضيه الموقف والله أعلم.

الجبل ـ الطور:

كلمة (الطور) سريانية ومعناها الجبل وأصله (طورا) [١].

وقد وردت (الطور) عشر مرات في القرآن الكريم ، منها سبع مرات في قصة موسى ، ومرتين في طور سيناء أو سينين.

ووردت في غير ذلك مرة واحدة وهو قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ وذهب كثير من المفسرين إلى أنه طور سيناء [٢].

وعلى هذا تكون كلمة (الطور) وردت كلها في طور سيناء مصرحاً باسمه أو غير مصرح.

والطريف أن تكون هذه الكلمة السريانية استعملت في جميع أحوالها في قصة موسى وفي طور سيناء كما استعمل اليم فيها ، فالكلمة غير العربية في الأصل استعملت مع غير العرب.

أما كلمة (الجبل) فقد وردت عامة في بني إسرائيل وغيرهم. قال

---

(١) حاشية المعرب تحقيق الدكتور ف. عبد الرحيم ٤٣٥ ، وانظر المعرب ٤٣٥ ، فتح القدير ٥/ ٩٤.

(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٥٨ ، روح المعاني ٢٧/ ٢٦ ، فتح القدير ٥/ ٩٤.

تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وقال: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١].

وقال: ﴿ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد وردت كلمة الجبل مجموعة في ثلاثة وثلاثين موضعاً وذلك نحو قوله: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود: ٤٢]، وقوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥].

أما كلمة الطور فلم ترد مجموعة في القرآن الكريم.

رجع ـ ردّ:

استعمل القرآن الفعل (ردّ) في الغالب للأمور الثقيلة والمستكرهة سواء كان ذلك في الرد عما هو فيه من حال إلى غيره، أي كراهية ترك ما هو فيه إلى غيره؛ لأن ما هو فيه محبوب لديه وتركه ثقيل عليه، أو يكون الرد عائداً على مآل الشخص المردود ومصيره، فإن كان مصيره ومآله ثقيلاً مستكرهاً شديداً عليه استعمل له: ردّ.

أما رجع فيستعمله في الغالب لما هو أخف وأيسر.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [التوبة: ٩٤، الجمعة: ٨].

وقال: ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وقال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ [النور: ٦٤].

فاستعمل مرة (تردون) ومرة (ترجعون).

ومن النظر في الآيات يتبين أنه استعمل (يردون) لما هو أثقل وأشد.

فقد استعمل الفعل (يرد) في آية التوبة في المنافقين، وفي آية الجمعة في اليهود.

قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤].

وردُّ المنافقين إلى الله رد ثقيل عليهم شديد.

وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦ ـ ٨].

وردُّ اليهود إلى ربهم ردٌّ ثقيل شديد.

واستعمل الفعل (يرجع) في آيتي البقرة والنور في المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٨١].

وكذلك آية النور هي في المؤمنين، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ﴾ [النور: ٦٣ ـ ٦٤].

ولا شك أن رجوع المؤمنين إلى الله غير رجوع المنافقين والكافرين.

وقد استعمل الفعل (يردّ) أيضاً فيمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٠٢ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التوبة: ١٠٢ ـ ١٠٥].

ولا شك أن ردّ المؤمنين أيسر من رد هؤلاء المذنبين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

فاستعمل (رجع) لما هو أخف وأيسر.

وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ۝٢٩ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠].

فاستعمل الرد للكافرين.

وقال في خطاب لعموم الناس: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٠ ـ ٦٢].

فاستعمل الرد لعموم الخلق من المكلفين.

ومما يوضح ذلك أنه يستعمل الفعل (ردّ) في العقوبات والعذاب ولم يستعمل الفعل (رجع) في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وقال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقال: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

ولم يستعمل الفعل (رجع) في ذلك.

نعم استعمل (المرجع) في العذاب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، واستعمل (المردّ) في الخير، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

أما الفعل (رجع) فلم يستعمله في ذلك، مما يدل على ما قررناه. جاء في (ملاك التأويل) أن لفظ (رد) يحتمل من القهر والتعنيف أكثر مما يحتمله لفظ (رجع): «إذا قلت منه: رجعته أو رجع فإنه لا يحتمل ولا يفهم من معنى القهر والتعنيف ما يحتمله (ردّه)، ألا ترى وروده في مثل قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾...

أما (رجع) وما تصرف منه فقلما يرد في هذا المعنى، وإن ورد فليس ككثرة رد. فأما قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهذا عام للمؤمن والكافر، وإن كان أظهر في المؤمن فلا معنى تعنيف فيه»[1].

قد تقول: لقد استعمل القرآن ردّ ورجع بدلالة واحدة، فقد قال

---

(١) ملاك التأويل ٢/٦٤٦ ـ ٦٤٧، وانظر البرهان في متشابه القرآن ٢٣١، كشف المعاني لابن جماعة ٢٤٠.

تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقال: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠].

وقال: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣].

فاستعمل الفعل (ردّ) مرة واستعمل (رجع) مرة أخرى والقصة واحدة.

فما الفرق؟

والحق أن سياق كل من هذه التعبيرات مختلف.

أما آيتا الكهف وفصّلت فقد ذكرهما عدد ممن كتب في المتشابه من القرآن وبينوا سبب الاختلاف بينهما. فإن آية الكهف وقعت في سياق حوار بين مؤمن وكافر مشرك، فقد جاء فيها أن المشرك: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٥ ـ ٣٨].

أما سياق الآيات في فصلت فهو في الإنسان عموماً. قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٤٩ ـ ٥٠].

فاستعمل (رددت) الثقيلة مع المشرك المعاند؛ لأنه يستثقل ترك ما هو فيه من نعمة وغضارة عيش، كما أن مآله إلى وبال، وعاقبته وخيمة.

واستعمل (رجعت) للإنسان عموماً، وهو أقل كفراً من هذا المشرك المحاور، فجاء بما هو أيسر وأخف.

هذا علاوة على أن الفعل (رجع) ورد في سورة فصلت مرتين ، ولم يرد في الكهف ، فناسب ذلك من جهة أخرى.

جاء في (ملاك التأويل): «للسائل أن يسأل عن اختصاص آية الكهف بقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ واختصاص آية السجدة بقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ مع أن الظاهر اتحاد المقصود في الآيتين.

والجواب عن ذلك ـ والله أعلم ـ أن الآيتين وإن اتحدتا في الغاية الحاصل منها وصف حال الكافر المنكر للبعث الوارد في كل واحدة منهما في قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فإن آية الكهف منهما أقوى تعريفاً ببعد الكافر المضروب به المثل عن حال الإيمان.

وأما آية السجدة فصالحة لاتصاف الكافر والمؤمن بالحال المفتتحة بها من قوله ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ من حيث إن هذا وصف يعم المؤمن والكافر. . .

ألا ترى أن آية الكهف لا يكاد شيء من كلمها يجري في وصف المؤمن. . .

فتأمل ما بين هذه الكلم الواردة في وصف هذا الكافر والواردة في قوله في آية سورة السجدة ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾. . .

فلما افترقت الآيتان فيما ذكر ناسب آية الكهف قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ لما يشعر لفظ (رددت) ويحتمله من القهر والتعنيف وقوعاً أكثريّاً ، بخلاف لفظ (رجع) إذا قلت منه: رجعته أو رجع ، فإنه لا يحتمل ولا يفهم من معنى القهر والتعنيف ما يحتمله (ردّه)» [1].

وجاء في (البرهان في متشابه القرآن) للكرماني: «﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٦٤٤ ـ ٦٤٦.

رَبِّي﴾ وفي حم ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لأن الرد على الشيء يتضمن كراهة المردود. ولما كان في الكهف تقديره: ولئن رددت عن جنتي هذه التي أظن ألا تبيد أبداً إلى ربي ؛ كان لفظ الرد الذي يتضمن الكراهة أولى. وليس في حم ما يدل على الكراهة. فذكر بلفظ الرجع ليقع في كل سورة ما يليق بها»(١).

وجاء في (كشف المعاني): «إن في لفظ الرد من الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ الرجوع ، فلما كان آية صاحب الكهف وصف جنته بغاية المراد بالجنان كانت مفارقته لها أشد على النفس من مفارقة صاحب حم السجدة لما كانت فيه ؛ لأنه لم يبالغ في وصف ما كان فيه كما بالغ صاحب آية الكهف ، فناسب ذلك لفظ الرد هنا ولفظ الرجوع ثمة» (٢).

وأما قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠] ، وقوله: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣] ، فذلك ما يبينه السياق في كل من الآيتين.

قال تعالى في طه: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٣٧ ـ ٤١].

وقال في القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

---

(١) البرهان ٢٣١.
(٢) كشف المعاني ٢٤٠.

فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٧ ـ ١٣].

ومن النظر في السياقين يتضح أن الأمر ذكر في طه بصورة أخف على أم موسى، فلم يذكر معاناتها في ذلك كما ذكر في القصص.

فإن القصة في القصص مبنية على الخوف، بخلاف ما في طه.

١ ـ فقد قال في القصص: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾. ولم يقل مثل ذلك في طه.

٢ ـ وقال فيها أيضاً: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾.

ولم يقل مثل ذلك في طه.

٣ ـ وقال فيها: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾.

ولم يقل مثل ذلك في طه.

٤ ـ ذكر في طه نعمة ومننه على موسى، فقد قال: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾.

وقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ ثم ذكر منته عليه في أمر ولادته.

وقال: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ .

وقال: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ .

ولا يناسب ذكر هذه المنن أن يدع أمه تتعذب وتحزن ويثقل الأمر عليها ثم يعيده إليها بعد ذلك. فلم يذكر في طه ما ذكر في القصص، فجاء بالفعل (رجع) دون (ردّ).

٥ ـ ومما حسّن ذلك أن الفعل (رجع) ومتصرفاته ورد في سورة طه أربع مرات، وفي القصص ثلاث مرات.

وأن الفعل (رد) ومتصرفاته لم يرد في طه، وورد في القصص ثلاث مرات.

فناسب من جهة أخرى (رجعناك) ما في طه، و(رددناه) ما في القصص.

٦ ـ ثم إنه قال: (رددناه) في القصص موافقة لما جاء قبله وهو قوله: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

فناسب (رددناه) قوله (رادّوه).

جاء في (البرهان) للكرماني: «﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ ﴾ وفي القصص ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ ﴾ لأن الرجع إلى الشيء والرد إليه بمعنى. والرد عن الشيء يقتضي كراهة المردود. وكان لفظ الرجع ألطف فخص طه به. وخص القصص بقوله (فرددناه) تصديقاً لقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ »(١).

فناسب استعمال (رجعناك) في طه و(رددناه) في القصص من كل وجه.

---

(١) البرهان ٢٣٧.

وهناك أمر آخر حسّن استعمال (رددناه) في القصص و(رددت) في الكهف فيما يثقل ، واستعمال (رجعناك) في طه و(رجعت) في فصلت فيما هو أخف ، ذلك أن لفظ (رددنا) أثقل من (رجعنا) ، و(رددت) أثقل من (رجعت) ، وذلك لمكان التضعيف في رددنا ورددت ، فإن التضعيف مستكره ثقيل على اللسان كما قرره علماء اللغة ، ولذلك كثيراً ما يبدل العرب التضعيف إلى حرف مد، كما في (دسّاها) فإن أصله (دسّسها) [(١)] ، و(تسرّبت) فإن أصله (تسرّرت) ، و(تظنّيت) فإن أصله (تظننت) [(٢)] . و(ربّاه) فإن أصله (ربّبه) كل ذلك على تحويل التضعيف[(٣)] .

جاء في (شرح الرضي على الشافية): «اعلم أنهم يستثقلون التضعيف غاية الاستثقال ، إذ على اللسان كلفة شديدة في الرجوع إلى المخرج بعد انتقاله عنه» [(٤)] .

وجاء في (تاج العروس): «دسسه ودسّاه: الأخيرة على البدل كراهية التضعيف» [(٥)] .

فناسب بين ثقل اللفظ وثقل الأمر .

ومن أوجه الاختلاف في الاستعمال بين الفعلين (رجع) و(ردّ) أنه يستعمل (يرجعون) في فواصل الآيات دون (يردّون) نحو ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢] ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨] في آيات كثيرة .

---

(١) انظر لسان العرب (دسس) ، القاموس المحيط (دسس) .
(٢) لسان العرب (سرر) .
(٣) انظر لسان العرب (ريب) ، تاج العروس (ريب) .
(٤) شرح الرضي على الشافية ٣/ ٢٣٩ .
(٥) تاج العروس (دسس) .

ومن أوجه الاختلاف في الاستعمال بينهما أيضاً أنه يستعمل مضارع (رجع) بمعنى (تاب) و(أناب إلى ربه)، بخلاف (رد) فإنه لم يستعمله في مثل هذا المعنى.

قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقال: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وقال: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

أي يرجعون إلى ربهم فيتوبون.

الزوج ـ السيد:

يستعمل القرآن كلمة (الزوج) لزوج المرأة فيقال: (هو زوجها)، ولزوج الرجل فيقال: (هي زوجه) كما يقال (هي امرأته). قال تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧١].

وقال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠].

فهي في هذه الآيات بمعنى زوج الرجل.

وقال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وقال: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وهي هنا بمعنى زوج المرأة.

وقد وردت كلمة (سيد) بمعنى زوج المرأة أيضاً وذلك في موطن

واحد وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

ولم يستعمل هذه اللفظة لهذا المعنى في موطن آخر. وذكر بعض أهل اللغة أن (سيدها) بمعنى (زوجها) ليست في كلام العرب وإنما هي بلسان القبط[١]. أي بلسان المصريين القدامى.

والطريف أنه استعمل هذه اللفظة في قصة يوسف، أي بلسان من كان يستعملها في القديم.

وهذا من لطيف الاستعمال، وهو نظير استعمال اليم في قصة موسى.

السَّنَة - العام - الحِجّة:

استعمل القرآن السنة والعام، كما استعمل الحجج بمعنى السنين. وقد حاول أهل اللغة أن يفرقوا بين السنة والعام.

وأشهر ما قيل في التفريق بينهما أن **السنة** تستعمل في القحط ولمعنى الأزمة، وأن **العام** يستعمل في عام الخصب والرخاء. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي بالقحوط.

وقال: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩].

جاء في (نظم الدرر) للبقاعي في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

«وعبر بلفظ (سنة) ذماً لأيام الكفر.

وقال (عاماً) إشارة إلى أن زمان حياته عليه الصلاة والسلام بعد إغراقهم كان رغداً واسعاً حسناً بإيمان المؤمنين وخصب الأرض»[٢].

---

(١) الإتقان ١/ ٤٠١.

(٢) نظم الدرر ٥/ ٥٤٣.

ومما قيل في التفريق بينهما أيضاً أن السنة تكون: «من أي يوم عددته إلى مثله. والعام لا يكون إلا شتاء وصيفاً. فإذا عددت من اليوم إلى مثله فهو سنة يدخل فيه نصف الشتاء ونصف الصيف. والعام لا يكون إلا صيفاً وشتاء. فالعام أخص من السنة. فكل عام سنة وليس كل سنة عاماً» (١).

ويبدو أن في هذا التفريق تكلفاً، فقد استعمل القرآن العام فيما لا يدل على أنه شتاء وصيف وذلك كقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦]. وغير ذلك من الاستعمالات.

لقد خالف القرآن بين السنة والعام في الاستعمال.

فقد استعمل العام للعام الواحد، واستعمل العامين للمثنى، واستعمله بعد العدد، غير أنه لم يجمع كلمة العام، فلم ترد في القرآن كلمة (أعوام).

قال تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧].

وقال: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فاستعمل العام للواحد، والعامين للاثنين، وبعد العدد (مائة عام)، ولم ترد كلمة (أعوام).

أما السنة فلم يستعملها للمفرد ولم يستعملها في المثنى، بل وردت كلها في الجمع بعد العدد أو من غير عدد نحو قوله: ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١].

---

(١) تاج العروس (عام).

ولقد استعمل السنة بلفظ المفرد واستعملها مجموعة جمع مذكر سالماً ، قال تعالى : ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [الإسراء : ١٢] .

وقال : ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف : ٤٢] .

ولم يستعملها مجموعة جمع مؤنث سالماً .

أما (**الحجة**) بمعنى السنة فلم تأت بلفظ الإفراد وإنما جاءت مجموعة مرة واحدة وهو قوله : ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ [القصص : ٢٧] .

وأصل معنى الحجة من الحج وهو القصد للزيارة ، واختص بالعبادة المعروفة ، والحج إنما يكون مرة واحدة في العام فصارت الحجة بمعنى السنة .

وقد استعملت في هذه الآية لفظ الحجج دون السنين مناسبة للمقام والسياق الذي وردت فيه ، ذلك أن موسى ـ كما ورد في هذا السياق ـ جاء فارّاً من مصر إلى مدين ، وليس هو من أهل مدين ، فهو إذن زائر ولا بد أن يترك مزوره ويعود ، كالحاجّ إذا قضى حجه فإنه لا بد أن يعود .

ثم إنه ذكر أنه أصبح أجيراً لدى الرجل الصالح . وقد ورد لفظ الاستئجار والإجارة في هذا السياق ، قال تعالى : ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص : ٢٦] .

وقال الرجل الصالح : ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ [القصص : ٢٧] .

والأجير يترك مستأجره إذا قضى أجله ، والإجارة إنما تكون لمدة متفق عليها ، فلما ذكر الإجارة والاستئجار ناسب ذكر الحجج ؛ لأن الحجة لا تناسب الإقامة من حيث معناها اللغوي . ولذلك قال بعدها :

﴿ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩] فناسب ذكر الحجج من جهتين:

من جهة أنه جاء المدينة فارّاً وليس هو من أهل المدينة.

ومن جهة كونه مستأجراً في غير دار إقامته.

وقد تقول: ولكنه قال في سورة طه: ﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠].

ولم يقل (لبثت حججاً) فما الفرق؟.

والجواب أنه لم يذكر في سورة طه فرار موسى إلى مدين ولا استئجاره لصاحب مدين ولا قضاء الأجل، فناسب ذكر الحجج في القصص دون طه والله أعلم.

الغرف ـ الغرفات:

الغرف والغرفات كلتاهما جمع الغرفة، غير أن الغرفات جمع قلة والغرف جمع كثرة.

وقد وردت **الغرف** في موطنين وهما قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩].

وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

ووردت **الغرفات** في موطن واحد وهو قوله: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

فقد قال في آيتي العنكبوت والزمر: (غرف) وقال في سورة سبأ:

(الغرفات) وذلك أن الجزاء في آيتي العنكبوت والزمر أعلى مما في سبأ.
فقد جاء في آية العنكبوت:

١ ـ بجمع الكثرة (غرف).

٢ ـ وذكر أنها تجري من تحتها الأنهار.

٣ ـ وأنهم خالدون فيها.

وذلك لزيادة في صفات أصحابها فقد ذكر أنهم:

١ ـ آمنوا.

٢ ـ عملوا الصالحات.

٣ ـ وذكر أنهم عاملون ﴿ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَـٰمِلِينَ ﴾.

٤ ـ وأنهم صبروا.

٥ ـ وعلى ربهم يتوكلون.

وذكر في الزمر أنهم اتقوا ربهم، فذكر أن لهم غرفاً وأنها تجري من تحتها الأنهار.

أما في سبأ فلم يذكر إلا من آمن وعمل صالحاً، فجاء بالغرفات ولم يذكر أنها تجري من تحتها الأنهار. ولا شك أن المتقي أعلى من مجرد المؤمن، فقد يكون الشخص مؤمناً ولكن غير متق. فكل متق مؤمن ولكن ليس كل مؤمن متقياً.

فلما زاد في الوصف زاد في الأجر.

فناسب كل تعبير موطنه.

وهناك أمر آخر حسّن كل تعبير في موضعه. وهو أنه ذكر مع جمع الكثرة ـ أعني الغرف ـ (الذين آمنوا) و(الذين اتقوا).

و(الذين) جمع الذي ، فهو نص في الجمع .

وذكر مع جمع القلة أعني ـ (الغرفات) ـ ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فجاء بـ (من) التي لفظها يفيد الإفراد ، وجاء بعدها بضمير المفرد (من آمن وعمل) فناسب جمع القلة .

فناسب الجمع ـ أعني (الذين آمنوا) و(الذين اتقوا) ـ جمع الكثرة .

وناسب الإفراد أي (من آمن وعمل) جمع القلة .

الكِفل ـ النصيب:

الكِفل هو الحظ والنصيب والمِثل .

والنصيب هو الحظ أيضاً .

قال تعالى : ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء : ٨٥].

فقال في الشفاعة الحسنة (نصيب) وفي الشفاعة السيئة (كفل). ذلك ـ والله أعلم ـ أن من معاني الكفل (المثل) [١] أما النصيب فقد يكون قليلاً أو كثيراً. فذكر أن للشفاعة الحسنة نصيباً منها للشافع ، ونصيب الحسنة كبير لأن الحسنة بعشر أمثالها ، وذكر أن للشفاعة السيئة مثلها وذلك لأن السيئة يجزى صاحبها مثلها ، قال تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل : ٨٩] ، وقال : ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام : ١٦٠].

أما ما ذكره بعضهم من أن الكفل إنما هو النصيب الرديء ، والنصيب إنما هو للحظ الحسن فلا يصح ؛ لأن القرآن استعملهما كليهما في الحسن والرديء ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟

---

(١) لسان العرب (كفل).

لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ﴾ [الحديد: ٢٨].

جاء في (روح المعاني) في الكفل والنصيب: «وفرّق بينهما بعض المحققين بأن **النصيب** يشمل الزيادة، **والكفل** هو المثل المساوي. فاختيار النصيب أولاً لأن جزاء الحسنة يضاعف، والكفل ثانياً لأن من جاء بالسيئة لا يجزى إلا مثلها. ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده»(١).

المهد ـ المهاد:

المهد هو مهد الصبي، وهو موضعه الذي يهيّأ له لينام فيه، قال تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

أما **المهاد** فهو الفراش. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦]، وقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ﴾ [الأعراف: ٤١].

جاء في (لسان العرب): «المهاد: الفراش... يقال للفراش مهاد لوثارته. وفي التنزيل ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ﴾... الأزهري: المهاد أجمع من المهد كالأرض جعلها الله مهاداً للعباد...

المهد: مهد الصبي. ومهدُ الصبي موضعه الذي يهيأ له ويوطّأ لينام فيه. وفي التنزيل ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾»(٢).

لقد استعمل القرآن هاتين الكلمتين فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ

---

(١) روح المعاني ٥/٩٨.
(٢) لسان العرب (مهد).

﴿ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [طه: ٥٣]، وقال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [الزخرف: ١٠].

فاستعمل (المهد) للأرض.

وقال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ [النبأ: ٦].

فاستعمل لها المهاد.

فقال عن الأرض مرة إنها مهد وقال مرة إنها مهاد وذلك بحسب ما يقتضيه السياق.

فقال في المهد: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٤].

وقال في الزخرف: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾ [الزخرف: ٩ ـ ١٢].

وقال في المهاد: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ [النبأ: ٦ ـ ١٦].

فاستعمل في سياقي طه والزخرف (المهد) وفي النبأ (المهاد)، وذلك أنه لما كان المهد إنما هو للطفل وهو موضعه الذي يهيأ له ويوطأ له لينام فيه، والطفل لا يقوم بنفسه ولا يصلح نفسه بنفسه وإنما هو محتاج إلى

من يقوم عليه ويهيّء له أسباب البقاء ذكر في سياق المهد أنه إنما هيأ له النعم وجعلها له فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا﴾ و﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا﴾ فجعل الأرض لهم مهداً والسبل لهم. وقال: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡ﴾ فقد هيأ ذلك لهم.

وقال في الزخرف: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا﴾ و﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا﴾ فجعل الأرض لهم وجعل السبل لهم. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾ فجعل الفلك والأنعام لهم.

ولما ذكر المهاد وهو ليس خاصاً بالطفل لم يذكر ذلك، فلم يقل إنها جعلها لهم. فقد قال ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا﴾ ولم يقل (لكم) وكذلك بقية الآيات. فعدد مظاهر قدرته ولم يذكر أن ذلك لهم، فلم يقل إنّه أنزل الماء لهم وأخرج الحب والنبات والجنات ليأكلوا منها. وإنما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي وقت طلب المعيشة، وهذا يقوم به الراشد وليس من في المهد.

فناسب كل من المهد والمهاد ما ورد في سياقه.

وقد تقول: ولم قال في طه: ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا﴾.

وقال في الزخرف: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا﴾.

والحق أن ذلك ليس هو الاختلاف الوحيد بين السياقين، فهناك أكثر من موطن اختلاف منها:

طه	الزخرف
سلك لكم فيها سبلاً	جعل لكم فيها سبلاً
وأنزل	والذي نزّل (بزيادة الذي)
أنزل	نزّل

ـــ	بقدر
فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى	فأنشرنا به بلدة ميتاً
كلوا وارعوا أنعامكم	ـــ
إن في ذلك لآيات لأولي النهى	وكذلك تخرجون

أما سبب ذلك ـ والله أعلم ـ فإن المقام في طه هو مقام التلطف والكلام اللين مع فرعون ، فقد قال تعالى لموسى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤] بخلاف ما في الزخرف فإنه في مقام التقريع والتحذير وبيان قدرة الله البالغة ، فقد قال تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٥ ـ ٨].

فالمقام مختلف فاختلف التعبير تبعاً لذلك:

١ ـ فقد قال في طه: ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ .

وقال في الزخرف: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ .

و(سلك) أيسر من (جعل) فقد ذللها لهم لسلوك سبلها وهو المناسب لمقام التلطف. ثم إن فعْل السلوك ورد في طه ولم يرد في الزخرف.

وإن الفعل (جعل) ورد في الزخرف أكثر مما ورد في طه ، فقد ورد في طه ثلاث مرات وفي الزخرف (١٢) اثنتي عشرة مرة.

فناسب كل فعل موطنه من كل جهة. جاء في (ملاك التأويل): «والمراد بسلك وجعل ما خلق وذلّل سبحانه فيها . . .

إن آية طه مقصود بها التلطف بالدعاء إلى الله على ما تقدم من أمره تعالى لموسى وهارون عليهما السلام في قوله: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ فلما

بنى الكلام على هذا وأعقبه بقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ ولا إشكال فيما في هذا من التلطف والرفق في الدعاء، ناسب ذلك العبارة بسلك عما أنهج تعالى من السبل والطرق لمرافق العباد ومصالحهم وهي منبئة عما يعطيه (جعل) في الآية الأخرى مع زيادة الوضوح وكمال التهيئة، فهي أنسب لما قصد في هذه السورة بقول مَنهج سالك، أي واضح بيّن. ولو قلت مجعول لم يعط هذا المعنى من الوضوح.

أما آية الزخرف فمبنية على توبيخ من كفر من العرب وتقريعهم، ألا ترى قوله سبحانه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾، وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي من هؤلاء الذين كذبوك يا محمد. فهذا كله من توبيخ الجاحدين والمعاندين...

وأيضاً فقد اكتنف لفظ (جعل) في الزخرف قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وقوله بعدها: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ فناسب هذا ذكر الجعل، ولم يكن ليناسب هنا هذه المناسبة لفظ سلك»[1].

وجاء في (البرهان) للكرماني: «قوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وفي الزخرف ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ لأن لفظ السلوك مع السبل أكثر استعمالاً فخص طه به. وخص الزخرف بجعل ازدواجاً للكلام وموافقة لما قبلها وهو ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وما بعدها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً﴾»[2].

٢ ـ قال في طه ﴿وَأَنزَلَ﴾.

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٦٨٤ ـ ٦٨٥.

(٢) البرهان ٢٣٧.

وقال في الزخرف: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ﴾.

بتكرار (الذي). ذلك أن الكلام في طه جواب عن سؤال عن القرون الأولى ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ. . . ﴾.

في حين كان السؤال في الزخرف عن الذي خلق السماوات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: ٩ ـ ١٢].

والجواب بـ (الذي) أنسب بالسؤال عن الخالق، بخلاف ما في طه الذي هو في سياق الجواب عن القرون الأولى فلم يذكر (الذي).

فكان التصريح بـ (الذي) في الزخرف أنسب، وعدم ذكره في طه أنسب. وهذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن كلمة (الذي) ترددت في سورة (طه) (٦) ست مرات، وفي الزخرف (١٢) اثنتي عشرة مرة.

فكان كل تعبير في مكانه أنسب من جهة أخرى.

ومن المناسب أن نذكر ههنا أمراً آخر وهو أن قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في الزخرف مناسب لما ورد في آخر السورة وهو قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وأن قوله في طه: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ مناسب لما ورد في آخر السورة ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨] ، ومناسب لقوله ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [١٣٣] .

فكان كل تعبير مناسباً في مكانه من كل ناحية .

٣ ـ قال في طه : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ .

وقال في الزخرف : ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ .

فقال في طه (أنزل) وفي الزخرف (نزّل) .

و(نزّل) يفيد المبالغة والتكثير .

فقال في طه : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ .

وقال في الزخرف : ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ﴾ .

وما يقتضيه من الماء في الزخرف أكثر مما في طه ؛ لأنه قصره في طه على إخراج أزواج من النبات .

أما في الزخرف فذكر أنه نشور للبلدة الميت ، وهذا لا يقتصر على النبات ، فإن النبات جزء من البلدة الميت فهو نشور للنبات والحشرات والأنعام وغيرها من الأحياء التي تتغذى على النبات ومن يستفيد منها .

ومن ذلك أن يكون للشرب ، فذلك من نشور البلدة الميت ، فإن لم يكن ماء يشرب منه الإنسان والأحياء هلك وهلكت . فهو نشور لعموم البلدة الميت بكل ما فيها . فاقتضى ذكر ما يدل على المبالغة والتكثير .

ثم إنه قال في طه : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ .

وقال في الزخرف : ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ .

فذكر الأزواج كلها .

فما في الزخرف أكثر .

ثم إنه قال في طه: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ فجعل الماء للأكل ورعي الأنعام.

أما في الزخرف فلإنشار البلدة الميت فكان ما في الزخرف أكثر.

فناسب ما في (طه) أنزل.

وناسب ما في (الزخرف) نزّل.

ثم إن (أنزل) ورد في طه ثلاث مرات ولم يرد في الزخرف.

وأما (نزّل) فورد مرة في كلتا السورتين.

فناسب (أنزل) ما في طه من جهة أخرى.

٤ ـ ناسب قوله في طه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ قوله: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾.

وناسب قوله في الزخرف: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

٥ ـ قال في الزخرف: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾.

ولم يقل في طه (بقدر).

ذلك أن القدر أو المقدار جارٍ في سورة الزخرف في أكثر من موطن، فقد قال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

أي إنما يفعل ذلك بقدر.

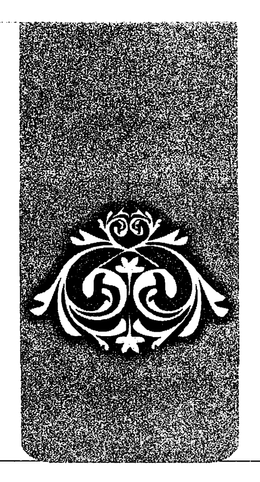
وقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [٣٢].

أي إنما يفعل ذلك بقدر.

وقد عاب على المسرفين أي الذين لا يفعلون بقدر، قال تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

فناسب قوله (بقدر) جو السورة. والله أعلم.

* * *



من خواص الاستعمال القرآني

استعمل القرآن الكريم قسماً من المفردات أو التعبيرات لمعنى معين أو خصّها بمعنى من بين معاني المفردة أو التعبير ، وذلك نحو ما ذكر في الريح والرياح ، والأعين والعيون ، وما إلى ذلك.

وسنذكر قسماً من هذه المفردات أو التعبيرات وهو من باب التمثيل وليس من باب الاستقصاء. وذلك مما يدل على أن التعبير القرآني إنما هو تعبير مقصود. وأود أن أشير إلى أن كثيراً من خواص الاستعمال ذكرناه في باب المفردات والصفات ، وأشرنا أيضاً إلى اقتران قسم من أسماء الله الحسنى ببعضها كاقتران (الغفار) بـ (العزيز) دون غيره من أسماء الله الحسنى ، واقتران (القهار) بـ (الواحد) دون غيره. وغير ذلك.

كما أشرنا إلى طرف من خواص الاستعمال عند عرضنا للتعبير القرآني في كتبنا المتعددة.

وسنذكر طرفاً من ذلك ههنا وهو كما ذكرت من باب التمثيل.

فمن ذلك :

١ ـ أنه استعمل (الإقامة) لما يقابل الظعن والسفر ، وخص استعمال (الإقام) بالصلاة نحو (إقام الصلاة).

٢ ـ استعمل القرآن الكريم الفعل (جاء) ماضياً ولم يستعمل منه غير الماضي ، فلم يأت منه بمضارع ولا أمر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول.

بخلاف (أتى) فقد ورد منه ذلك.

٣ ـ وردت كلمة (عام) مفردة ومثناة في القرآن ولم ترد مجموعة، فإنه لم ترد فيه كلمة (أعوام).

ووردت كلمة (سنة) مفردة ومجموعة جمع مذكر سالماً، ولم ترد مثناة ولا مجموعة جمع مؤنث سالماً.

٤ ـ لم يستعمل غير (يا) من حروف النداء.

٥ ـ لم يرد التعبير (يغفر لكم ذنوبكم) أي من دون ذكر (من) في غير الأمة المسلمة أمة محمد ﷺ.

أما ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ فقد ورد في غيرها من أمم الأنبياء السابقين.

وورد أيضاً على لسان الجن الذين آمنوا بمحمد ﷺ في قولهم لقومهم ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١].

٦ ـ كل المواطن التي اجتمع فيها اسما الله العظيمان (الغفور) و(الرحيم) قدم فيها (الغفور) على (الرحيم) إلا موطناً واحداً وهو قوله في سبأ: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

٧ ـ كل الحروف جاءت فواصل للقرآن إلاّ حرف الخاء.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لم يرد إلا في سورة البقرة، وقد ورد فيها أربع مرات.

٩ ـ لم يرد إسناد إرادة السوء أو الضرّ إلى (الرب) بل يسند ذلك إلى الله سبحانه، وأقصد بذلك إسناد الفعل (أراد)، وذلك نحو قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح: ١١].

أما غير فعل الإرادة فقد يسند ذلك إلى الرب كالعقوبات وغيرها نحو قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦].

١٠ ـ لم يرد الإعطاء مع غير (الرب) من أسماء الله الحسنى.

١١ ـ ورد الدعاء كثيراً مع لفظ (الرب) ولم يرد مع (اللهم) وحدها إلا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولا يناسب ذكر الرب ههنا لأنه دعاء بالعذاب على أنفسهم فلا يصح طلب ذلك من ربهم الذي هو متولي أمرهم ومربيهم والقيم على أمرهم ورازقهم.

وقد اقترن لفظ (الرب) مع (اللهم) في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤].

وأما قوله سبحانه في أهل الجنة: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] فليس دعاء، إذ ليس فيه طلب شيء ولا مسألة حاجة.

١٢ ـ خص كلمة (الصوم) بمعنى الصمت، ولم يرد بمعنى العبادة المعروفة.

ولم يرد للعبادة المعروفة إلا (الصيام).

١٣ ـ استعمل (البررة) للملائكة فقط ولم يستعملها للبشر.

ولم يستعمل للمكلفين إلا (الأبرار).

١٤ ـ خص لفظ (القاعدين) جمع قاعد بالقعود عن الجهاد، ولم

يستعمل للقعود نقيض القيام إلا (القعود) جمع قاعد وذلك نحو قوله: ﴿ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ .

١٥ ـ خص لفظ (القائمين) جمع قائم بالقيام بأوامر الله ، ولم يستعمل للقيام نقيض القعود إلا (القيام) جمع قائم.

ولعل من أسباب ذلك الدلالة على القلة والكثرة النسبية. فإن الجمع السالم الأصل فيه أن يكون للقلة كما هو معلوم. ولا شك أن القاعدين عن الجهاد أو القائمين بأمر الله أقلّ بكثير من الذين يقومون ويقعدون بمعنى القيام والقعود الحقيقي.

فاستعمل الجمع السالم للقلة ، وجمع التكسير الدال على الكثرة للكثرة والله أعلم.

١٦ ـ لم يستعمل (الموتى) جمع (ميت) إلا لمن مات حقيقة.

وأما (الأموات) فاستعملها عامة لمن ماتوا أو لغيرهم.

وأما (الميتون) فاستعملها لمن لم يمت بعد.

١٧ ـ لم يستعمل (الحمير) جمع حمار إلا للحُمُر الأهلية ، وأما (الحُمُر) فاستعملها للحمر الوحشية.

١٨ ـ لم يستعمل الفعل (سلك) في الآخرة إلاّ للدخول في النار ، ولم يستعمله للدخول في الجنة.

أما الدخول فإنه يستعمله في الجنة والنار.

١٩ ـ لم يستعمل في أصحاب الجنة إلا (خالدين) بالجمع ولم يستعمل فيهم (خالداً) بالإفراد وذلك لزيادة الأنس مع الجمع.

وأما في أصحاب النار فاستعمل المفرد والجمع.

٢٠ ـ لم ترد (المساكن) في الجنة إلا مع (عدن) ولعل من أسباب ذلك

أن العدن هو الإقامة ، وهي بها حاجة إلى المسكن.

٢١ ـ لم يرد الفعل (عبد) متعدياً إلى (من) بل إلى (ما) نحو قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤٢] ، وقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦].

٢٢ ـ استعمل (الكفران) لما يقابل الشكر.

٢٣ ـ خص كلمة (عالم) بعلم الغيب مفرداً فيقول: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أو ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

وخص كلمة (علّام) بالغيوب وهو جمع الغيب مناسبة للمبالغة.

وأما كلمة (عليم) فاستعملها مطلقة.

٢٤ ـ استعمل القرآن الكريم مع الوزن لفظ (القسط) ولم يستعمل العدل.

٢٥ ـ إن كلمة (العاقبة) حيث جعل لها الفعل بلفظ التذكير نحو: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فهي بمعنى العذاب.

وحيث جعل لها الفعل بلفظ التأنيث نحو ﴿تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ فهي بمعنى الجنة. فناسب بين اللفظ والمعنى.

٢٦ ـ استعمل (الغيث) في الخير ، و(المطر) في العقوبات والشر.

واستعمل (الودق) في غير ذلك وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣ ، الروم: ٤٨].

٢٧ ـ إذا ذكر الإحسان إلى الأب والأم والبر بهما أو الدعاء لهما فإنه يذكر ذلك بلفظ (الوالدين) ولا يذكره بلفظ (الأبوين).

٢٨ ـ ورد في القرآن قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ و﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾. ولم يستعمل ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إلا خاصة بالمؤمن.

وأما ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فاستعملها عامة للمؤمن والكافر.

٢٩ ـ ونحو ذلك قوله: ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ و﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فخص ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ بالمؤمن. واستعمل ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ للمؤمن والكافر.

٣٠ ـ كل سورة أسند فيها الفعل (وعد) إلى (الله) لم يرد فيها اسم (الرحمن) وإن كانت طويلة كسورة النساء والمائدة والتوبة وغيرها.

٣١ ـ كل ما أسند فيه الوعد إلى لفظ الجلالة (الله) فهو مخصص سواء بالمؤمنين أم بالكافرين فيقول مثلاً: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أو ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾.

أما إذا أسند فيه الوعد إلى (الرحمن) فهو وعد عام للعباد وذلك نحو قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١].

٣٢ ـ معنى ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ في القرآن (ثبت العذاب).

٣٣ ـ لم يرد في القرآن نحو قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في المؤمنين، وإنما ورد ذلك في الكافرين أو لعموم الخلق.

وأما ذكر الجزاء مع الباء نحو ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فيكون للمؤمن والكافر.

٣٤ ـ إذا عبر الله سبحانه عن نفسه بضمير الجمع فلا بد أن يتبعه أو يسبقه بما يدل على الإفراد لإفادة أن المقصود بذلك إنما هو الله وأن هذا الضمير للتعظيم ولئلا تكون في الذهن شائبة شرك.

٣٥ ـ إذا ورد فعل التسبيح معدى باللام نحو (سبّح لله) استعمله ربنا مع العاقل وغير العاقل نحو قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ

وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧].

وإذا ورد معدى بنفسه خصه بالعاقل فلا يستعمله مع غير العاقل وذلك نحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢].

٣٦ ـ كل سورة افتتحت بالتسبيح بالفعل الماضي نحو ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ جرى فيها ذكر للقتال.

وأما التي تفتتح بالفعل المضارع أي (يسبّح لله) فلا يذكر فيها القتال.

٣٧ ـ كل آية تكررت فيها (ما) بعد فعل التسبيح نحو قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أعقب ذلك بالكلام على أهل الأرض.

وإذا لم يكرر (ما) نحو قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فلا يعقبها بالكلام على أهل الأرض.

٣٨ ـ كل ما ورد في الجنة من الأنهار إنما جاء بالجمع إلا في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ [القمر: ٥٤] جاء بالمفرد، ومما فسر به النهر هنا: السعة والضياء إضافة إلى النهر المعروف.

٣٩ ـ إذا ذُكرت (الأنهار) في الجنة وصفت بالجريان فيقول: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أو نحو ذلك إلا ما ورد في قوله تعالى في سورة محمد: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمد: ١٥].

ولما لم توصف بالجريان وكان ذلك مظنة الأسون قال: ﴿غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ ليزيل هذا الظن.

٤٠ ـ لم يناد موسى بني إسرائيل بقوله: (يا بني إسرائيل) وإنما يناديهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

ولم يناد عيسى بني إسرائيل بـ (يا قوم) بل ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لأنه ليس له نسب فيهم.

٤١ ـ لم يرد في القرآن (إن لنا الدنيا والآخرة) أو (الآخرة والدنيا) بل كل ما ورد في نحو هذا ذكر (الأولى) مع الآخرة وذلك نحو: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ و ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾.

٤٢ ـ لم يرد في القرآن إسناد الفعل (أعدّ) إلى الضمير (نا)، فإنه لم يرد فيه (أعددنا) كما لم يرد الفعل (أعتد) مسنداً إلى الله إلا بضمير التعظيم أي ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾.

٤٣ ـ ورد في القرآن ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ ونحوه كثيراً.

ولم يرد فيه ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ إلا في سورة الحديد ـ الآية ١٥.

٤٤ ـ لم يرد في القرآن (عليه الله) بكسر الهاء أو ضمها في (عليه) إلا في سورة الفتح في قوله: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

٤٥ ـ لم يرد ضمير الغيبة في فعل مكسوراً وقبله كسرة وقبلهما حركة أي ثلاث حركات متوالية على النحو الآتي:

حركة + حرف مكسور + ضمير الغيبة مكسوراً.

وجاء قوله: ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ [النور: ٥٢] وقياسه أن يكون كذلك، غير أنه ورد بسكون القاف.

٤٦ ـ لم يرد في سورة البقرة (إن ربك غفور رحيم) بل كل ما ورد فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ونحوه.

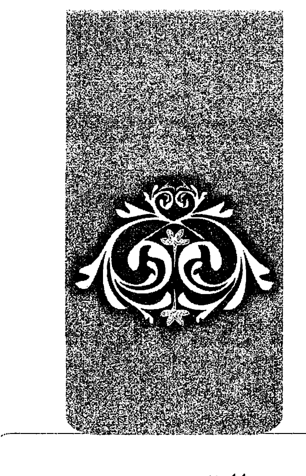
ولم يرد في سورة الأنعام (إن الله غفور رحيم)، وإن كل ما ورد فيها ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ونحوه.

٤٧ ـ لم يرد في سورة الأنعام نحو قوله: (عليم حكيم) بتقديم العليم على الحكيم بل كل ما ورد فيها ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ بتقديم الحكيم على العليم.

ولم يرد في سورة يوسف إلا ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بتقديم العليم على الحكيم.

وغير ذلك وغيره.

* * *



التـوكيـد

من المعلوم أن التوكيد يكون في الكلام بحسب الحاجة إليه ، فإن لم يكن بالكلام حاجة إلى التوكيد لا يؤكد ، وإن كان به حاجة إلى ذلك فعلى قدر الحاجة. فإن كان يحتاج إلى مؤكد واحد أكد بمؤكد واحد ، وإن احتاج إلى أكثر من ذلك أكد بحسب ذلك.

وهذا واضح في التعبير القرآني. فقد يأتي التعبير فيه خالياً من التأكيد وقد يأتي مؤكَّداً بمؤكد واحد أو أكثر. ونريد أن نوضح هنا شيئاً من ذلك:

١ ـ قال تعالى في سورة المرسلات: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨] من دون تأكيد.

وقال في الصافات: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٤] بالتوكيد بإنّ.

وذلك أن الكلام على المجرمين في سورة المرسلات في ثلاث آيات وهي قوله: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٨].

في حين كان الكلام على المجرمين في سورة الصافات في عشرين آية تبدأ من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩] إلى قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ [٣٨].

وقد أفاض في ذكر صفاتهم وعذابهم فاستحق ذلك التأكيد في

الصافات، بخلاف ما في المرسلات فإنه لم يذكر شيئاً عن صفاتهم وعقوباتهم.

فناسب عدم التوكيد في آية المرسلات والتوكيد في الصافات.

٢ ـ جاء في الشورى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

وجاء في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٦ ـ ٦٨].

فقد قال في الشورى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ من دون تأكيد.

وقال في هود: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ بالتوكيد بـ (إن) مع ضمير الفصل.

وذلك أن المقام في هود مقام عقوبة للكافرين ونصر للمؤمنين.

أما في الشورى فمقام لطفه بالعباد ورزقه من يشاء منهم وليس مقام عقوبة، فأكد قوته وعزته في المقام الذي يقتضي ذلك.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [النمل: ١٢ ـ ١٣].

وقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧].

وقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ

مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

فقال في هذه الآيات: ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ من دون تأكيد.

في حين قال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٧٦].

بالتوكيد بإنّ واللام. وهذه هي الآية الوحيدة المؤكدة من بين نظائرها في القرآن الكريم.

ذلك أن الكلام في يونس على السحر والسحرة وقد كرر ذكرهما عدة مرات، بخلاف الآيات الأخرى فقد قال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٧٥ ـ ٨١].

فأنت ترى أنه تردد ذكر السحر في أكثر من موضع:

١ً ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

٢ً ـ ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾.

٣ً ـ ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾.

٤ً ـ ﴿ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾.

٥ً ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ ﴾.

٦ ـ ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾.

في حين لم يرد في سياق الآيات الأخرى في ذكر السحر إلا آية أو جزء من آية.

فقد قال في النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ولم يذكر الآيات ولم يرد ذكر للسحر في هذه القصة في غير هذه الآية.

وكذلك في الأحقاف فقد قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ولم يرد شيء عن السحر غير هذه.

وكذلك في آية الصف فقد قال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فهي جزء من آية ولم يرد شيء في ذلك غير هذا.

فلما فصّل وأطال في يونس في ذكر السحر والسحرة ناسب ذلك التوكيد والإطالة. فإن قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ آكد وأطول من قوله (هذا سحر مبين) فقد زاد عليه بإن واللام.

فوضع كلاًّ فيما يناسبه.

٤ ـ قال تعالى في أربعة مواضع من القرآن الكريم: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨، التوبة: ٢٤، ٨٠، الصف: ٥] من دون توكيد.

وقال في موضع واحد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] بالتوكيد بـ (إن).

ومن النظر في الآيات وسياقها يتضح سبب ذلك.

فقد قال في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ

ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ . . . فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ . . . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٦ ـ ١٠٨].

وقال في التوبة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال فيها أيضاً: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٧٩ ـ ٨٠].

وقال في الصف: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

فلم يؤكد في آية منها.

في حين قال: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ . . . ﴾
[المنافقون: ١ ـ ٨].

ومن النظر في الآيات في سورة المنافقون يتبين الفرق بينها وبين الآيات الأخرى، فإنها أشد الآيات المذكورة تبكيتاً وذمّاً، فقد حملت على المنافقين وأفاضت في ذكر سوءاتهم والتحذير منهم وفصّل في ذلك ما لم يفصّله في الآيات الأخرى، فقد ذكر:

١ً ـ أنهم كاذبون.

٢ً ـ وأنهم اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله.

٣ً ـ وأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم.

٤ً ـ وأنهم جبناء يحسبون كل صيحة عليهم.

٥ً ـ وأنهم هم العدوّ فاحذرهم.

٦ً ـ قاتلهم الله أنى يؤفكون.

٧ً ـ وأنهم يصدون وهم مستكبرون.

٨ً ـ وأنهم يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله.

٩ً ـ وأنهم يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز مها الأذل.

وغير ذلك فناسب ذلك التوكيد هنا دون الآيات الأخرى.

وأما آيتا المائدة والتوبة ٢٤ فهما في المسلمين، فلا تحتاجان إلى مثل هذا التوكيد.

وآية الصف في قول موسى لقومه وهم مؤمنون به. فالسياق في هذه الآيات مختلف، فكان التوكيد في مكانه أنسب.

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فأكد آية العنكبوت بمؤكدين (إن) واللام ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وأكد آية النحل بمؤكد واحد وهو (إن) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

ذلك أن السياق في العنكبوت في الجهاد فاقتضى توكيد المعية.

أما في النحل فليس في ذلك وإنما هي في الصبر والمعاقبة بالمثل من دون بغي، وفي النهي عن الحزن، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٨].

والفرق واضح بين الأمرين، فذلك جهاد وهذا صبر أو معاقبة لمن أساء إليه، ولا شك أن موطن الجهاد يقتضي توكيد المعية أكثر مما في النحل.

ثم لننظر من ناحية أخرى كيف قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ فجاء بالاتقاء بالفعل. ثم قال: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ بالاسم.

ذلك أن المعاقب ينبغي أن يقف عند عقوبة المثل ولا يبغي على خصمه، وهذا من باب التقوى وليس من باب الإحسان. فمن عاقب بمثل ما عوقب به فقد اتقى، ومن زاد على ذلك فليس بمتق.

وأما الصبر على ذلك فهو من باب الإحسان وهو أعلى وأفضل ولذلك قال: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فجاء بالأفضل والأمثل بالصيغة

الاسمية الدالة على الثبوت. وبالصفة التي دونها في الفضل بالفعل.

ثم إنه من الملاحظ أنه لم يقل: (إن الله مع الذين اتقوا ومع الذين هم محسنون) لئلا يفهم أنهما صنفان مختلفان.

ولم يقل: (إن الله مع الذين اتقوا وهم محسنون) لئلا يفهم أنهم صنف واحد وأن الله لا يكون إلا مع من جمع التقوى والإحسان.

فهو مع من جمع التقوى والإحسان ومع من لم يجمع بينهما.

٦ ـ قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقال في يونس: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

فقال في البقرة: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ بالتوكيد بإن واللام.

وفي يونس: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ بالتوكيد بإن دون اللام، وذلك أن آية البقرة في التحذير من اتباع أهواء الذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءه من العلم، أي بعد نزول الوحي عليه بالرسالة. ولا شك أن الرسول إذا خالف أوامر ربه واتبع الأهواء فإن ظلمه أكبر ومعصيته أشد.

أما في آية يونس فقد قال له: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ ولم يقل له: (من بعد ما جاءك من العلم). ولا شك أن معصية الرسول لو حصلت أعظم من معصية غيره، فكان التوكيد في البقرة أكثر مما في آية يونس.

وأنت تلحظ هذا في بناء كل من الآيتين.

١ً ـ فقد قال في آية البقرة (لئن) باللام الموطئة للقسم.

وقال في يونس (فإن).

ولا شك أن (لئن) آكد من (فإن) لما وطأت اللام من القسم.

٢ ـ ثم قال: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ﴾ فجاء بـ (من) الدالة على ابتداء الغاية، أي اتبع أهواءهم بعد نزول الوحي عليه مباشرة ولم يتريث. وهذا يعني أنه أسرع إلى المعصية، وهو أمر أدعى إلى وصفه بالظلم وتوكيده.

فإن قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أشد نكراً وظلماً مما لو قال: (بعدما جاءك من العلم) لما فيه من الإسراع إلى المعصية.

٣ ـ قال: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي بعد إبلاغه بالرسالة ونزول الوحي. وهو أدعى لتوكيد الظلم.

فاستحق ذلك الزيادة في التوكيد على ما في آية يونس والله أعلم.

٧ ـ قال تعالى في سورة الحجر في امرأة لوط عليه السلام: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠].

وقال في سورة النمل: ﴿قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧].

فقال في الحجر: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ بالتوكيد بإن واللام.

وقال في النمل: ﴿قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ من دون توكيد.

وسبب ذلك يتضح من النصين.

قال تعالى في الحجر: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٧ ـ ٧٦].

وقال في النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٨].

ومن النظر في النصين يتضح ما يأتي:

أ ـ إن القصة في سورة الحجر أطول مما في النمل فهي عشرون آية، من الآية السابعة والخمسين إلى السادسة والسبعين.

أما في النمل فهي خمس آيات، من الآية الرابعة والخمسين إلى الثامنة والخمسين.

وقوله: ﴿قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أطول من ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ لما في الأول من ذكر إن واللام.

فناسب طول الآية طول القصة في الحجر، وناسب إيجازها في النمل الإيجاز في القصة.

ب ـ قال في آل لوط في الحجر: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۙ﴾ بالتوكيد بإن واللام، وبـ (أجمعين) وبصيغة الاسم (منجوهم) الدالة على الثبوت، فناسب ذلك التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

ولم يسبق الآية في النمل توكيد ، فقد قال قبلها : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ﴾ حتى إنه لم يقل (وأهله أجمعين). فناسب ذلك عدم التوكيد في قوله : ﴿ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ .

٣ً ـ إن المؤكدات في قصة الحجر أكثر بكثير مما في قصة النمل. فقد جاء فيها : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ ﴿ لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ .

أما المؤكدات في النمل فهي ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فقد ورد التوكيد في الحجر في عشرة مواضع ، وفي كل موضع قد يكون أكثر من توكيد .

أما في النمل فلم يرد إلا في موضعين .

فناسب كل تعبير موضعه .

٤ً ـ وصف قوم لوط في الحجر بصفات أسوأ مما هي في النمل ، فقد وصفهم بأنهم مجرمون ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ والمجرم يستحق العقوبة .

ووصفهم في النمل بالجهل : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وليس بالضرورة أن يكون الجاهل مجرماً أو مستحقاً للعقوبة .

هذا إضافة إلى ما ذكره في قوم لوط من أمور سيئة في الحجر ، حتى أن رب العزة أقسم بحياة الرسول ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ مما لم يرد نحوه في النمل .

٥ً ـ إن موقف لوط من قومه وبرمه منهم كان أشد في الحجر مما في

النمل. فقد قال: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ . . . قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾.

٦ً ـ ذكر دفاعه عن ضيفه في الحجر مما لم يرد نحوه في النمل.

٧ً ـ كان التوعد بالعقوبة في الحجر أشد مما في النمل: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾.

ولم يرد مثل ذلك في النمل.

٨ً ـ إن العقوبة ذكرت في الحجر أشد مما في النمل مناسبة لما ذكر كل في موضعه.

فقد قال في الحجر:

أ ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ـ ولم يقل مثل ذلك في النمل.

ب ـ ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ ـ ولم يقل مثل ذلك في النمل.

ج ـ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

وقال في النمل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ والمطر قد يكون ماء، فما ذكر في الحجر أشد، وهو المناسب لما ذكره من إجرامهم وسوء صفاتهم.

فناسب كل تعبير موضعه من كل ناحية.

والله أعلم.

٨ ـ قال تعالى في سورة هود: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢].

وقال في سورة النمل: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٥].

فأكد الخسران بـ (أن) و(لا جرم) التي معناها حقًّا. وقيل: هي بمعنى القسم للتأكيد[1]، وليس كذلك في سورة النمل.

وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

قال تعالى في هود: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ١٨ ـ ٢٢].

وقال في سورة النمل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٤ ـ ٥].

ومن النظر في السياقين يتبين سبب الاختلاف بين التعبيرين.

فإنه لم يزد في النمل على أن هؤلاء (لا يؤمنون بالآخرة).

أما في هود فقد ذكر:

١ً ـ أنهم افتروا على الله كذباً فلا أظلم منهم.

٢ً ـ أن عليهم لعنة الله.

٣ً ـ أنهم يصدون عن سبيل الله.

٤ً ـ ويبغونها عوجاً.

---

(١) انظر معاني القرآن ٢/ ٨، الرضي على الكافية ٢/ ٢٨٩.

٥ ـ وهم بالآخرة هم كافرون.

٦ ـ وذكر أنهم يضاعف لهم العذاب.

فقد ذكر ما ذكره في النمل من صفاتهم وزاد عليه، فناسب ذلك الزيادة في التوكيد، هذا إضافة إلى التفضيل في صفاتهم وسوء أعمالهم، فناسب ذلك توكيد خسرانهم أكثر مما في النمل.

* * *



الذكر والحذف

إن الذكر والحذف في القرآن الكريم بحسب ما يقتضيه المقام والسياق ، فإذا اقتضى المقام الذكر ذكر وإلا لم يذكر. ومن ذلك على سبيل المثال:

١ ـ قوله تعالى في البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ١٨].

وقوله في الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٨ ـ ٣٩].

فقد قال في البقرة: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ من دون واو ، وقال في الأنعام: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ فذكر الواو.

والفرق بينهما أن قولنا (هؤلاء صم وبكم) بالواو يحتمل معنيين:

أن بعضهم صم وبعضهم بكم ، ويحتمل أنهم صنف واحد جمع الصَّمَم والبَكَم.

أما قولنا: (هؤلاء صم بكم) من دون واو فلا يحتمل إلا معنى واحداً وهو أنهم جمعوا الوصفين ، فهم صم بكم ، فهم صنف واحد.

إن آية البقرة في قوم هم أشد كفراً وضلالاً مما في الأنعام ، ذلك أنها في المنافقين ، وقد ذكر فيهم ثلاث عشرة آية (من الآية الثامنة إلى الآية العشرين). تبدأ بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٨ ـ ٢٠].

أما ما جاء في الأنعام فهي آية واحدة أو جزء من آية في قوم قال فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾.

فقد زاد في البقرة على التكذيب الذي ذكره في الأنعام الكذب والمخادعة والإفساد والسفه والاستهزاء والضلال.

فلما جمعوا في البقرة كل هذه الصفات جمع لهم الصمم والبكم والعمى وأنه تركهم في ظلمات لا يبصرون ، بخلاف آية الأنعام.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال في الأنعام: ﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى

ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ولم يقل إنهم عمي. أما في البقرة فقد ذكر أنهم عمي. وهذا أشد من وصفهم أنهم في الظلمات ؛ ذلك لأن الذي في الظلام إذا خرج منه فإنه قد يبصر ، أما الأعمى فهو لا يبصر على كل حال سواء كان في ظلام أم في ضياء.

هذا إضافة إلى أنه زاد في البقرة على العمى أنه تركهم في ظلمات فقال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ .

وقد تقول: ولكن قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

أليس ذلك يدل على أنهم صنف واحد مع المجيء بالواو؟.

فنقول: لقد قلنا إن هذا التعبير يحتمل معنيين ، بخلاف الأول ، ومع ذلك فإن آية الإسراء تحتمل أنها في صنف واحد ، كما تحتمل أنهم أصناف ؛ وذلك أن ربنا أخبر عن صنف أنه يحشر أعمى ولكنه ليس بأبكم ولا أصم ، فقد قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

فذكر أنه حشر هذا الصنف أعمى ولكنه يسمع ويتكلم بدليل المحاورة قال: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وجواب الحق له سبحانه.

وذكر عن صنف آخر أنهم لا يسمعون ، فقد قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠].

نعوذ بالله من ذلك كله.

٢ ـ قال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقال في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: ٣٩ ـ ٤٠].

بالفاء مع (سوف) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

في حين قال في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

فقال (سوف) من دون فاء، وذلك أن التهديد في آيتي الأنعام والزمر من الله، وأمره بتبليغهم، فهو آكد وأشد، فجاء بالفاء (قل يا قوم...).

وأما في آية هود فإنه قول شعيب ولم يكن قولاً لله، فكان التهديد في الأنعام والزمر أشد. والتهديد إنما يكون على حسب من توعد وهدّد، فإن كان المتوعد عظيماً قادراً كان أشد. جاء في (كشف المعاني): «قوله تعالى: ﴿إِنِّى عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هنا وفي الزمر. وفي قصة شعيب في هود: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بغير فاء.

وجوابه: أن القول في آيتي الأنعام والزمر بأمر الله تعالى بقوله: (قل) فناسب التوكيد في حصول الموعود به بفاء السببية. وآية هود من قول شعيب فلم يؤكد ذلك»[1].

قد تقول: ولكنه قال في موطن آخر من سورة هود على لسان سيدنا نوح عليه السلام: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩].

---

(١) كشف المعاني ١٦٧.

فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بالفاء ، فما الفرق بينه وبين قول شعيب؟ .

والجواب أن التهديد والتوعد على لسان سيدنا نوح أشد مما جاء على لسان سيدنا شعيب ، فقد توعدهم بأنه سيسخر منهم كما يسخرون منه ، وأنه سيأتيهم عذاب يخزيهم ويحلّ عليهم عذاب مقيم .

وأما تهديد شعيب فلم يزد على قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ .

فنوح زاد على ذلك بقوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ والسخرية منهم .

فلما زاد في التهديد والتوعد زاد الفاء لذلك .

والفاء قد تكون للتوكيد ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢] . فقال ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ من دون فاء .

في حين قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤] فقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ بالفاء ، وذلك لما ذكر الإنفاق بالليل والنهار سراً وعلانية ، فكان الأجر آكد .

ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠] فقال: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ من دون فاء .

في حين قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١] .

فقال: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾ بالفاء ، وذلك أنه ذكر عنهم أنهم

ماتوا وهم كفار فلم يبق مجال لقبول التوبة ، بخلاف الأولين .

فأكد في الموطن الذي يستحق التوكيد .

٣ ـ قال تعالى في سورة الدخان: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨].

وقال في سورة الحج: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

فقال في الدخان: ﴿فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾ من دون ذكر (من) ، وقال في الحج: ﴿مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ بذكر (من).

والفرق بينهما أن (من) تفيد ابتداء الغاية ، أي أن الحميم في آية الحج يصب فوق الرؤوس مباشرة من دون مسافة فاصلة .

أما في الدخان فلم يذكر (من) ، وهذا يحتمل المسافة القريبة والبعيدة بين صب الحميم والرأس. فالعذاب في آية الحج أشد .

قال تعالى في الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٥٠].

وقال في الحج: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٢].

ومن النظر في السياقين يتضح أن سياق آيات الحج أشد عذاباً .

١ً ـ فقد ذكر في الدخان طعام أهل النار: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ .

وذكر في الحج لباسهم: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾.

والثياب أدوم من الطعام؛ لأنها دائمة تكسو صاحبها. أما الطعام فإنه في وقت دون وقت.

٢ً - ذكر أن الثياب من نار.

٣ً - ذكر في الدخان أن الطعام يغلي في البطون كغلي الحميم.

وذكر في الحج أنه: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾.

وهو أشد؛ لأن ذلك يغلي، وهذا يصهر ما في بطونهم والجلود.

٤ً - أضاف الجلود إلى ما في البطون.

٥ً - ذكر في الحج أن لهم مقامع من حديد، ولم يذكر مثل ذلك في الدخان.

٦ً - ذكر ما يفعله الحميم في الحج من أنه يصهر به ما في بطونهم والجلود.

ولم يذكر ما يفعله الحميم في الدخان، وإنما ذكر صفة الطعام.

٧ً - قال في الحج: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، ولم يقل مثل ذلك في الدخان.

٨ً - قال في الحج إنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها.

ولم يقل مثل ذلك في الدخان.

فتبين أن العذاب في الحج أشد. وهو ما يتناسب مع ذكر (من) فيها.

٤ - قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

وقال في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

فقال في آية النحل: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بذكر (هم).

وقال في آية العنكبوت: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ من دون ذكر (هم).

إن في آية النحل توكيداً وتخصيصاً، وذلك لإسناد الجملة الفعلية إلى الضمير المتقدم، وليس كذلك التعبير في آية العنكبوت.

وذلك أن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

فإن آية النحل وقعت في سياق النعم العامة على العباد، بل إن سورة النحل جرى فيها ذكر النعم بصورة مفصلة، حتى إنها تسمى سورة النعم.

أما آية العنكبوت فهي في قريش خاصة، وجو السورة فيها يختلف أيضاً عن جو سورة النحل.

قال تعالى في سياق آية النحل: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل: ٦٥ ـ ٧٢].

فهي في سياق ذكر النعم.

بل إن السورة جرى فيها ذكر النعم من ابتدائها، قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ . . .﴾ ويستمر الكلام في النعم من الآية الخامسة إلى الآية الثامنة عشرة.

والنعم التي ذكرها عامة ومتعددة.

وأما آية العنكبوت فلم تقع في سياق النعم، فإن قبلها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا . . .﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥ ـ ٦٧].

وبعدها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾.

هذا علاوة على أن سورة العنكبوت ليس فيها تعداد للنعم، وإنما هي في الفتن والمحن والمجاهدة ابتداء من أولها وهو قوله: ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ إلى آخرها: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فناسب ذلك ذكر (هم) في النحل زيادة في الإنكار على من يكفر بعد كل تلك النعم التي أنعم الله بها عليهم.

هذا إضافة إلى أنه تردد ذكر لفظ (النعمة) في النحل أكثر مما في العنكبوت. فقد ورد في النحل (٩) تسع مرات، وورد في العنكبوت مرة واحدة.

وكلمة (هم) وردت في النحل (١٧) سبع عشرة مرة ، ووردت في العنكبوت (٦) ست مرات.

٥ ـ قال تعالى في سورة السجدة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

وقال في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

فقال في السجدة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ بذكر (هو).

وقال في الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ﴾ من دون (هو).

وهو نحو ما ذكرناه في آيتي النحل والعنكبوت السابقتين. وقد ذكرنا أن ذكر الضمير في نحو هذا يفيد التوكيد أو التخصيص.

وذلك أنه لما ذكر الاختلاف في آية السجدة فقال: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ جاء بضمير الفصل أو ضمير المبتدأ ، وكلاهما يفيد التوكيد والقصر ، وذلك لأن الاختلاف ينبغي فيه الفصل ، ولم يذكر الاختلاف في آية الحج ، وإنما ذكر الشهادة على كل شيء ، فاقتضى توكيد الفصل وقصره في آية السجدة دون آية الحج.

ومن الملاحظ أيضاً أنه قال في آية السجدة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ بذكر الرب مضافاً إلى ضمير المخاطب ، وقال في آية الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ بذكر اسمه العلم. ذلك ـ والله أعلم ـ أن كلمة (رب) وردت في سورة السجدة أكثر مما وردت في الحج مع أن سورة الحج أطول بكثير من سورة السجدة ، فقد وردت في السجدة عشر مرات ، ووردت في الحج ثلاث مرات.

وأن كلمة (الله) وردت في الحج أكثر مما في السجدة ، فقد وردت في سورة الحج (٧٦) ستًّا وسبعين مرة ، ووردت في السجدة مرة واحدة ، فناسبت كل لفظة موضعها.

ولعل هناك أمراً آخر في اختيار هاتين الكلمتين ، فقد ذكر في آية الحج عموم أهل الأديان من الذين آمنوا واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا ، فذكر اسمه العلم (الله) ولم يقل (ربك) مضافاً إلى ضمير الخطاب ؛ لأن أهل ملته من بينهم ، فذكر اسمه العلم غير مضاف إلى أحد من هؤلاء الأصناف ؛ لأنه ينبغي أن يكون القاضي متجرداً ليس له علاقة بأحد المتخاصمين أو المختلفين ولا ينتسب إليه.

وأما آية السجدة فليست في نحو ذلك ، وإنما هي في الفصل بين ملل أخرى ليس بينها ملة الإسلام ، فلا ضير أن يكون الذي يفصل هو (ربه).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٣ ـ ٢٥].

ومما يقوي هذا المعنى أنه لم يرد في القرآن (إن ربك يحكم بينكم يوم القيامة) بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب ؛ لأن المخاطب من بين المتحاكمين ، وإنما يرد ذلك باسمه العلم فيقول: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ٦٩].

غير أنه يقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النحل: ١٢٤] لأن المخاطب ليس معهم ، فلا ضير من الإضافة إلى ضمير المخاطب.

وهو نظير ما نحن فيه ، وذلك من عجائب التعبير.

فناسب وضع كل مفردة في موضعها من كل ناحية والله أعلم.

وثمة سؤال يعرض في آية الحج، وهو أنه قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ...﴾ بنصب (الصابئين).

وقال في سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

برفع (الصابئين).

وقد قيل إن سبب الرفع في آية المائدة هو أن الصابئين أبعد المذكورين ضلالاً، فكان توكيدهم أقل من غيرهم[١]. فلماذا لم يفعل مثل ذلك في آية الحج؟.

والجواب أن المقام في الحج ـ كما ذكرنا ـ مقام فصل وقضاء، وفي موقف الفصل والقضاء ينبغي أن يعامل الجميع معاملة واحدة، فلا يجوز انتقاص واحد وتعظيم آخر مهما كانت ملة المتقاضي أو منزلته.

ولذلك سوّى بين الجميع.

وليس السياق في المائدة كذلك، وإنما هو في الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر. ولا شك أنه في مجال الدعوة إلى رأي أو معتقد تبيّن مزايا ما يدعو إليه الداعي وعيوب الجهة الأخرى والمآخذ عليها.

فاختلف المقامان.

فكان كل تعبير أنسب في مكانه.

٦ ـ ورد في القرآن الكريم نحو قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي بحذف

---

(١) ينظر معاني النحو ١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣، والتفسير الكبير ١١/ ٥١.

الموصوف في أكثر من عشرين موضعاً ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقوله: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢].

والتقدير في نحو ذلك ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾.

وورد نحوه قوله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان: ٧٠].

بذكر الموصوف وهو (العمل) مرتين ، وهما آية الفرقان هذه ، وقوله تعالى في (الكهف): ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وبالنظر في سياق هذه الآيات يظهر أن ما ذكر فيه الموصوف وهو (العمل) إنما هو في سياق ذكر الأعمال ، بخلاف ما حذف فيه العمل فإنها ليست في سياق الأعمال.

لقد ذكرنا أن ما ذكر فيه الموصوف ورد في موطنين وهما قوله في الفرقان: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان: ٧٠] وهي في سياق الأعمال ، فقد ذكر ما يفعله عباد الرحمن وما لا يفعلونه ، فقد ذكر أنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، وأنهم ينفقون ، وأنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس المحرمة إلا بالحق ، ولا يزنون ، وغير ذلك من الصفات التي ذكرها الله فيهم ، فناسب ذلك قوله: ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾.

وكذلك آية الكهف ، فإنها في سياق الأعمال، فقد تقدمها قوله: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤] ، ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ

﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] فقد وقعت الآية في سياق الأعمال.

هذا علاوة على أن سورة الكهف ابتدأت بالأعمال الصالحة وختمت بها، فقد قال سبحانه في بدايتها: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ وفي خاتمتها قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ بخلاف الآيات التي لم يذكر فيها الموصوف، فإنها ليست في سياق الأعمال.

فآية البقرة مثلاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟...﴾ لم تقع في سياق الأعمال، وإنما هي في سياق بني إسرائيل، فإن قبلها ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ...﴾ وما بعدها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ...﴾. ومثلها آية المائدة ٦٩، وكذلك آية طه ٨٢. ونحوها آية المؤمنون ٥١.

وهكذا عموم الآيات التي لم يذكر فيها الموصوف، فإنها ليست في سياق الأعمال.

٧ - ورد في القرآن الكريم نحو قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن عدة من القرآن الكريم، أي بحذف الموصوف، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقوله: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة ١٠].

وقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

والتقدير في نحو ذلك: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

وورد مرة واحدة بذكر الموصوف وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢].

ومن النظر في الآيات الواردة في ذلك وسياقها يظهر أنه ذكر الموصوف في سياق الذكر والعبادة دون ما لم يكن كذلك.

فإن آية الأنفال مثلاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] إنما هي في سياق القتال وليست في سياق الذكر أو مقامه.

وإن قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] إنما هو في سياق غزوة الأحزاب.

وإن قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] إنما هو في سياق ذكر الشعراء.

وإن قوله: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة ١٠] إنما هو في الانصراف من صلاة الجمعة والابتغاء من فضل الله.

وهكذا عموم ما ورد من نحو ذلك، حتى أن قوله: ﴿وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] ليست في سياق العبادة والذكر، وإنما هو في سياق القتال ودفع الله الناس بعضهم ببعض وهدم الصوامع والبيع والصلوات والمساجد وليس في سياق العبادة، بخلاف الآية التي ذكر فيها الموصوف وهي قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فإنها في مقام الذكر والتسبيح، ألا ترى إلى طلب الله من المؤمنين أن يذكروه ذكراً كثيراً، وأن يسبحوه بكرة وأصيلاً، ما لم يرد مثله في الآيات الأخرى.

قد تظن أن قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١] إنما هو في الذكر والتسبيح. والحق أنه ليس كذلك،

وإنما هو أمر لنبي الله زكريا أن يفعل ذلك لمدة ثلاثة أيام ، وذلك عندما بشره بيحيى عليه السلام. فأين ذلك من الطلب من عموم المؤمنين وليس من شخص واحد لمدة محدودة؟ .

وهذا نظير ما مر في النقطة السابقة في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وقوله: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ والله أعلم.

٨ ـ قال تعالى في سورة طه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣] ، وقال في سورة النبأ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٤ ـ ١٦].

فزاد في سورة النبأ في وصف الماء وقال إنه ثجاج ، ولم يذكر مثل ذلك في طه.

والثجاج هو شديد الانصباب ، وثجّ الماء: سال وانصبّ.

فلما ذكر أنه ثجاج زاد فيما يخرج من الأرض على ما في طه ، فقد قال في طه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ .

أما في النبأ فقد ذكر أنه يخرج به حباً ونباتاً وجنات ملتفة ، فزاد في النبات وأنواعه لما زاد في الماء.

٩ ـ يذكر القرآن الكريم الخلود لأهل الجنة ولأهل النار فيقول عنهم أحياناً: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فيذكر الأبد ، وفي مواطن أخرى يذكر الخلود ولا يذكر الأبد.

وذلك كقوله تعالى في سورة التوبة في جزاء الكافرين والمنافقين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقوله في جزاء المؤمنين فيها: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ

وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١ ـ ٢٢].

وفي القرآن الكريم خط واضح للتعبير بنحو هذا وهو أمران:

١ً ـ إنه إذا كان الكلام فيه تبسط وتفصيل في وصف أي من الفريقين أو جزائه ذكر الأبد. وإن لم يكن كذلك أوجز فلم يذكره.

٢ً ـ إذا كان التهديد بالعذاب أو الوعد بالجنة بالغاً كبيراً ذكر الأبد وإلا لم يذكره.

فمن ذلك قوله تعالى في آيتي التوبة اللتين ذكرناهما.

فقد قال في المنافقين والكفار الآية التي ذكرناها وهي قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨].

ولم يذكر شيئاً يتعلق بجزاء هؤلاء قبل هذه الآية أو بعدها، فأوجز فلم يذكر (أبداً) كإيجازه في الكلام عليهم وعلى جزائهم.

في حين قال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٠ ـ ٢٢].

ففصل في صفات المؤمنين وجزائهم وتبسط في ذلك، فذكر الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وذكر أنهم يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم.

فلما فصل في ذلك وزاد في وعدهم بالنعيم زاد في وصف خلودهم فقال: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ﴾.

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٨].

ففصل في عذابهم وجزائهم.

في حين قال بعد ذلك: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [٧١]. واكتفى بذلك.

فلما فصّل في جزاء الكافرين قال عنهم إنهم خالدون فيها أبداً. ولم يذكر مثل ذلك في جزاء المؤمنين.

ونحو ذلك ما جاء في سورة الجن، فقد قال في الكافرين: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ [الجن: ٢١ ـ ٢٤].

وقال مرة أخرى: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٧].

فتوعد الكافرين وعيداً شديداً، حتى إنه لم يذكر في السورة جزاء المؤمنين، وإنما ذكر جزاء الكافرين على الخصوص، فقد قال: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن: ١٤ ـ ١٥].

فلم يقل إن من أسلم له الجنة. فلما هدد وتوعد الكافرين وكرر جزاءهم ذكر الأبد.

وكذلك ما جاء في سورة البينة، فإنه توسع في ذكر المؤمنين

وجزائهم، بخلاف الكافرين، فإنه لم يزد على القول في الكفرة والمشركين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

في حين قال في المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧ ـ ٨].

فاتضح ما قلناه.

١٠ ـ قال في سورة الحج: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

وقال في الزخرف: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥].

فزاد في آية الزخرف (مبين) على (كفور)؛ ذلك أنه لم يذكر في الحج معتقدات الكافرين وأقوالهم. فإن قبلها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾.

وبعدها قوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فليست الآية في سياق ذكر معتقدات الكافرين وأقوالهم كما ترى.

وأما في الزخرف فقد فصل في أقوال الكافرين ومعتقداتهم، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ

خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ . . .﴾ [الزخرف: ١٦ ـ ٢٥].

بل حتى الآية التي ذكرناها ذكرت معتقد الكافرين، فقد قال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا . . .﴾ فزاد كلمة (مبين) في الزخرف لسببين:

الأول: إنه ذكر معتقداتهم الباطلة وأقوالهم.

والثاني: إنه فصل في ذكرها.

واختار كلمة (مبين) لأنهم أبانوا عن كفرهم ومعتقداتهم وأظهروه، ولأن الله أيضاً أبان عن ذلك وذكره. فالله أبان عن معتقدهم وبينه، وهم أبانوا عن ذلك.

فناسب ذكر كلمة (مبين) في الزخرف دون الحج.

١١ ـ ونحو ما ذكرناه في النقطة السابقة قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقوله في سورة هود: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

فزاد في وصف إبراهيم بقوله: (منيب) وذلك أنه لم يذكر في سورة التوبة عن إبراهيم إلا آية واحدة وهي قوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وليس قبلها أو بعدها شيء يتعلق بذكر إبراهيم.

في حين فصل في ذكر قصة إبراهيم في سورة هود وذكر شأنه مع الملائكة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ

فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٦].

فلما زاد في الكلام على إبراهيم زاد في وصفه.

وقدم الحلم في سورة هود؛ لأنه ذكر حلمه بقوم لوط ومجادلته الملائكة ليدفع عنهم العذاب، مع أنهم آذوا لوطاً وأساؤوا إليه وإلى من يأتيه فإنهم قوم سوء.

وهذا من الحلم.

وقدّم الأواه في سورة التوبة لما ذكر استغفاره لأبيه، والأواه أنسب مع الاستغفار، كما أن الحلم أنسب في باب العقوبات. فكانت الزيادة في مكانها المناسب، والتقديم في مكانه المناسب.

١٢ ـ ونحوٌ مما جاء في المثالين السابقين قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

وقوله في سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣].

فذكر في هود أن السجيل منضود، ولم يذكر مثل ذلك في الحجر، وذلك أنه لما زاد في وصف الحجارة في هود فقال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، زاد في الوصف فقال (منضود).

ثم إنه لما قال إن مثلها يمكن أن يكون للظالمين جاء بـ (منضود)، وهو الذي نضد بعض فوق بعض، أي وضع بعضه فوق بعض للدلالة على

الكثرة ، فإن ذلك ـ كما ذكر ـ غير مختص بقوم لوط وإنما هي لعموم الظالمين.

هذا أمر ، والأمر الآخر أنه ذكر في سورة الحجر أن الإمطار كان على القوم فقال: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾.

وذكر في سورة هود أن الإمطار كان على المدينة فقال: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً ﴾ ذلك أن الكلام على القوم في الحجر أشد مما في هود ، وقد وصفهم بصفات أسوأ مما في هود ، وذكر أموراً تتعلق بهم أكثر مما في هود:

١ً ـ فقد قال في الحجر على لسان الملائكة: ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر: ٥٨].

وقال في هود: ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠].

فوصفهم بالإجرام في الحجر ولم يصفهم به في هود.

٢ً ـ قال في الحجر: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٦٦].

ولم يقل مثل ذلك في هود ، وإنما ذكر أن عذاباً آتيهم غير مردود. والعذاب قد لا يؤدي إلى الاستئصال.

فما في الحجر أشد.

٣ً ـ أقسم بحياة الرسول في الحجر إنهم لفي سكرتهم يعمهون فقال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

ولم يقل مثل ذلك في هود.

٤ً ـ ذكر آل لوط في الحجر فقال: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٥٩].

ولم يذكر ذلك في هود. وآل لوط من قوم لوط.

٥ ـ قال في الحجر: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٦١].

ولم يذكرهم في هود وإنما قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ﴾ [هود: ٧٧].

فناسب في الحجر أن يذكر أن الإمطار عليهم.

١٣ ـ قال في سورة الإسراء: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١٥].

فذكر جواب شرط الهداية والضلال بذكر فعلهما فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى﴾ و﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾.

وقال في سورة الزمر: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [الزمر: ٤١].

فحذف الفعل من جواب شرط الهداية فقال (فلنفسه) وذكره في جواب شرط الضلال فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾.

وقال في فصلت: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فحذف الفعل من جواب الشرط في الأمرين: في العمل الصالح والإساءة.

فأنت ترى أنه قد يذكر الفعل في الأمرين، وقد يحذف الفعل من أحدهما، وقد يحذفهما من الأمرين، بحسب ما يقتضيه السياق.

فإذا كان السياق في الكلام على الأمرين ذكر الفعل فيهما، وإن كان السياق في أحدهما ذكر الفعل فيه وحذفه من الآخر، وإن لم يكن السياق فيهما حذف الفعل منهما معاً.

وإيضاح ذلك أنه قال في الإسراء: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١٥].

فذكر الفعل في الصنفين؛ ذلك لأن السياق في المهتدين والضالين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ٩ ـ ١١].

ثم قال بعد ذلك: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢٠].

فأنت ترى أن السياق في الصنفين: المهتدين والضالين، في المؤمنين الذين يعملون الصالحات، والكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، فذكر الفعل في جواب الشرطين ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى ﴾ ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ ﴾.

وقال في آية الزمر: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر: ٤١].

فذكر الفعل في جواب الشرط في الضالين ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ وحذفه في المهتدين فقال (فلنفسه) ولم يقل (فإنما يهتدي لنفسه) ذلك أن السياق في الضالين ولم يذكر المهتدين.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٣٨ ـ ٤١].

ثم قال بعدها: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٣ ـ ٤٥].

فلما كان السياق في الضالين ذكر الفعل فيهم.

وقال في (فصلت) ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فلم يذكر الفعل في جواب شرط كل من الصنفين، ذلك أن الآية لم تكن في سياق أي من الصنفين المذكورين، بل هي ليست في سياق الأعمال، فليس قبلها ولا بعدها ما يتعلق بذكر العمل، فقد قال قبلها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥].

وقال بعدها: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧].

فلم يذكر فعلاً في جواب شرط أي منهما.

١٤ ـ قال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والتقدير (هذا بلاغ) فحذف المبتدأ.

وقال في سورة إبراهيم: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

فذكر المبتدأ (هذا).

ذلك أن المقام في الأحقاف مقام إيجاز، وأما المقام في إبراهيم فمقام تفصيل.

فقد قال في الأحقاف: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤ ـ ٣٥].

وأما المقام في إبراهيم فمقام تفصيل، فإن البلاغ يبدأ من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] ويستمر إحدى عشرة آية، إلى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ. . .﴾ [إبراهيم: ٥٢].

ثم إن آية البلاغ تختلف في كل من الموضعين:

فقد قال في الأحقاف: (بلاغ).

وقال في إبراهيم: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾.

فذكر المبتدأ (هذا) وذكر (للناس). ولم يقل (للناس) في الأحقاف.

وذكر علل البلاغ في إبراهيم فقال: ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ولم يذكر مثل ذلك في الأحقاف.

ففصل في سياق البلاغ في إبراهيم ما لم يفصله في الأحقاف.

ففي سياق آية إبراهيم ذكر إحدى عشرة آية، وفي سياق الأحقاف ذكر آيتين.

وفصل في آية البلاغ في إبراهيم ما لم يفصله في آية الأحقاف،

فناسب ذكر المبتدأ في إبراهيم وحذفه في الأحقاف.

١٥ ـ قال تعالى في سورة الطور: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١].

بذكر الفاء في (فويل).

وقال في سورة المرسلات: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٩].

من دون فاء في (الويل).

وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ أنه جاء بالفاء في آية الطور؛ لأن التهديد أشد والتفصيل في عذابهم أكثر. فقد أقسم بالطور وما بعده على وقوع العذاب وعدم دفعه فقال: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾. ثم ذكر مشهداً من مشاهد يوم القيامة فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم فصل في صفة المكذبين وعذابهم فقال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١١ ـ ١٦].

في حين لم يفصل مثل هذا التفصيل في المرسلات، وإنما أقسم بالمرسلات وما بعدها على وقوع وعده فقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾.

فأقسم على وقوع الوعد لا على وقوع العذاب. والوعد يشمل وعد أهل الجنة وأهل النار.

ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ولم يذكر شيئاً عن المكذبين ولا عن عذابهم. وإنما قال بعدها ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

فجاء بالفاء فيما هو أكثر تفصيلاً وأشد تهديداً. فناسب المجيء بالفاء في سياق التفصيل.

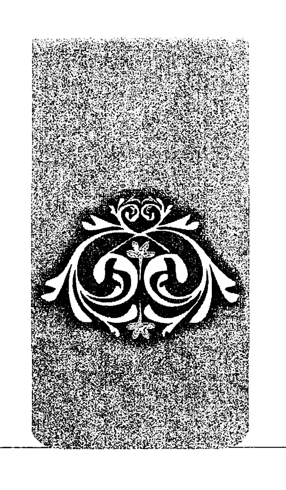
هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه لما ذكر العذاب ووقوعه في الطور ناسب ذكر الفاء الدالة على السبب والتعقيب. فإن العذاب سبب الويل.

ولما لم يذكر العذاب في المرسلات وإنما ذكر الوعد لم يذكر الفاء؛ لأن الويل ألصق بالعذاب، بخلاف الوعد الذي قد يكون سعادة وقد يكون عذاباً.

فناسب ذكر الفاء في آية الطور من كل وجه والله أعلم.

* * *



التقديم والتأخير

من المعلوم أن التقديم والتأخير إنما يكونان بحسب الأهمية.

والأهمية لا تعني الأفضلية. فقد يقدم المفضول على الفاضل والمتأخر على المتقدم أو العكس بحسب ما يقتضيه المقام والسياق، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] فأخر المساجد وهي أفضل الأماكن المذكورة. وقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ فأخر القسم بالبلد الأمين وهو أفضل المذكورات، بل هو أفضل بقاع الأرض وأحبّ أرض الله إلى الله.

وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤] فقدم ثمود على عاد مع أن عاداً أسبق من ثمود، قال تعالى في ثمود على لسان نبيهم صالح: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقدم عاداً على ثمود في مواطن أخرى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وعلى هذا فالتقديم والتأخير إنما يكونان بحسب ما يقتضيه المقام، فقد يقدم لفظاً في مكان ويؤخره في مكان آخر بحسب ما تقتضيه البلاغة.

والآن نذكر أمثلة من هذا الباب:

١ ـ فمن ذلك تقديم السمع على البصر، والبصر على السمع، فإنه كثيراً ما يقدم السمع على البصر في القرآن الكريم وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢]. قالوا لأن السمع أفضل وهو أهم في مجال الدعوة والتبليغ ؛ لأن الأصم أبعد عن الفهم من الأعمى ، أو لأسباب أخرى[1].

وقد يقدم البصر على السمع إذا اقتضى المقام ذلك ، ومن ذلك قوله تعالى في أصحاب الكهف: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦].

فقدم البصر على السمع ، وذلك أن الكلام على أصحاب الكهف ، وأصحاب الكهف فروا من قومهم ولجؤوا إلى الكهف لئلا يراهم أحد ، لكن الله سبحانه وتعالى يراهم وهم فارّون من قومهم ، ويراهم في ظلمة الكهف ، ويرى تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وهذا كله في مجال الرؤية لا في مجال السمع .

وحتى حين بعثوا من نومهم طلبوا من صاحبهم أن يتلطف فلا يراه قومهم وقالوا: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾.

فاقتضى المقام تقديم الإبصار على السمع .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢].

فقدم البصر على السمع ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ وذلك لأكثر من سبب ، منها:

أ ـ إنه قال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ فذكر الرؤية ، والرؤية مرتبطة بالإبصار لا بالسمع .

ب ـ إنهم قالوا ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ ذلك أنهم في الدنيا كانوا

---

(١) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ٦٨ .

يسمعون عن جهنم وعذابها وعن الآخرة ، أما الآن فهم أبصروا ذلك وعاينوه ، فقدم حالتهم التي هم فيها .

٣ - إن الإبصار والمشاهدة هنا أهم من السمع ؛ لأن السمع قد يدخل في باب الظن والشك ، أما الإبصار والمشاهدة فهما حال يقين . ولذلك قالوا : ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ وهذا إنما يكون عند الإبصار لا عند السماع .

فقوله : ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ يقتضي تقديم الإبصار ؛ لأنه الداعي إليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٦ - ٧] فجعل عين اليقين عن طريق الرؤية .

٤ - من المعلوم أن ليس السماع كالمعاينة ، وقد قيل (فما راءٍ كمن سمعا) وإنهم كانوا يسمعون ويكذّبون أو لا يقدّرون الأمر حق قدره ، أما الآن فقد رأوا ما لم يكونوا يحتسبون ، فطلبوا الرجعة ليعملوا صالحاً .

فالرؤية ههنا أهم من السمع ، فقدمها لذلك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف : ١٩٥] .

فقدم الأعين على الآذان وذلك لاقتضاء السياق ذلك ، فإنه قال قبل هذه الآية : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ۝١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٩٤ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٩١ - ١٩٥] .

فإن المقام مقام الدفاع والانتصار ، فذكر أن آلهتهم التي اتخذوها من

دون الله لا يستطيعون أن يدفعوا عنهم أو ينصروهم ، كما أنهم لا يستطيعون أن ينصُروا أنفسهم. والدفع والنصر يحتاجان أول ما يحتاجان إلى مشي وبطش.

ثم إن الدفع والبطش يحتاجان إلى البصر قبل الحاجة إلى السمع ليتفادى الضربة إذا وجهت إليه ، أو ليبطش في المكان المناسب ، فهو أهم من السمع في هذا المجال ، فإن المبصر يتمكن من الدفاع عن نفسه وغيره ، بخلاف الأعمى فإنه لا يستطيع تعيين مكان العدو ، ولهذا كان البصر مقدماً في هذا المقام.

فلما كان المقام مقام النصر والدفع قدم ما هو أولى بالتقديم ، وهو الأرجل ثم الأيدي ثم البصر ثم السمع.

ولما قدم نصر الغير على نصر النفس قدم الأرجل ؛ وذلك لأن نصر الغير يحتاج إلى الحركة والذهاب إلى المكان الذي يقتضي ذاك.

ومما زاد ذلك اقتضاء لهذا التقديم أنه ختم الآية بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فهو قد تحداهم ليكيدوه ولا يمهلوه ، وهذا كله يحتاج منهم إلى مشي وبطش وبصر وسمع.

فقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ يعني ادعوهم ليأتوا إليكم لينصروكم وينزلوا بي العذاب والأذى. فاقتضى المقام هذا التقديم من كل وجه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فقدم الأعين على الآذان ؛ وذلك أنه شبه هؤلاء المذكورين بالأنعام.

ومن المعلوم أن الفارق الرئيس بين العقلاء من الجن والإنس وبين

الحيوان هي القلوب التي يفقهون بها أو العقول كما يقول المفسرون. فالحيوان لا يفقه، فنفى عنهم ما به التفرقة بين الحيوان والعقلاء، وهو القلب الفاقه.

ثم إن القلب والعقل مداه أرحب وأوسع من مدى البصر لما فيه من التفكير والخيال والاستنباط. وإن البصر مداه أرحب وأوسع من السمع. فتدرج من الرحب الواسع إلى ما دونه، فبدأ بالقلب الفاقه ثم البصر ثم السمع.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ والضلال أنسب مع الإبصار؛ لأنه يقال: (ضل الطريق)، وكثيراً ما يقترن الضلال مع السبيل في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]، وقال: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠].

وفاقد الإبصار مظنة أن يضل الطريق أكثر من الأصم المبصر، فناسب تقديم الإبصار من كل وجه.

ومما زاد ذلك حسناً أنه تقدم هذه الآية قوله: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فذكر الهداية والإضلال، وهما متناسبان مع السبيل أيضاً.

أما الضلال فقد ذكرنا مناسبته للسبيل، وأما الهداية فهي نقيض الضلال.

وكما اقترن الضلال بالسبيل اقترنت الهداية به أيضاً، قال تعالى:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ، وقال : ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الأنعام: ١٦١] ، وقال : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ ﴾ [إبراهيم: ١٢] ، وقال : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [البقرة: ١٤٢] ، وقال : ﴿ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

وهداية السبيل والضلال عنه مرتبطان بالإبصار أكثر من السمع ، فناسب تقديم البصر على السمع من كل وجه .

قد تقول : ولكنه قدم السمع على البصر في مثل هذه الآية ، وهي قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [البقرة: ٦ ـ ٧] فقدم السمع على البصر ، والآيتان متشابهتان .

والحق أن المقام مختلف ؛ ذلك أنه قال في آية البقرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ والإنذار يحتاج إلى سماع أولاً فقدم السمع لذلك ، فالمقام مختلف .

٢ ـ ومن ذلك تقديم الضلال على التكذيب في سورة الواقعة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٢].

وتقديم التكذيب على الضلال في أواخر السورة ، فقد قال : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴾ [الواقعة: ٩٢ ـ ٩٣].

أما تقديم الضالين على المكذبين في قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴾ فلأنه تقدم في الآيات التي قبلها ذكر أصحاب الشمال ، وذكر أنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وأنهم كانوا يصرون على الحنث العظيم ، وهذا من الضلال . ثم ذكر بعد ذلك تكذيبهم بيوم البعث فقال : ﴿ وَكَانُواْ

يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧ ـ ٤٨].

فناسب تقديم الضالين على المكذبين.

وأما قوله في آخر السورة: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ بتقديم المكذبين على الضالين فلأن الآية وقعت في سياق التكذيب، فقد ورد قبلها ذكر التكذيب، قال تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨١ ـ ٨٢].

ومن معاني الإدهان: التكذيب والغش وإظهار خلاف ما يضمر. جاء في (معاني القرآن) للفراء: ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ مكذبون وكافرون، كلٌّ قد سمعته»[١].

وجاء في (لسان العرب): «والمداهنة والإدهان: المصانعة واللين... والإدهان: الغش... وأدهن أي أظهر خلاف ما أضمر، فكأنه بيّنَ الكذبَ على نفسه»[٢].

فناسب تقديم المكذبين على الضالين ههنا.

٣ ـ قال تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨].

بتقديم الفرار على الرعب. والمشاهد تقديم الرعب على الفرار، فإن الإنسان يخاف ثم يهرب.

فما سبب هذا التقديم؟

نود أن نذكر أولاً أن الواو لا تفيد الترتيب. فلا تفيد الواو أن الرعب

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٣٠.

(٢) لسان العرب (دهن).

كان متأخراً عن الفرار. وأما التقديم والتأخير فإنما يكونان بحسب الأهمية كما ذكرنا. والفرار من هؤلاء الفتية أهم من الرعب، فإن هؤلاء الفتية خرجوا فارين من قومهم وأووا إلى الكهف لئلا يراهم أحد، فالمهم إذن ألاّ يتملّى فيهم الرائي ويتفرس في وجوههم فيعرفهم. وقد أراد ربك أن يحفظهم ويحميهم ويحجبهم عن عيون الناظرين، فقدم الفرار منهم على الرعب.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الفرار قد يكون أسبق من الرعب، فإن الشخص لو دخل في كهف ملتجئاً ورأى فيه نفراً مفتحة أعينهم وهم يتقلبون قد يفرّ منهم؛ لأنه لا يعرف من هؤلاء، فلعلهم لصوص أو قطّاع طريق أو قتلة أو أنهم طالبون له فيهرب على الفور. ثم يتذكر مشهدهم وتدور في نفسه أمور وأوهام فيمتلئ بالرعب فيشتد في الفرار.

ومن ناحية ثالثة أن الرعب لا يستدعي الهرب دائماً، فإن الخوف الشديد قد يوقف صاحبه فلا يدعه يهرب. وقد قرأنا في التاريخ أن التتار عندما فتحوا بغداد وامتلأ سكانها منهم خوفاً ورعباً قد يوقف أحدهم شخصاً من أهل بغداد في الطريق ويقول له: امكث في مكانك حتى أجيء بسكين فأذبحك. ويبقى واقفاً في مكانه لا يتحرك، إلى أن يأتي التتاري فيقتله.

ومن المعروف في عالم الحيوان أن الفريسة أحياناً تشاهد السبع فتقف في مكانها فلا تتحرك حتى يفترسها.

فقدم ما هو أهم.

٤ ـ قال تعالى على لسان موسى عليه السلام حين سأله عما في يمينه: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾.

فقدم مصلحة نفسه على الغير فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾، ثم ذكر بعد

ذلك الهش على الغنم. فما السبب؟.

والجواب أنه قدم مصلحة نفسه على مصلحة الحيوان ؛ لأن الحيوان هو المسخر للإنسان ، وليس الإنسان مسخراً له ، وهذا هو الأمر الطبيعي.

ثم إنه في حالة سفر ، فهو يهبط ودياناً ويصعد مرتفعات ، والعصا هي التي تعينه في سفره، متوكئاً عليها ، ومستعيناً بها ، وهو يطرد بها الوحوش ، وما إلى ذلك من مآرب يحفظ بها نفسه وغنمه. وفي حفظ مصلحته حفظ لمصلحة الحيوان أيضاً ، فإذا عجز الراعي أو هلك في السفر هلكت غنمه.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن معنى الهش على الغنم أن يضرب بعصاه أوراق الشجر فتتساقط لتأكل غنمُه. والغنم ترعى مما تنبت الأرض أولاً ، وأما الهش فقد يكون مساعداً لها ، فليست العصا للهش على الغنم أصلاً ، وإنما هي للتوكؤ والاستفادة منها في أمور أخرى مهمة ، فناسب تقديم التوكؤ عليها والله أعلم.

٥ ـ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

فقدم الاستئناس على السلام ، والأصل تقديم السلام على الاستئذان ، فما سبب هذا التقديم؟

والجواب من أوجه:

١ً ـ إن الواو لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً ، ولذا لا يكون تقديم الاستئناس في الآية مفيداً لتقديمه على السلام.

٢ً ـ إن الاستئناس أهم من السلام ، فإن السلام إنما يكون لغرض الاستئناس ، فقدم ما هو أهم. فهو من باب تقديم الغرض على الوسيلة.

٣ً ـ الاستئناس واجب ، والسلام سنة ، والواجب مقدم على السنة .

٤ً ـ إن معنى الاستئناس في الأصل من الأنس ، وهو نقيض الاستيحاش ، وهو يعني فيما يعنيه اختيار الوقت المناسب ، وأن أهل البيت غير مشغولين بأمر مهم يصرفهم عن الرغبة في اللقاء. فإن أهل البيت إذا كانوا مشغولين بأمر أهم من اللقاء ، أو أن الوقت غير مناسب للزيارة فستكون وحشة في اللقاء والاجتماع ولا يكون أنس بالزائر. ولذا يكون الاستئناس مقدماً على السلام أصلاً .

٥ً ـ إن قسماً من السلام إنما يكون بعد الدخول .

٦ً ـ إن القرآن استعمل كلاًّ من الاستئذان والاستئناس ، وقد استعمل الاستئذان لمن كان حاضراً مع المستأذَن ولم يرد في غير ذلك .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : ٦٢] .

وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ ﴾ [النور : ٥٨] .

وقال : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ [النور : ٥٩] .

وقال : ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ [التوبة : ٨٦] .

وغير ذلك من الآيات. وعلى هذا فالاستئناس غير الاستئذان. ولا يصح استبدال إحدى اللفظتين بالأخرى على الدوام ، فإنه لا يحسن أن يقال مثلاً : (استأنسك أولو الطول منهم) بدل (استأذنك) ، ولا (فإذا

استأنسوك لبعض شأنهم) بدل (فإذا استأذنوك) فدلّ على أن اللفظتين ليستا متطابقتين.

٦ ـ **تقديم الإنفاق على المال** وتأخيره عنه:

من الملاحظ في القرآن الكريم أنه إذا قدم الإنفاق على الأموال نحو ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ فالسياق في الإنفاق والدعوة إليه والحض عليه. وإذا قدم الرزق على الإنفاق نحو ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فليس المقام في الإنفاق، وإنما في تعداد جملة من صفات المؤمنين. وهذا أمر مطرد في القرآن الكريم، فحيث قدّم الإنفاق فالمقام في سياق الإنفاق.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقال: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

وقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧].

وحيث قدم الرزق على الإنفاق فليس المقام في الإنفاق وإنما في تعداد جملة من صفات المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٤].

فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فقدم الرزق على الإنفاق، والسياق ـ كما ترى ـ في ذكر جملة من صفات المتقين، وليس السياق في الإنفاق.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

فقدم الرزق على الإنفاق. والسياق كما ترى ليس في الإنفاق وإنما في ذكر جملة من صفات المؤمنين.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤ ـ ٣٥].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥].

وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٥ ـ ١٧].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧ ـ ٣٩].

وكلها ـ كما ترى ـ ليست في سياق الإنفاق وقد قدم فيها الرزق على الإنفاق.

والملاحظ أيضاً أنه حيث ذكر الإنفاق مع الرزق جاء بمن التبعيضية فيقول (مما رزقناهم). وأما مع الأموال فالتعبير مختلف ؛ ذلك أن الرزق لا يعني الأموال فقط ، فإن الأموال جزء من الرزق ، فما يأكله الإنسان يسمي رزقاً ، وما يأكله الحيوان يسمى رزقاً ، قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت : ٦٠] ، وقال : ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود : ٦] والمطر رزق ، قال تعالى : ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية : ٥].

والعلم رزق ينبغي أن ينفق منه ، والجاه رزق. جاء في (المفردات) للراغب في قوله تعالى : ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون : ١٠] «أي من المال والجاه والعلم ، وكذلك قوله : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾» [(١)].

أما ذكر الإنفاق مع غير الرزق فمختلف ، فإنه قد يذكر (من) وقد لا يذكرها والكثير أنه لا يذكرها وخصوصاً مع الفعل المضارع. قال تعالى : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٩٢] فذكر (من).

وقال : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة : ٢٦١].

وقال : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة : ٢٧٤].

وقال : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٦٥].

---

(١) المفردات (رزق) ٢٠٠.

فلم يذكر (من) ، وذلك أن قولنا (ينفق ماله) لا يعني بالضرورة أنه ينفق ماله كله ، بل هو محتمل لذلك ولغيره ، بل الأظهر أنه لا يعني كل المال ، وخصوصاً مع الفعل المضارع .

ودليلنا على ذلك أمران :

الأول : أن زمن الفعل المضارع يدلّ على الحال والاستقبال فزمنه غير منقض ، والإنفاق يكون في هذا الزمن المتصل ، فلا يزال لديه قسم من المال ينفقه في هذا الزمن غير المنقطع .

فإذا أنفد ماله فقد أنفقه وأصبح الزمن ماضياً فلا نقول : هو ينفقه .

والثاني : الاستعمال الفصيح ، فإن قولنا : (هو ينفق ماله في شراء الكتب) لا يعني أنه ينفق ماله كله ، بل لا يزال عنده قسم من المال ينفقه في ذلك وغيره .

وكذلك في غير الإنفاق ، فإنك إذا قلت : (هو يأكل أموال الناس بالباطل) لا يعني أنه يأكل جميع أموال الناس . قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء: ٣٨] وهذا لا يعني أن الذي يفعل ذاك ينفق جميع ماله .

وقال : ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤] ولا يعني أنهم يأكلونها جميعها .

ففرق بين الرزق والأموال في الإنفاق .

٧ ـ تقديم الرحمة على مؤتيها وبالعكس :

قد يقدم الرحمة على مؤتيها أو بالعكس ، فقد يقول : ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بتقديم الرحمة على (من عنده) المشتمل على ضمير مؤتيها ، أو يقول : ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ بتقديم الجار والمجرور على الرحمة ، وذلك

بحسب ما يقتضيه السياق.

فإذا كان الكلام على الله قدم ما دل عليه، وإذا لم يكن الكلام على الله أو كان الكلام على الرحمة قدمها.

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

فقد قدم الرحمة على قوله ﴿مِّنۡ عِندِهِۦ﴾؛ وذلك لأن الكلام عليها، فقد قال ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ يعني الرحمة، وقال: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ فالكلام كما ترى على الرحمة فقدمها.

في حين قال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ [هود: ٦٣].

فقدم ضمير المؤتي المجرور بالحرف فقال: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ وذلك لأن الكلام عليه لا على الرحمة، فقد قال ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾.

فقدم كلًّا بحسب ما يقتضيه السياق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ [هود: ٩].

بتقديم (منا) على الرحمة.

وقوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠].

بتقديم الرحمة على (منا)، وذلك بحسب ما يقتضيه السياق.

فقد قدم الجار والمجرور (منا) على الرحمة في هود؛ لأن الكلام على الله، فقد قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ [هود: ٢ ـ ٩].

في حين أن الكلام في فصلت على الإنسان فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٤٩ ـ ٥٠].

فقدم الرحمة على المؤتي.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

بتقديم (منا) على الرحمة.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

بتقديم الرحمة على (منا)؛ وذلك أنه قدم الجار والمجرور (منا) على الرحمة في الشورى؛ لأن الكلام على الله، فإن قبلها ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن

قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٦ ـ ٤٧] ثم تأتي الآية ، وبعدها ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ .

في حين أن الكلام في سورة (ص) على أيوب ورحمة الله به ، قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ﴾ .

فناسب تقديم كل فيما يناسبه .

٨ ـ قال تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] .

بتقديم ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على ﴿ مِن قَوْمِهِۦ﴾ .

وقال في السورة نفسها في آية أخرى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] .

بتقديم ﴿ مِن قَوْمِهِۦ﴾ على ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ، وذلك لأكثر من سبب :

منها أنه لو أخر (من قومه) في الآية الثالثة والثلاثين لأصبح الكلام (وقال الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم) ولاحتمل أن يكون الجار والمجرور مرتبطاً بقوله : (وأترفناهم) دون غيره من المعطوفات فيكون قيداً له ، فيكون المعنى : وقال الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة عامة ، سواء كانوا من قومه أم من غيرهم ، وقال الذين أترفناهم في الحياة الدنيا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم . فيكون التنصيص على من أترفهم من قومه دون غيرهم ، وهذا لا يصح .

ومنها أن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ فيه أن (الذين كفروا) وصف للملأ وليس للقوم.

وأما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟﴾ فإن (الذين كفروا) وصف للقوم وليس للملأ على الأرجح. ومعنى ذلك أن الكفر في الآية الثانية أعم وأشمل، فإنه وصف للقوم عامة.

أما الآية الأولى فإن القائل هم الملأ الكافر من القوم، ومعنى ذلك أن في القوم من ليس كافراً.

إن الآية الأولى في قوم نوح عليه السلام، وأما الآية الأخرى ففي قوم آخرين أشد كفراً، يدل على ذلك تتابع الصفات الذميمة فيهم. فقد وصفهم بأنهم كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفهم في الحياة الدنيا، ولم يصف قوم نوح بذلك كله.

ثم إنه ذكر في قصة نوح ناجين من الغرق فقال: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] ولم يذكر ناجين في القصة الأخرى، وإنما قال: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠ ـ ٤١].

فدل على أن هؤلاء أشد كفراً فناسب أن يقول فيها: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بوصف القوم بأنهم كفروا، بخلاف القصة الأولى.

٩ ـ قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ﴾ [النحل: ٣١].

بتقديم الجار والمجرور (فيها) على (ما يشاؤون).

وقال: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ

جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٥ ـ ١٦].

بتقديم الجار والمجرور أيضاً (فيها) على (ما يشاؤون).

في حين قال: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٤ ـ ٣٥].

بتقديم (ما يشاؤون) على (فيها).

وذلك ـ والله أعلم ـ أنه لم يذكر في آيتي النحل والفرقان من صفات أهل الجنة إلا أنهم متقون.

قال في النحل: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠ ـ ٣١].

وقال في الفرقان: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٥ ـ ١٦].

في حين توسع في ذكر صفات أهل الجنة وتعدادها في (ق) فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٥].

فذكر من صفة من هو من أهل الجنة في (ق):

١ً ـ أنه متق ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

٢ً ـ أواب.

٣ً ـ حفيظ.

٤ً ـ خشي الرحمن بالغيب.
٥ً ـ ذو قلب منيب.

فلما أفاض في ذكر صفات أهل الجنة قدم مشيئتهم على ضمير الجنة. ولما لم يفض في صفاتهم قدم ما يتعلق بالجنة وأخر مشيئتهم؛ لأنهم دون المذكورين في (ق). ولا يناسب وضع أحدها مكان الآخر.

١٠ ـ تقديم العمل على البصر وبالعكس:

قد يقدم العمل على البصر فيقول: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وقد يقدم البصر على العمل فيقول: ﴿بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وذلك بحسب ما يقتضيه السياق.

فإذا كان السياق في العمل قدم العمل، وإذا لم يكن السياق في العمل، أو إذا كان السياق على الله وليس على الإنسان وعمله قدم صفته تعالى وهو البصر على العمل.

فمن باب تقديم العمل على البصر قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

فلما ذكر العمل من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما يقدم الإنسان من خير قدم العمل فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقال: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١١ ـ ١١٢].

فلما كان الكلام في العمل قدم العمل على الخبرة وقدمه على البصر ، فقال في الآية الأولى : ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، وقال في الآية بعدها : ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وقال : ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ : ١١] .

وقال : ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت : ٤٠] .

وكلها في سياق الكلام على العمل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

فلما قال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ ﴾ ناسب أن يقدم عملهم ، فإن هذا يدل على أنه معهم . هذا إضافة إلى أنه ذكر عملهم فيما بعد فقال : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ٧] . فإن الآية قد تكون تعقيباً على أمر سابق أو تأسيساً لأمر آت ، فناسب تقديم عملهم .

فإن لم يكن الكلام في العمل ، أو إذا كان الكلام على الله ، فإنه يقدم صفته سبحانه .

قال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٩٦] .

فأنت ترى أنه ليس السياق في العمل فقدم البصر عليه .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ

كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . . . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ [المائدة: ٧١ وما بعدها].

وهي كما ترى ليست في سياق العمل.

ونحوه قوله: ﴿إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون﴾ [الحجرات: ١٨].

فلما ذكر أن الله يعلم غيب السماوات والأرض ناسب تقديم صفته فقال: ﴿والله بصير بما تعملون﴾.

ونحو هذا التقديم والتأخير ما يكون في العمل والخبرة، فقد يقدم العمل على الخبرة، أو الخبرة على العمل، بحسب ما يقتضيه المقام.

فإنه إذا كان السياق في عمل الإنسان قدم عمله فيقول: ﴿والله بما تعملون خبير﴾، وإذا كان السياق في غير العمل، أو كان في الأمور القلبية، أو كان الكلام على الله سبحانه، قدّم صفته فيقول: ﴿والله خبير بما تعملون﴾.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ [البقرة: ٢٧١] والكلام كما هو ظاهر في الصدقات، وهي من العمل.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير﴾ [الحديد: ١٠].

وقوله: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾ [البقرة: ٢٣٤].

فالكلام على الإنسان وعلى العمل ، يدل على ذلك قوله : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ .

وقوله : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧ ـ ٨] .

فالكلام على الإنسان وعمله وليس الكلام على الله ، فقدم ما يتعلق بالإنسان .

في حين قال : ﴿ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النور : ٥٣] .

والكلام على المنافقين ، والنفاق أمر قلبي ، وهو يحتاج إلى خبرة لمعرفة أصحابه ، فقدم وصفه سبحانه لذلك .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] .

فليس السياق في العمل ، ثم إن الكلام على الله سبحانه ، فقدّم وصفه على الفعل .

ونحو قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨] .

والتقوى أمر قلبي ، فقدم الخبرة . والله أعلم .

ونحو هذا التقديم والتأخير ما يكون في العلم والعمل ، فإذا كان السياق في العمل قدمه ، وإذا كان في العلم قدمه .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ

ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

والسياق كما هو واضح في العمل، فقدم ما يتعلق به فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ فقدم عملهم على العلم.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١].

فقدم العمل لما قال قبله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ والكلام أيضاً إنما هو على الرسل فقدم ما يتعلق بهم.

ونحوه قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢٨].

وهو نظير ما مر.

في حين قال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۢۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨].

فإنهم نفوا أن يكونوا عملوا سوءاً في الدنيا، والله نفى قولهم وأثبت أنهم كانوا يفعلون السوء فقال: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾. ومن المعلوم أن الإثبات هو الذي يحتاج إلى العلم والدليل. فناسب ذلك تقديم العلم والله أعلم.

وقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

فلما نفى العلم عنهم بأنهم يتبعون الظن أثبت العلم له فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾.

فناسب تقديم العلم. والله أعلم.

١١ ـ قال تعالى في سورة عبس: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠ ـ ٤٢].

فقدم الكفرة على الفجرة، بخلاف ما ورد في سورة نوح في قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]. وقد ذكرنا في مبحث الصفات آية نوح.

أما تقديم الكفرة على الفجرة هنا فمما يقتضيه السياق:

١ ـ فقد قال قبل ذلك: ﴿قُتِلَ الْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ فتعجب من كفره.

٢ ـ وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي مغطاة مجللة بالغبار والسواد.

ومن معاني الكفر التغطية والستر، فكما غطوا إيمانهم وستروه بالكفر غشّى الله وجوههم بالغبار والقتام والسواد.

وهذا الوصف مناسب لمعنى الكفر.

٣ ـ إن هؤلاء المذكورين إنما هم من الكفار. وهذه صفة وجوه الكفار في ذلك الوقت، فلما ذكر وصفهم بدأ بهم. أما الفاجر فقد يكون مؤمناً وقد يكون كافراً. فالفاجر قد يكون مؤمناً غير أنه منبعث في المعاصي، وقد يكون كافراً.

أما هؤلاء المذكورون فقد جمعوا إلى الكفر الفجور فناسب تقديمهم. والله أعلم.

١٢ ـ قال تعالى في سورة هود: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

بتقديم النذير على البشير.

وقال في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

بتقديم المبشر على النذير.

وذلك أن الكلام في سورة هود موجه إلى الكافرين، قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ١ ـ ٥].

ثم إنه كرر وصف الإنذار فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢] ولم يذكر التبشير.

ثم إن جو السورة تشيع فيه عقوبات الأمم البائدة كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وغيرهم، وهذا ما يستدعي تقديم الإنذار.

ومما ناسب ذلك أيضاً أنه قال في السورة: ﴿۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤] فقدّم من هم أولى بالإنذار وهم الذين مثّل لهم بالأعمى والأصم.

ثم إنه ذكر عذاب الآخرة فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ۝١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٣ ـ ١٠٥].

فذكرُ عذاب الآخرة ـ وهو تخويف ـ يستدعي تقديم الإنذار.

وقدم الأشقياء على السعداء فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ والأشقياء أولى بالإنذار.

ثم إنه قال في أواخر السورة: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ

وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١ ـ ١٢٢].

فالكلام موجه لغير المؤمنين. فناسب تقديم الإنذار من كل وجه.

وأما سياق آية الأحزاب فالكلام فيه موجه إلى المؤمنين، فقد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٦].

وقال بعد ذلك: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٧] ولم يقل (وأنذر الكافرين). فناسب تقديم التبشير ههنا، كما ناسب تقديم الإنذار ثَمّ.

١٣ ـ قال تعالى في سورة سبأ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [سبأ: ١ ـ ٢].

بتقديم الرحيم على الغفور، وهذا هو الموطن الوحيد الذي تقدم فيه (الرحيم) على (الغفور) فيما اجتمع فيه هذان الاسمان الكريمان.

وأما المواطن الأخرى فكلها بتقديم (الغفور) على (الرحيم).

وذلك أنه لم يتقدم الآية ما يتعلق بالمكلفين، وإنما تقدمها أمر عام مما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها.

وقد تأخر ذكر المكلفين إلى ما بعدها فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا

ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [سبأ: ٣] والمكلفون هم الذين بهم حاجة إلى المغفرة. وأما الرحمة فأمر عام تعم المكلفين وغيرهم. فهي كما تشمل المكلفين تشمل البهائم وسائر الأحياء الأخرى.

فلما كان ما تقدم الآية أمراً عامّاً قدم الرحمة التي هي أعم من المغفرة. ولما أخر ذكر المكلفين أخر المغفرة لأنها تخصهم. يدلك على ذلك أن جميع المواطن التي تقدم فيها اسمه (الغفور) على (الرحيم) تقدم فيها ذكر المكلفين وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

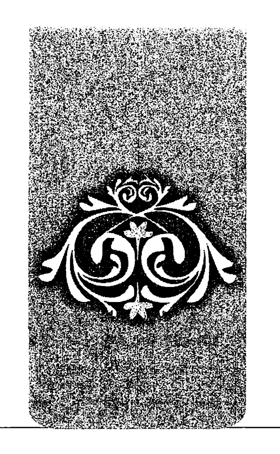
وقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٧٤].

وقوله: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فاتضح ما قلناه. والله أعلم.

* * *



التشابه والاختلاف

قد يتشابه تعبيران في القرآن الكريم مع شيء من الاختلاف في التعبير وذلك لأغراض يقتضيها السياق والمقام، فيكون كل تعبير أنسب في مكانه، ومن ذلك على سبيل المثال:

١ ـ قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣].

وقوله في سورة القصص في قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

فقال:

في الكهف	في القصص
ولم تكن له	فما كان له
فئة	من فئة
وما كان منتصراً	وما كان من المنتصرين

إن آية الكهف وقعت في سياق حوار بين شخصين: **أحدهما**: يملك جنتين مثمرتين بينهما نهر، غير أنه مشرك بالله ولا يؤمن بيوم الحساب، وكان يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

والآخر: مؤمن فقير.

ثم انتهى الأمر إلى أن أرسل الله على الجنتين ما أهلكهما وأبادهما

فأخذ يعضّ أصبعه من الندم ويتحسر على ما فات ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف، الآيات ٣٢ ـ ٤٤].

وأما آية القصص فهي في سياق قصة قارون الذي آتاه الله من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ولكنه بغى على قومه، فخرج على قومه في زينته وتمنى جمعٌ ممن رأوه أن يكون لهم مثل ما أوتي، وردّ عليهم آخرون أن ثواب الله خير من ذلك. وانتهى الأمر إلى أن خسف الله به وبداره الأرض، فذهل من كانوا يتمنون مكانه بالأمس وحمدوا الله على نجاتهم من مثل هذا المنقلب (الآيات من ٧٦ ـ ٨٢).

ومن ذلك يتبين ما يأتي:

١ً ـ أن آية الكهف وقعت في سياق حوار بين شخصين ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ. . . فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ. . . قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾.

أما آية القصص فهي في سياق حوار بين مجموعتين:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٢].

٢ً ـ في سياق آيات الكهف كان الهلاك للجنتين، أما الفرد فنجا ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

وأما في القصص فكان الإهلاك للمال وصاحبه ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

ومن هذا يتضح أن العقوبة في القصص أشد ، فاختلف التعبير تبعاً لذلك :

أ ـ فقال في القصص (فما كان).

وقال في الكهف (لم تكن).

و(ما كان) آكد وأقوى من (لم تكن) ؛ ذلك أن (ما كان) نفي لـ (لقد كان) ، أما (لم تكن) فنفي لـ (كانت). فإن (ما فعل) نفي لـ (لقد فعل) ، و(لم يفعل) نفي لـ (فعل) [١].

والنفي بـ (ما) مع الماضي يفيد التوكيد[٢] ؛ وذلك لأنها جواب لقسم مقدر. جاء في (كتاب سيبويه): «وإذا قال (لقد فعل) فإن نفيه (ما فعل) لأنه كأنه قال: (والله لقد فعل) فقال: (والله ما فعل)» [٣].

وهو المناسب لشدة العقوبة.

ب ـ قال في القصص (من فئة) بزيادة (من) الاستغراقية المؤكدة.

وقال في الكهف (فئة) من دون (من).

فما في القصص آكد وأدلّ على الاستغراق، فناسب ذلك شدة العقوبة.

ج ـ لما كان المنتصر في الكهف واحداً وهو المؤمن ، إذ الحوار دار بين شخصين ، قال: ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ .

ولما كان المنتصرون في القصص هم قوم موسى ، ولم يك قارون واحداً منهم ، قال: ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ .

د ـ وهناك أمر آخر حسّن ذكر التبعيض في القصص: ﴿ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾

---

(١) انظر كتاب سيبويه ١/ ٤٦٠ .

(٢) انظر الإتقان ١/ ١٧٦ .

(٣) كتاب سيبويه ١/ ٤٦٠ .

وهو أنه جرى في السورة ذكر التبعيض كثيراً ، فقد ورد فيها (١٥) خمس عشرة مرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ . . . إلخ.

وليس في الكهف شيء من ذلك.

٢ ـ قال تعالى في سورة يونس: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وقال في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧ ـ ٧٩].

فقال في سورة يونس: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ بواو العطف.

وقال في سورة طه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ بالباء.

فما دلالة كل تعبير؟ وما سر هذا الاختلاف؟

إن الواو تفيد العطف، فهي تدل على أن فرعون كان مع جنوده متبعاً لموسى وقومه.

أما الباء فهي لا تفيد ذاك نصًّا، وإنما هي تحتمل أنه كان متبعاً لهم بنفسه، كما تحتمل أنه لم يتبعهم بنفسه، وإنما أرسل جنوده لاتباع موسى وقومه ولم يذهب معهم، كما تقول: (أتبع الرئيس الجيش بخمسة

آلاف) ولا يقتضي ذاك أنه ذهب معهم. ونحوٌ من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٥].

فما كان بالواو يفيد اتباع فرعون بنفسه لموسى نصًّا، أما ما جاء بالباء فتفيده احتمالاً.

فقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ يدل على أنهم كلهم متبع، وأما قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ فقد يدل على أن فرعون آمر ولا يفيد نصًّا على أنه معهم.

وعلى هذا فإن ما جاء بالواو يدل على الاهتمام أكثر مما جاء بالباء؛ ذلك لأنه تبعهم بنفسه، فإنه إذا صحب الرئيس جنده في الحرب كان ذلك أدلّ على الاهتمام من إرسالهم دون أن يصحبهم. وهو ما يقتضيه السياق:

١ً ـ فقد ذكر في سورة يونس أنه لم يؤمن بموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم. قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ﴾ [يونس: ٨٣].

٢ً ـ وذكر أن فرعون عالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين فقال: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فأكّد علوّه وإسرافه بإنّ واللام.

٣ً ـ طلب موسى من قومه أن يتوكلوا على الله ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٥].

٤ً ـ ودعوا ربهم ألا يجعلهم فتنة لفرعون وقومه فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [٨٥].

٥ ـ دعا موسى على فرعون فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [٨٨].

٦ ـ قال في يونس: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ فزاد البغي والعدو زيادة في الدلالة على تصميم فرعون على استئصال بني إسرائيل وسحقهم، وزيادة في ذمه. ولم يقل مثل ذلك في طه.

بل إنه في طه لم يذكر فتنة فرعون لبني إسرائيل.

ففرعون في سياق آيات يونس باطش جبار مسرف في نفسه ومحاربته لبني إسرائيل، فاقتضى السياق أن يكون على رأس جنده في اتباع موسى وقومه ليردّهم ويفتنهم، واقتضى أن يستحق العقاب، ولذا اختلف السياق في يونس عما في طه، وذلك أنه:

أ ـ قال في يونس: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ فأسند المجاوزة إلى نفسه سبحانه (جاوزنا) فتولّى ربنا ذلك بنفسه لينجي بني إسرائيل وليبطش بفرعون.

في حين قال في طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾.

فالله هو الذي جاوز ببني إسرائيل البحر في يونس.

وفي طه موسى هو الذي أسرى بهم.

ب ـ ذكر عاقبة فرعون وغرقه في يونس ولم يذكر غرق جنده.

في حين ذكر غرق الجند في طه ولم يخص فرعون بذكر.

فقد قال في يونس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

فالكلام كما ترى على فرعون.

في حين قال في طه: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

فكان هذا التعقيب أنسب شيء، فقد كان فرعون في طه موجهاً فأضلّهم وغيّبهم في البحر.

وكان في يونس متبعاً بنفسه فغرق.

فكان كل تعبير مناسباً لسياقه.

ج ـ إن إيمان فرعون حين أدركه الغرق بقوله: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كان كأنه استجابة لدعاء موسى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وقد ذكر ربنا أنه أجابه الدعوة فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

٣ ـ قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وقال في سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

ومن النظر في النصين نلاحظ ما يأتي:

١ً ـ إنه قال في النحل: ﴿بِظُلْمِهِم﴾.

وقال في فاطر: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾.

٢ً ـ قال في النحل: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

وقال في فاطر: ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

٣ ـ ختم آية النحل بقوله: ﴿ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

وختم آية فاطر بقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾.

وسبب هذا الاختلاف ـ والله أعلم ـ:

أ ـ أنه قال في آية النحل: (بظلمهم)؛ لأنه تقدم ذلك وأد البنات، وهو ظلم؛ لأنه قتل لنفس بريئة بلا سبب. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩].

ولم يتقدم في فاطر نحو ذلك، وإنما ذكر أعمال الأمم السابقة وعمل الكافرين فقال: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فاطر: ٤٢ ـ ٤٤].

فكان ذكر الظلم أنسب بالأولين، وذكر الكسب أنسب بالآخرين.

جاء في (ملاك التأويل):

«إن آية النحل تقدمها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩] فإشارة الآية إلى وأدهم البنات، وهو أعظم الظلم وأشنعه، إذ لم يتقدم للموؤودة جريمة ولا شبهة يتعلق بها قاتلُها. فناسب هذا ذكر الظلم؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ والضمير من (عليها) للأرض يفهمه سياق الكلام، فناسب ما أشير إليه من عظيم ظلمهم التصريح بذكر الظلم في قوله (بظلمهم).

ولما لم يتقدم في آية سورة الملائكة إفصاح بلفظ الظلم ، بل تقدمها قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فأشير إلى اجتراحاتهم وسيّء اكتسابهم لنفورهم ومكرهم السيّء فناسب ذلك قوله ﴿ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ »[1] .

ب ـ قال في آية النحل : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ .

وقال في آية فاطر : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ .

ذلك أن قوله : (عليها) أعم وأشمل من قوله : (على ظهرها) وإن كان المقصود بـ (على ظهرها) : (عليها) .

فإن (الظهر) جزء من كل ، وقوله : (على ظهرها) من باب المجاز المرسل ، وهو يعني (عليها) ، ولكن من حيث التعبير أن قوله : (عليها) أشمل وأعم من (على ظهرها) وهو المناسب للظلم ، فإن الظلم أسوأ من الكسب؛ ذلك لأن الظلم لا يكون إلا سيئاً ، وأما الكسب في أصل المعنى فإنه يكون للخير والشر ، قال تعالى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وقال : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة : ٨١] فكانت العقوبة العامة الشاملة أنسب مع الظلم ، بخلاف الكسب .

ج ـ قال في النحل : ﴿ بِظُلْمِهِم﴾ بالمصدر .

وقال في فاطر : ﴿ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ بالفعل الماضي . والمصدر هو الحدث المجرد من الزمن ، أما الفعل فهو مقيد بالزمن الماضي . فالمصدر أعم من الفعل ، فناسب المصدر العموم وهو قوله (عليها) ، وناسب المقيّد الذي هو الفعل ذكر الخاصّ وهو الظهر .

د ـ قال في النحل : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٦٠٧ .

وقال في فاطر: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾.

فذكر الأجل في النحل دون فاطر؛ وذلك لأن الكلام في النحل على الآجال في الدنيا. وأما في فاطر فقد ذكر أنه في يوم القيامة، فناسب قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾. وجاء في (روح المعاني) في آية فاطر: «قال: ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة. . . ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥] فيجازي المكلفين منهم عند ذلك بأعمالهم إن شرًّا فشر وإن خيراً فخير»[(١)].

وهناك أمر آخر حسّن ختام كل آية بما ختمت به، وهو أن آية فاطر في سياق الكلام على الله وصفاته، فناسب ختامها بصفته تعالى وهو قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾. قال تعالى في سياق آية فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ . . . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٣٨ ـ ٤٤].

وأما السياق في النحل ففي الكلام على الإنسان وصفاته، فناسب ختامها بالكلام على الإنسان. قال تعالى في سياق آية النحل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٣٠٨ ـ دار الفكر للطباعة بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ [النحل: ٥٦ ـ ٦٢].

هـ ـ قدم تأخير الأجل على تقديمه ؛ لأن تأخير الآجال هو مراد الناس ، وهو أحب إليهم من تقديمه ، فنفى ما يطمعون فيه . والله أعلم.

٤ ـ قال تعالى في يحيى عليه السلام : ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٣ ـ ١٥].

وقال في عيسى عليه السلام : ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣].

ومن النظر في النصين نرى ما يأتي :

أ ـ أنه قال في يحيى : ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾.

وقال عيسى : ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾.

فقال في يحيى : ﴿وَلَمۡ يَكُن﴾ وقال عيسى : ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي﴾ ولم يقل (ولم أكن جباراً) كما قال في يحيى .

ب ـ قال في يحيى : ﴿عَصِيّٗا﴾.

وقال عيسى : ﴿شَقِيّٗا﴾.

ج ـ قال في يحيى : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ بتنكير السلام .

وقال عيسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾ بتعريف السلام.

د ـ قال عيسى: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا... وَبَرَّۢا﴾ ولم يقل: (وجعلني برًّا).

هـ ـ قال: (عصيًّا) بالمبالغة، ولم يقل: (عاصياً).

ولعل من أسباب ذلك والله أعلم:

أ ـ أن الكلام على يحيى إخبار من الله تعالى عنه.

وأما عيسى فكلامه هو عن نفسه وليس إخباراً من الله.

فلما كان الكلام على يحيى إخباراً من الله قال: ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾.

ولما كان كلام عيسى كلامه هو نسبَ النعمة والفضل إلى الله فقال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا... وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ ولم يقل: (ولم أكن جباراً شقياً) اعترافاً بالنعمة والفضل لربه وهو أدب الكلام.

فكان كل تعبير في مكانه أمدح وأنسب.

ثم من ناحية أخرى لا يصلح الكلام إذا قال عيسى عن نفسه: (ولم أكن جباراً شقياً) لأن هذا القول بعد الولادة مباشرة وليس له ماضٍ في الدنيا قبل ذلك.

كما لا يصلح أن يقول: (ولا أكون جباراً شقياً) لأن ذلك في المستقبل وهو غيب لا يعلمه إلا الله.

ب ـ قال في يحيى: ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ وكأن ذلك كان استجابة لدعوة أبيه زكريا ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾.

وقال عيسى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ ولم يقل: (ولم أكن جباراً

شقيًّا) ، اعترافاً بنعمة الله عليه أن لم يجعله ذاك. ولم يقل: (ولم أكن جباراً شقيًّا) ، بنسبة الفضل إلى نفسه ، فربه هو الذي جعله ذاك.

ولما ذكر أنه جعله نبياً وجعله مباركاً ناسب ذلك عدم الشقاء ولم يقل (ولم يجعلني جباراً عصياً) لأن النبي لا يكون عصيًّا. وليدل على أنه لا يرضى بادعاء أتباعه بأنه الله أو ابن الله فيشقى ، ولو رضي بذلك لكان جباراً شقيًّا.

وخالف بين الخاتمتين ، أعني خاتمة يحيى وخاتمة عيسى للإفادة أن الجبار عصي وشقي.

ج ـ قال في يحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ بالتنكير.

وقال عيسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾ بالتعريف.

قيل: إنه عرّف السلام تعريضاً بلعنة متهمي مريم وأعدائها من اليهود ، أي السلام عليه لا عليكم ، نظير قوله: (والسلام على من اتبع الهدى) [١] ، فقد قالوا في أمه بهتاناً عظيماً كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

هذا من ناحية.

ومن ناحية اخرى أن (السلام) معرفة ، و(سلام) نكرة ، والنكرة أعم وأشمل ، يدل على ذلك أن تحية أهل الجنة هي (سلام) بالتنكير الدال على الشمول والعموم. والرحمن يحييهم بذلك ، والملائكة يحيونهم بذلك ، ولم ترد تحية أهل الجنة بالتعريف.

---

(١) الكشاف ٢/٥٠٨ ، البحر المحيط ٧/٢٥٩ ، روح المعاني ١٦/ ١٣٠.

قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وذلك ما سلّم به تعالى على عباده المرسلين أيضاً: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١].

وهو ما تركه على أنبيائه ورسله أيضاً: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٨ ـ ٧٩] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠].

ولم يسلّم ربنا بالتعريف.

والسلام على يحيى هو تحية ربنا عليه فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ وهو نظير ما حيّا به أنبياءه ورسله.

وسلام عيسى تحيته على نفسه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾.

وتحية الله أعلى من تحية عيسى وأكمل. فالله سلّم على يحيى بالتنكير لإفادة العموم والشمول كما حيّا به المرسلين.

وعيسى سلّم على نفسه، غير أنه لم يسلّم على نفسه بالشمول أدباً وتواضعاً.

لكن عيسى دخل في تحية ربه حين قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فشمله ذاك.

فالتعريف أفاد التعريض، والتنكير أفاد العموم.

وقد تقول: ولكن عيسى أفضل من يحيى، فينبغي أن تكون تحيته

أفضل أيضاً ، فنقول: إن ذلك حق لو كان المحيّي واحداً ، فإنه إذا كان المحيّي واحداً فربما حيّا كلاًّ منهما على حسب الفضل ، ولكن المحيّي مختلف. فالذي سلّم على يحيى هو الله ، والذي سلّم على عيسى هو عيسى نفسه ، فتواضع عيسى بالسلام على نفسه بالتعريف ، وأفاد مع ذلك التعريض بلعنة متهمي أمه. ولا شك أن التواضع هو أكمل وأتم.

والله أعلم.

د ـ قال عيسى: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ ولم يقل: (وجعلني برًّا) مع أنه على تقدير ذلك. وذلك لأنه ذكر أموراً هي بجعل الله حصراً ، فقد قال: ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ وهذا ليس من الأمور الكسبية وليس من فعل العبد.

وقال: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وهذا بجعل الله حصراً ، فهو الذي يجعل الشخص مباركاً.

أما البر بالوالدين فهو عمل كسبي يفعله الشخص ، وهو مأجور على فعله معاقب على تركه ، ولذلك لم يجعله بمنزلة ما قبله فقال: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ فإنه وإن كان كسبياً إلا أنه جعله من نعمة الله عليه وتفضله وتوفيقه ولطفه. فلم يذكر الجَعْل مع أنه على تقديره ليفيد أمرين:

الأول: أنه ليس بمنزلة ما تقدم مما هو من جَعْل الله حصراً ، وإنما هو من فعل العبد.

والآخر: هو الاعتراف بأن ذلك مما أنعم الله عليه فوفقه لعمل الخير وهو البر بالوالدة ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ففرق بين ما يكون مِن جَعْل الله حصراً وما يكون بتوفيق الله ولطفه مما هو من فعل العبد.

هـ ـ قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

فقال (عصيّاً) بصيغة المبالغة ولم يقل (عاصياً).

وقد نقول: أكان عاصياً؟ فهو نفى عنه كثرة المعصية ولم ينف المعصية على وجه العموم ، فإنك إذا قلت: (إنه لم يكن ظلّاماً) فإنك لم تنف أنه كان ظالماً، وإنما نفيت عنه كثرة الظلم. وإذا قلت (لم يكن شرِّيباً للخمر) فأنت لم تنف عنه شرب الخمر ، ولكنك نفيت المبالغة في ذلك.

فنقول: إن الجبار هو عصيّ وليس عاصياً فقط. فالجبار بالمبالغة هو عصيّ بالمبالغة.

ولو قال: (ولم يكن جباراً عاصياً) لأفاد أن الجبار ليس مبالغاً في المعصية وهو لا يصح.

٥ ـ قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥ ـ ٦٦].

وقال في سورة الروم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٣ ـ ٣٤].

فقال في سورة العنكبوت: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ بتهديد الغائب.

وقال في سورة الروم: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بالالتفات إلى تهديد المخاطب.

فما سبب هذا الاختلاف؟

وهنا نود أن نذكر شيئاً قد يعيننا في بيان السبب:

١ً ـ إن تهديد المخاطب أشد من تهديد الغائب ، فإنك إذا واجهت شخصاً بتهديدك فإن ذلك أقوى من أن تهدده وهو ليس بحاضر. فإذا قلت: سأفعل بك كذا وكذا وأعاقبك ، كان ذلك أدل على تمكنك منه وعلى استحقاقه من أن تقول: سأفعل به كذا وكذا. فإنه إذا حضر فقد تعدل عن ذلك ولا تفعل ما ذكرت ، بل قد تلين له في الكلام ، وهو ما نراه في حياتنا اليومية.

٢ً ـ إن الذي لا يشكر النعمة بعد إسدائها له أحق بالتهديد من غيره ، وكلما كانت النعمة أكبر كان أحق بالتهديد.

وسننظر في التعبيرين المذكورين بمقتضى هذين الأمرين:

أ ـ ذكر في آية الروم أنهم أصابهم ضر فدعوا ربهم منيبين إليه. ولم يذكر في العنكبوت أنهم أصابهم ضر أو أصابتهم ريح أو ما شابه ذلك ، وإنما هي حالة خوف طبيعي تعتري راكب البحر.

فالنجاة مما هم فيه في آية الروم أهم ؛ لأنه مسّهم ضرّ فنجاهم منه ، فالنعمة عليهم أكبر.

ب ـ قال في آية الروم أنهم أذاقهم رحمة بعد الضر ، ولم يقل في العنكبوت أنه أذاقهم رحمة، وإنما هي نجاة إلى البر من غير ضر أصابهم.

فالمذكورون في آية الروم أحق بالتهديد من جهتين:

الجهة الأولى: أنه أصابهم ضر.

والجهة الأخرى: أنه أذاقهم منه رحمة فالتفت إلى تهديدهم فقال: ﴿ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

فكان كل تعبير أنسب في مكانه.

٦ ـ قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤١ ـ ٤٢].

وقال في سورة الصف: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ [الصف: ٥].

فقال في البقرة: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

وقال في الصف: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ﴾.

فقدم في البقرة المبتدأ على الخبر الفعلي؛ ذلك أن هذا التقديم يفيد القصر والاهتمام. فالمخاطبون ـ وهم بنو إسرائيل ـ يعلمون حصراً أن محمداً رسول الله، فهم يجدون ذلك مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل (الأعراف: ١٥٧) وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم (البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠) فناسب هذا الأمر التقديم لإفادة القصر والاهتمام. وليس هذا مما يعلمه غيرهم إلا من اطلع على كتبهم.

أما آية الصف فهي في مخاطبة موسى لقومه فقال لهم: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ بالتوكيد من دون تقديم؛ لأن القصد هو تحقيق أنهم يعلمون أن موسى رسول الله إليهم دون نفي العلم عن غيرهم. فإن غيرهم ممن اطلع على الآيات التي جاء بها موسى قد يعلم أنه رسول الله وذلك كالسحرة الذين آمنوا به، والمؤمن من آل فرعون أو غيرهم. فهو لا يريد أن يقصر العلم عليهم، بل أراد أن يقول إنهم يعلمون أنه رسول الله يقيناً. فناسب كل تعبير موضعه.

٧ ـ قال تعالى في آل عمران: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال في سورة المائدة: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٠٩ ـ ١١٠].

نريد أن نذكر وجهين من الاختلاف في التعبير بين هذين النصين دون الاختلافات الأخرى هما:

١ً ـ أنه قال في آل عمران ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ بضمير التذكير في (فيه).

وقال في المائدة: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ بضمير التأنيث في (فيها).

٢ً ـ قال في آل عمران: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

وقال في المائدة: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

فذكر لفظ الإحياء في آل عمران، ولفظ الإخراج في المائدة.

ومن الظاهر أن آية آل عمران وردت في سياق تبشير الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام، ولم يكن بعد قد وجد في رحم أمه. وهذا الكلام كله من التبشير بصفات المبشَّر به: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ. . .﴾ [آل عمران: ٤٥].

وأما آية المائدة فهي في سياق ذكر مشهد من مشاهد الآخرة يوم يجمع الله الرسل فيقررهم قائلاً: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾. ثم يخاطب عيسى مذكّراً له بنعمه عليه والآيات التي أيده بها في الدنيا قائلاً: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ. . .﴾.

ونعود إلى الوجهين اللذين ذكرناهما :

١ - أما بالنسبة إلى قوله في آل عمران : ﴿ أَنِّىٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ ، فإنه أعاد الضمير على الكاف في (كهيئة) أي أنفخ في المثل ، والكاف هنا بمعنى (مثل) فأعاد الضمير بالتذكير لأن المثل مذكر .

وأما في آية المائدة فقد قال : ﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِى فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ ، فأعاد الضمير على الهيئة[١] وهي مؤنثة .

ومنع بعضهم عود الضمير على الهيئة ؛ لأنها ليست من خلقه ولا من نفخه في شيء[٢] .

وليس هذا التفسير ملزماً . ولا مانع من عود الضمير على الهيئة ، وذلك ما ذهب إليه آخرون ، لأن الهيئة صورة الشيء وشكله[٣] ، والمعنى أنه ينفخ فيما هو على صورة الطائر وشكله ، وهذه الهيئة صنعها هو من الطين فلا يلزم ما قاله المانعون . جاء في (البحر المحيط) أنه جوّز بعضهم عود الضمير على الهيئة «على تقدير : وإذ يخلق من الطين طائراً صورة مثل صورة الطائر الحقيقي فينفخ فيه فيكون طائراً حقيقة بإذن الله»[٤] .

ومما يذكر في سبب الاختلاف بينهما أنه : «ورد قبل ضمير آية آل عمران من لدن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ نحو من عشرين ضميراً من ضمائر المذكر ، فورد

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٤ .

(٢) انظر الكشاف ١/ ٦٥٣ ، ملاك التأويل ١/ ١٥٧ .

(٣) انظر لسان العرب (هيأ) .

(٤) البحر المحيط ٤/ ٤٠٦ .

الضمير في قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ مذكراً ليناسب ما تقدمه وليشاكل الأكثر الوارد قبله.

أما آية العقود[1] فمفتتحة بقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾، وخَلْقه الطائر ونَفْخه فيه من أجلّ نعمه تعالى عليه لتأييده بذلك، فناسب ذلك تأنيث الضمير. ولم تكثر الضمائر ههنا ككثرتها هناك. فجاء كل من الآيتين على أتم مناسبة»[2].

ومما يمكن أن يذكر في سبب الاختلاف بينهما أيضاً أن ضمير التأنيث في نحو هذا يدل على الكثرة، وأن آية آل عمران فيما قبل حصول هذا الأمر فوحّده وذكّره، «وآية المائدة من كلام الله تعالى يوم القيامة معدداً نعمه عليه بعد ما مضت، وكان قد اتفق ذلك منه مرات، فحسن التأنيث لجماعة ما صوّره من ذلك ونفخ فيه»[3].

ومن الطريف أن نذكر أيضاً أنه في آية آل عمران كان الكلام في الدنيا، فأعاد الضمير على اللفظ المتقدم وهو الكاف، ذلك أن الدنيا متقدمة على الآخرة.

وأعاد الضمير على اللفظ المتأخر في المائدة وهو الهيئة؛ لأن الكلام إنما هو في الآخرة، والآخرة إنما تأتي بعد الدنيا.

فناسب كل تعبير الزمن الذي قيل فيه.

٢ ـ قال في آية آل عمران: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بلفظ الإحياء،

---

(١) يعني آية المائدة.

(٢) ملاك التأويل ١/١٥٨.

(٣) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ١٢٩، وانظر البرهان في متشابه القرآن للكرماني ١٣٢.

وقال في المائدة: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ بلفظ الإخراج. وذلك لأكثر من سبب:

منها أن لفظ الحياة ومشتقاتها تردد في آل عمران أكثر مما في المائدة، فقد تردد في آل عمران تسع مرات، وفي المائدة مرتين.

وأن لفظ الخروج ومشتقاته تردد في المائدة أكثر مما في آل عمران، فقد تردد في المائدة سبع مرات، وفي آل عمران أربع مرات.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن خروج الميت من القبر إنما يكون بعد إحيائه، فالخروج مرحلة متأخرة عن الحياة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣] وخروجهم سراعاً يكون بعد إحيائهم. فذكر الحالة المتقدمة عندما كان الكلام في الدنيا، وذكر الحالة المتأخرة وهي الإخراج عندما صار الكلام في الآخرة. فذكر الحالة السابقة للزمن السابق، وذكر الحالة المتأخرة للزمان المتأخر، وهو نظير عود الضمير في ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ وقوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾.

٨ ـ قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

ومن الملاحظ في هذين النصين:

أ ـ أنه لم يذكر في سورة الأنبياء اسمها، وإنما ذكر صفتها ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، وأنه ذكر اسمها في سورة التحريم علاوة على صفتها ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

٢ ـ قال في سورة الأنبياء: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾.

وقال في التحريم: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾

٣ ـ أنه ذكر ابنها في سورة الأنبياء ولم يذكره في سورة التحريم.

ولعل من أسباب هذا الاختلاف:

أ ـ أنه لم يذكر في سورة الأنبياء اسمها؛ لأن السياق في ذكر الأنبياء، فذكر موسى وهارون وإبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وذا النون وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وزكريا ويحيى، فلم يصرح باسم مريم؛ لأن السياق في ذكر الأنبياء وهي ليست منهم.

وأما في سورة التحريم فالسياق في ذكر النساء، فذكر امرأة نوح وامرأة لوط من الكوافر، وذكر امرأة فرعون ومريم ابنة عمران من المؤمنات. بل إن هذه السورة بدأت بذكر أزواج النبي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ ﴾ [التحريم: ١].

فناسب ذكر اسمها.

ثم إن التصريح بالاسم أبلغ وأظهر من الإضمار مدحاً أو ذمًّا.

فإن مدحت شخصاً وذكرت اسمه كان أبلغ في مدحه، وإن ذممته باسمه كان أبلغ في ذمه. وهي أعلى المذكورات في سياقها فصرح باسمها، وهي أقل المذكورين منزلة في سياق الأنبياء فلم يذكر اسمها.

ب ـ إن قوله: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ أعم من قوله: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾.

فقوله: (فيها) يعمها كلها، وأما قوله: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ فهو أخص؛ لأنه أشار إلى موضع النفخ.

ثم من ناحية أخرى أن قوله: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ أمدح من

قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ ؛ لأن النفخة عمت شخصها ، بخلاف قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ فإنها خصت جزءاً.

وقد ناسب كل تعبير موضعه.

فأما من حيث العموم والخصوص فإن قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أخص من قوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ لأنه تخصيص بالعلم والوصف. فإن (التي أحصنت فرجها) وصف عام وإن كان يعني بها السيدة مريم ، فإن من أحصنّ فروجهن من النساء كثير ، بخلاف التصريح باسم العلم ، فإنه يعينها بالعلمية والوصف. فجاء مع العلم بـ (فيها) ومع الخاص بـ (فيه) فناسب العموم العموم ، وناسب الخصوص الخصوص.

ثم إن قوله في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أعم من ذكرها وحدها في سورة التحريم ؛ لأنه ذكرها وذكر ابنها. فناسب العموم العموم من جهة أخرى.

وأما من ناحية المدح فإن ذكرها في سياق الأنبياء الذين هم أعلى الخلق أمدح لها.

ثم إن قوله تعالى إنه جعلها وابنها آية للعالمين أمدح من قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ وكلاهما مدح وثناء عظيم ، إلا أن بعضه أعلى من بعض. فإن جعلها وابنها آية للعالمين في غاية المدح والرفعة ؛ ذلك أنه جعلها آية للعالمين وليست لقومها خاصة. أما من صدّق بكلمات ربه وكتبه من الرجال والنساء فكثير ، بخلاف الذين جعلوا آية للعالمين.

فناسب هذا المدح العموم بقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾.

ج ـ وأما ذكر ابنها في آية الأنبياء وعدم ذكره في التحريم فإن ذكره

أنسب في آية الأنبياء من أكثر من جهة ، ذلك أن السياق في سورة الأنبياء في ذكر الأنبياء وابنها واحد منهم ، فناسب ذكره من هذه الجهة .

وأما في سورة التحريم فالسياق في ذكر النساء فلا يناسب ذكره فيه .

ومن جهة أخرى أنه ذكر في سورة الأنبياء ابن إبراهيم وابن ابنه فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣].

فناسب ذكر ابنها في هذا السياق أيضاً .

د ـ وثمة ملاحظة تعبيرية أخرى أنه قال في مريم: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ .

بضمير الجمع .

وقال في آدم: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ بضمير الإفراد ، وقال فيه أيضاً: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ ﴾ بالإفراد .

ذلك لأن النافخ في مريم هو رسوله الذي تمثل لها بشراً سوياً ، وليس الأمر كذلك في آدم . والله أعلم .

٩ ـ قال تعالى في سورة يونس: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٤ ـ ٥٥].

وقال في السورة نفسها: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس: ٦٦].

فقال في الآية الخامسة والخمسين: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [يونس: ٥٥] فجاء بـ (ما) .

وقال في الآية السادسة والستين: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦] فجاء بـ (من).

وذلك أنه في الآية الخامسة والخمسين ذكر الفداء بالمال، فقد قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٥٤] فقال ربنا إن له ما في السماوات والأرض، فجاء بـ (ما) التي هي لذوات غير العاقل ومنها الأموال.

أما في الآية السادسة والستين فقد جاء بـ (من) لأنه ذكر الشركاء، فناسب ذكر (من) التي هي للعاقل.

* * *



الفاصلة القرآنية

من المعلوم أن القرآن الكريم يعنى بالانسجام الموسيقي في الفواصل القرآنية نحو ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ . . . فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ . . . وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ . . . ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان].

وقوله: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ . . . وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ . . . مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء].

وقد يتوصل إلى ذلك بما تتيح اللغة استعماله ـ إذا وجد داعياً له ـ فيمدّ مثلاً في موطن لا تراه موطن مدّ نحو ﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٧] و﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾ [الإنسان: ١٥]، أو قد يحذف طلباً لانسجام الفاصلة نحو ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣] وقوله: ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء: ٧٣].

وقد يقدم لفظة في موطن أو يؤخرها طلباً لذلك نحو ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقدم الخبرة على العمل، وفي موطن آخر ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فيقدم العمل على الخبرة، كل ذلك لغرض انسجام الفاصلة.

والذي نريد أن نؤكده هنا أن القرآن الكريم لا يفعل ذلك على حساب المعنى ألبتة، فإن المعنى هو المطلوب أولاً، فيأتي بالفاصلة منسجمة مع أخواتها عند اقتضاء المعنى لذلك، فإذا اقتضى المعنى غير ذلك لم يراع الفاصلة ولم يحسب لها حساباً، وإنما تكون المراعاة للمعنى أولاً،

فإن المعنى هو السيد في التعبير القرآني. ولذلك قد يأتي بفاصلة لا تشبهها فاصلة في جميع السورة وإن كثرت آياتها. وقد يأتي بفاصلة تختلف عما في سياقها، كل ذلك طلباً للمعنى.

وإليك طرفاً من الملاحظات في الفاصلة القرآنية:

١ ـ قد تكون الفواصل في السورة على نمط واحد من أولها إلى آخرها وذلك نحو سورة (ق) فإن كل آياتها تنتهي بحرف قبله مد بالواو أو الياء نحو: المجيد والوعيد والغروب والخروج.

ونحو سورة الحجرات فإنها كذلك نحو: عليم وعظيم، وتشعرون ويعقلون.

ونحو سورة الفتح فإنها تنتهي بالألف عند الوقف نحو: مبيناً ـ عظيماً ـ أصيلاً.

٢ ـ قد يغير في الفاصلة ليؤسس فواصل أخرى على نمطها، وقد يرجع إلى نمط الفاصلة الأولى أو لا يرجع، فمن الأول كثير منه في سورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها.

ومن الثاني ما ورد في سورة المرسلات مثلاً: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ [المرسلات: ٨ ـ ١٢] فإنها تختلف عن نمط ما قبلها وما بعدها.

ومن ذلك ما ورد في سورة النجم: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧ ـ ٥٨] فإنها تختلف عما قبلها وما بعدها.

٣ ـ وقد يأتي بفاصلة قرآنية في آية واحدة ليس في سياقها مثلها، وربما كانت على نمطها فاصلة أخرى في السورة في موضع آخر.

وقد يأتي بالفاصلة وليس على نمطها فاصلة في السورة كلها.

فمن الأول قوله تعالى في سورة محمد: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠] وليس في سياقها على نمطها، غير أنه ورد نحو ذلك في موضع آخر من السورة، قال تعالى في الآية الرابعة والعشرين: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ومن الثاني قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] فليس في السورة نظير هذه الآية.

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

وقوله في الإسراء: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] فليس في السورة على نمطها مع أن عدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية، فإن آياتها فواصل ممدودة بالألف (وكيلا، شكورا، كبيرا).

وقوله في الفرقان: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] فإن آيات السورة كلها ممدودة إلا هذه الآية.

وقوله في سورة (ص): ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

وغيرها. مما يدل على أهمية المعنى في التعبير ولو أدى ذلك إلى التفريط بالموسيقى.

٤ ـ قد يُجري شيئاً من التغيير في الفاصلة مما لا يخل بالمعنى وذلك لأمر بياني، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] فمدّ السبيل مع أنه قال في السورة نفسها: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فلم يمدّ السبيل.

وكقوله في سورة الإنسان: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ [الإنسان: ١٥] فمدّ القوارير، وكقوله في سورة الكافرون: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] بحذف

ياء المتكلم ، ولم يحذفها من قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤].

ونحو هذا يجري في غير الفواصل أيضاً ، فقد يذكر الحرف في موضع ويحذف نظيره في موضع آخر لأمر بياني مما لا يخل بالمعنى ، وذلك كحذف الياء من الفعل أو الاسم ، سواء كانت ضميراً أم حرفاً نحو قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ ﴾ [الكهف: ٦٤] بحذف الياء ، وقوله في آية أخرى: ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ ﴾ [يوسف: ٦٥] بذكرها.

وقوله في آية: ﴿ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ﴾ [المائدة: ٣] بحذف الياء.

وفي آية أخرى: ﴿ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي ﴾ [البقرة: ١٥٠] بذكرها.

٥ ـ إن جميع الحروف استعملت فواصل للآي إلا حرف الخاء فإنه لم يرد فاصلة ، فالهمزة نحو: سميع الدعاء ، هواء. . . والألف نحو: والضحى ، ويغشى. . . والباء نحو: مريب وتباب. . . والتاء نحو: أقتت ، وأجلت ، وكورت. . . والتاء المربوطة: كالقارعة والآزفة ، والثاء نحو: فحدث ، والفراش المبثوث ، والجيم نحو: أزواج ، والبروج ، والحاء نحو: (والفتح) و(ضبحا) ، والدال نحو: مزيد وسعيد ، والذال نحو: مجذوذ وحنيذ ، والراء نحو: قدير وبصير ، والزاي نحو: عزيزاً وأزّاً ، والسين نحو: عسعس ، والجواري الكنّس ، والشين نحو: قريش ، والمنفوش ، والصاد نحو: مناص ومحيص ، والضاد نحو: عريض ، وعرضا ، والطاء نحو: قنوط ومحيط ، والظاء نحو: غليظ وحافظ ، والعين نحو: يطاع ، والرجع ، والغين نحو: بليغاً ، والفاء نحو: مختلف وخوف ، والقاف نحو: الحريق ، واختلاق ، والكاف نحو: صدرك ووزرك ، واللام نحو: خلال وضلال ، والميم نحو: عليم والقديم ، والنون نحو: مبين ، يبصرون ، والهاء

نحو: أخيه، وأبيه، وكتابيه، والواو نحو: اعبدوا، ضلوا، وتعولوا، والياء نحو: فنسي، وصدري.

أما الخاء فلم ترد فاصلة وإنما وردت متصلة بياء المتكلم نحو: هرون أخي، أو بالتاء المربوطة نحو: الصاخّة.

إلى غير ذلك من الأمور التي تتعلق بالفاصلة. وسنضرب أمثلة تبين شيئاً مما ذكرناه. وقد ذكرنا في التعبير القرآني جملة صالحة من الفاصلة القرآنية.

١ ـ قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

فجعل خاتمة الآية الرحمة: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

وقال: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فجعل خاتمة الآية المغفرة: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾.

وسبب ذلك في هاتين الآيتين ونظائرهما من الآيات أنه إذا ذكر ذنباً عقب بالمغفرة، وإن لم يذكر ذنباً عقب بالرحمة.

وإيضاح ذلك أنه في الآية الأولى لم يختمها بوصف المغفرة؛ لأن موسى وأخاه لم يذنبا فيطلبا المغفرة فقال: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

في حين قال: ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فجعل خاتمة الآية: ﴿ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ وذلك أنه طلب المغفرة لعموم قومه وهم استحقوا العقوبة، يدل على ذلك قوله: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. والذنوب يطلب لها المغفرة فقال: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾.

وقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

فجعل خاتمة الآية ﴿ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ولم يختمها بوصف المغفرة؛ وذلك لأنه لم يذكر لهم ذنباً فيطلب لهم المغفرة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨] فختم الآية بقوله: ﴿ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وذلك أنه لم يذكر ذنباً فعقب بالرحمة. قد تقول: ولكن قال قبلها: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [١١٧] وهذا ذنب فكان المناسب أن يقول: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾.

والجواب أن هذا الدعاء ليس لهؤلاء المذكورين، فإن هؤلاء كفرة مشركون يدعون مع الله إلهاً آخر فلا يصح طلب المغفرة لهم، وقد قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨] وإنما هذا دعاء للمؤمنين ولم يذكر لهم ذنباً فناسب التعقيب بالرحمة.

فتبين أنه إذا كان في السياق ذكر لذنب فإنه يعقب بالمغفرة وإلا عقب بالرحمة. والله أعلم.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ٨ ـ ١١].

وقال في سورة الهمزة: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾ [الهمزة: ٤ ـ ٩].

فقال في القارعة: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾.

وقال في الهمزة: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾.

فجاء بالضمير في سورة القارعة ولم يقل: (وما أدراك ما الهاوية)، كرر الاسم الظاهر في سورة الهمزة فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ ولم يقل: (وما أدراك ما هية) كما قال في القارعة.

ولا شك أن كل تعبير مناسب لخواتيم الآي في السورة، ولكنه لم يفعل ذلك للفاصلة فقط، وإنما يقتضي ذلك الوجه البلاغي أيضاً. إذ من المعلوم أن الاسم الظاهر أقوى من المضمر، وأن وصف النار في سورة الهمزة أشد وأكثر تفصيلاً مما هو في سورة القارعة، فإنه في القارعة لم يزد على قوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

في حين قال في سورة الهمزة: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهمزة: ٦ ـ ٩].

فأضاف النار إلى الله، ووصفها بأنها موقدة، وأنها تطلّع على الأفئدة، أي تنفذ إليها وتعلوها، وذكر أنها عليهم مؤصدة، وأنها في عمد ممدة. فذكر من أوصافها ما لم يذكره في القارعة، فناسب ذلك إعادة الاسم الظاهر للتهويل والتعظيم، إضافة إلى مناسبة الفاصلة.

٣ ـ قال تعالى في سورة التكوير: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١٣ ـ ١٤].

وقال في سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الإنفطار: ٤ ـ ٥].

فقال في سورة التكوير: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾.

وقال في سورة الانفطار: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.

ذلك أنه قال في سورة التكوير: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾ أي أحضرت وقُرّبت، فناسب ذلك إحضار الأعمال، فإن الذي يطلب شيئاً عليه أن

يحضر ثمنه ، ولم يقل مثل ذلك في الانفطار ، وإنما قال : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ فليس ثمة تقريب لشيء ، وإنما ذلك يحصل قبل الحساب ، فناسب أن يذكر الإنسان ما قدم وأخر ، فإنه سيسأل عن ذلك كله .

٤ ـ قال تعالى في سورة الحاقة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [الحاقة : ١٩ ـ ٢٩] بهاء السكت (كتابيه ، حسابيه ، ماليه ، سلطانيه) وهذا جائز في الوقف .

والوجه الآخر أن يقف على ياء المتكلم نحو كتابي ، مالي . نظير ﴿ قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴾ .

ولا شك أن هاء السكت في الحاقة أنسب للفواصل معها : ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٦ ـ ١٨] .

غير أن لهاء السكت هنا وجهاً حسناً غير الانسجام الموسيقي ، وذلك أن هذه الهاء في نهاية الكلمة أشبه بالنهات الذي يصيب المتعب ، وقد يصيب الفَرِح فرحاً شديداً . وإن الموقف يستدعي ذلك لما فيه من إرهاق وعنت ومشقة تصيب الجميع : الشقي والسعيد . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٣ ـ ١٦] فأنسب شيء في هذا الموقف هذا النهات الذي يصيب المتعب فينهي الكلمات بالهاء .

٥ ـ قال تعالى في سورة القمر : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى

ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦ ـ ٨]

فقال: (نُكُر) بضم النون والكاف.

وقال في الكهف: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧].

وقال فيها أيضاً: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

وقال في سورة الطلاق: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨]

فقال في سورة القمر: (نُكُر) بضمتين، وقال في الآيات الأخرى: (نُكْراً) بضم فسكون.

و(نُكُر) بضمتين صيغة تختلف عن صيغة (نُكْر) بضم فسكون، وليست حركة الكاف متأتية عن تحريك الساكن، ولا سكونها متأتياً من تسكين المتحرك، بل هما صيغتان: فُعُل كأُنُف وشُلُل، وفُعْل كَصُلْب وحُلْو. والنُّكُر هو الفظيع الذي تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة.

وليس هذا الاختلاف لغرض الانسجام الصوتي بين الفواصل وحده، بل هناك أمر حسّن ذلك من حيث المعنى والمقام.

فإن النُّكُر بضمتين أشد وأثقل من النُّكْر بضم فسكون، لما فيه من توالي ثقيلين. ولا شك أن الموقف في سورة القمر أشد وأثقل مما في غيره من المواقف التي ذكر فيها (النُّكْر) بسكون الكاف، ذلك أنه في يوم القيامة يوم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مسرعين رافعي رؤوسهم إلى الداعي.

وهذا المشهد لم تعهد النفوس مثله فظاعة ونكارة ، بخلاف المواطن الأخرى .

فإن قوله تعالى : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف : ٨٧] ليس بهذه النكارة .

فقد قال : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ ولم يقل : (أما من كفر) ، والظالم ليس كافراً بالضرورة ، فقد يكون مسلماً وقد يكون كافراً .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ذكر أنه سوف يعذبه في الدنيا ثم يرد إلى ربه فيعذبه .

ومن المعلوم أنه إذا عُذِّب الشخص أو عوقب على فعلة فقد يرفع العذاب عنه إذا كان مجزياً أو يخفف عنه في الآخرة .

وكذلك قوله في الكهف : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف : ٧٤] فنكر هذا ليس كنكر ما جاء في سورة القمر ، فإن هذا أمر مألوف ومشاهد ، فكم قتلت نفس بريئة من غير حق ، فهذا أمر مشاهد متكرر .

وكذلك قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٨ ـ ٩] فنكارة هذا ليس كنكارة ما في سورة القمر ، ذلك أن هذه العقوبات إنما هي في الدنيا ، فليست نكارتها كما في عذاب الآخرة ، فجعل الوصف أخف مما جاء في سورة القمر الذي لم يعهد له سابقة أو نظير . فهو أمر نُكُر بكل ما في الوصف من نكارة ، فثقّل الوصف في القمر وجعله أنكر وأثقل مما عداه .

فناسب كل تعبير موضعه، وليس للفاصلة فقط.

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

كرر الميزان ثلاث مرات ولم يعد الضمير على الميزان الأول، فلم يقل (ألا تطغوا فيه، ولا تخسروه) وقد يظن ذلك أنه لفواصل الآي. والحق أنه ليس لذلك، وإنما كرر الميزان ثلاث مرات لأن الموازين في هذه الحياة الدنيا ثلاثة وليس واحداً، ولا تصلح الحياة إلا بها جميعاً، فإن فقد واحد منها فسدت الحياة ولم تصلح. والموازين الثلاثة هي:

أ ـ ميزان العقل والفطرة، وهو الميزان الذي وضعه الله في الإنسان، به يزن الأمور ويحاكمها، ويعرف الصحيح من السقيم، والغث من السمين.

ب ـ الميزان الذي أنزله الله إلى الإنسان هو الشرائع والأحكام التي أنزلها الله في كتبه وعلى ألسنة رسله، وهو ما يتعامل به الناس على وفقه، وبه توزن جميع الأعمال وتقبل وترد على أساسها، فبها وحدها تصلح الحياة، ومن دونها لا تستقيم.

ج ـ الميزان الثالث وهو الآلة التي يتعامل بها الناس في حياتهم اليومية من بيع وشراء وما إلى ذلك، ولا يمكن أن تستقيم حياة الناس ومعاملاتهم اليومية من دونها.

فبهذه الموازين الثلاثة جميعاً تستقيم الحياة، فإن فقد ميزان منها فسدت الحياة ولن تصلح. فلا يصلح عود الضمير على الأول لأنها ليست ميزاناً واحداً كما هو بيّن.

٧ ـ قال في سورة هود: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢].

وقال في سورة النمل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ [النمل: ٥].

وقال في سورة الكهف: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣].

فقال في الكهف: ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ فبين جهة الخسارة وهي الأعمال. فجعل (الأعمال) هي الفاصلة ولم يقل (بالأخسرين). ولا شك أن ما قاله في الكهف هو المناسب لفواصل الآي السابقة واللاحقة. ولو قال (بالأخسرين) لم يكن ذلك منسجماً مع الفواصل الأخرى.

غير أن ذلك ليس هو السبب الوحيد لذكر الأعمال، وإنما يعود الأمر إلى سياق الآيات التي وردت فيه الآية. فإن السياق في الكهف إنما هو في ذكر الأعمال أكثر مما في سياق آيتي هود والنمل.

أما في سياق آية هود فلم يرد ذكر للعمل، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ [هود: ١٨ - ٢٢].

وأما في النمل فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ [النمل: ٤ - ٥] ولم يرد في السياق إلا قوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

وأما في الكهف فقد تردد ذكر العمل في السياق في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ

فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١١٠].

فذكر:

١ ـ الأخسرين أعمالاً.

٢ ـ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، ومن معاني السعي العمل، وسعى إذا عمل[(١)].

٣ ـ يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، والصنع هو إجادة العمل.

٤ ـ فحبطت أعمالهم.

٥ ـ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٦ ـ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً.

فناسب ذكر (الأخسرين أعمالاً) في الكهف كما هو واضح.

٨ ـ قال تعالى في سورة الحج: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال في سورة النساء: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

فقد ختم آية الحج بقوله: ﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

وختم آية النساء بقوله: ﴿خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

---

(١) ينظر لسان العرب (سعى).

ولا شك أن فاصلة كل آية منسجمة مع الفواصل التي في سياقها ، غير أنه لم يفعل ذلك لهذا وحده ، بل إن السياق يقتضي ذلك أيضاً .

فإن آية الحج ختمت بـ (كفور) وهو من كفران النعمة أو الكفر بالدين. فإن كان من كفر النعمة فهو مناسب لما تقدم من ذكر الذبائح والإطعام. قال تعالى : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج : ٣٦ ـ ٣٨] .

وهو مناسب أيضاً لما تقدم من قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فإن نقيض الشكر الكفران[1] . . . والكفور يناقض الشكور والشاكر ، قال تعالى : ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، وقال : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] فجعل الكفور بمقابل الشاكر .

فناسبت الفاصلة السياق الذي وردت فيه بهذا المعنى .

وإن كان من معنى الكفر في الدين فتكون الفاصلة مناسبة أيضاً لما تقدمها من قوله تعالى : ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج : ٣٤] فيكون الكفور بمقابل الأمر بالإسلام. ومناسب لما في الآية نفسها وهو قوله : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ فيكون الكفور بمقابل الذين آمنوا الذين يدافع الله عنهم .

وعلى هذا فإن فاصلة الآية تناسب ما قبلها من جهتين :

---

(١) ينظر لسان العرب (كفر) .

كفران النعمة الذي يقابل الشكر ، والكفر في الدين الذي يقابل الإيمان والإسلام .

أما آية النساء فهي في ارتكاب الآثام ، والسياق في الخيانة الآثام .

قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

فقد ذكر طرفاً من آثام هؤلاء المذكورين ، فذكر أنهم يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ، وأنهم يبيتون ما لا يرضى من القول ، وذكر أنهم يكسبون الخطيئة ويرمون بها البريء وما إلى ذلك. فالسياق في الآثام ، وقد ذكر الأثيم وذكر الإثم أكثر من مرة فقال: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ﴾ [النساء: ١١١] ، وقال أيضاً: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٢]، ثم إن الخائن أثيم والخيانة إثم ، فناسب أن يختم الآية بـ (أثيم) ويجعلها الفاصلة .

فناسب كل فاصلة سياقها .

وهناك أمر آخر في التعبير وهو أنه قال في آية الحج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] على وجه العموم والشمول بلفظ (كل).

وقال في آية النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧] بصيغة الإفراد أو المجموعة؛ وذلك لأن آية الحج عامة، وهي لعموم المسلمين، وهي حكم عام لهم.

أما آية النساء فهي في جماعة مخصوصة اكتسبت إثماً، فقد سرقوا طعاماً ورموا بالسرقة غيرهم، فبين الله كذبهم وخيانتهم[1].

فلم يجعل التعبير بصيغة العموم الذي تدل عليه (كل) والله أعلم.

٩ ـ قال تعالى في سورة الكافرون: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] بحذف ياء المتكلم.

وقال في سورة الزمر: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤] فذكر الياء ولم يحذفها، مع أن فواصل آيات الزمر في السياق شبيهة بفواصل آيات سورة الكافرون. فإن قبل آية الزمر: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٣].

ثم تأتي الآية: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [١٤]، وبعدها قوله: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

فما قبل الآية وما بعدها يختلف عن فاصلة الآية الرابعة عشرة، مما يدل على أن الذكر والحذف ليس للفاصلة وحدها، وإنما يكون لأمر معنوي أو بلاغي، سواء ناسب الفواصل أم اختلف عنها.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٢٦٤، القرطبي ٥/ ٣٧٥، تفسير ابن كثير ١/ ٥٥١ ـ ٥٥٣.

والفرق بين الآيتين أن الكلام على الدين في الزمر أطول وآكد مما في سورة الكافرون. فإنه لم يقل في سورة الكافرون إلا ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

في حين قال قبل آية الزمر: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] فذكر أنه مأمور بعبادة الله مخلصاً له الدين، ومأمور أن يبلّغ ذلك بقوله (قل).

وقال في الآية نفسها: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ فذكر أنه مأمور أن يقول إنه يخص الله بالعبادة مخلصاً له دينه.

فكرر عبادة الله والإخلاص في الدين، مما يدل على أن السياق آكد في ذكر الدين والإخلاص فيه، فناسب إظهار ضمير المخلص.

ثم إن سورة الزمر تبدأ بأمر الله لرسوله أن يعبده مخلصاً له الدين، فقد قال في الآية الثانية من السورة: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] وقال بعدها: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] مما يدل على شدة التركيز على عبادة الله والإخلاص في الدين في السورة.

هذا علاوة على أن ضمير المتكلم في سياق آية الزمر أكثر مما في سورة الكافرون كلها. فإن سورة الكافرون ليس فيها أكثر من سبعة ضمائر للمتكلم وهي:

الضمير المستتر في (أعبد) وقد تكررت اللفظة ثلاث مرات، ففيها ثلاثة ضمائر مستترة، والضمير البارز (أنا)، والضمير المستتر في (عابد)، والضمير في (لي)، والضمير المحذوف في (دين).

وأما في سياق آيات الزمر ابتداء من قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٤] ففيها ثلاثة عشر ضميراً للمتكلم ، مع أنه ثلاث آيات ، وهن أقل من سورة الكافرون .

والضمائر هي:

الضمير في (إني) وهو الياء ، والضمير في (أمرت) وهو التاء ، والضمير المستتر في (أعبد) ، والضمير المستتر في (مخلصاً) ، والضمير في (أمرت) في الآية التي تليها ، والضمير المستتر في (أكون) ، والضمير في (إني) ، والضمير المستتر في (أخاف) ، والضمير في (عصيت) ، والضمير في (ربي) ، والضمير في (أعبد) ، والضمير في (مخلصاً) ، والضمير في (ديني) .

ثم من ناحية أخرى أن سورة الكافرون نفي لعبادته ما يعبدون ، فقد قال: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ .

وأما سياق آيات الزمر فهو في عبادة الله والإخلاص لدينه والأمر بذلك .

ومعلوم أن الترك أيسر من الفعل ، فإن عدم فعل الشيء أيسر وأخف من فعله. قال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥] مما يدل على ثقل العبادة. ولذا أمره بالاصطبار ولم يقل (واصبر) ، مما يدل على ثقل العبادة وأنها تحتاج إلى اصطبار لا مجرد صبر .

والحذف أخف من الذكر ، فناسب أن يكون مع الترك ما هو أخف وهو كلمة (دين) بحذف الياء ، وأن يذكر مع الفعل والأمر بفعله ما هو أثقل وهو (ديني) بذكر الياء .

ثم إن النفي إنما هو عدم حصول المنفي ، وإن الإثبات أو الأمر به إنما هو ذكر لوجوده أو إيجاده .

وسورة الكافرون إنما هي نفي ، أي عدم حصول الشيء ، فقد قال: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ ، وقال: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ فحذف الياء ولم يثبتها ، وذلك لعدم إثبات الفعل .

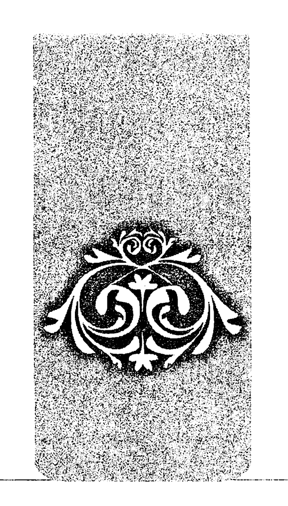
وآيات الزمر في إثبات الأمر وإيجاده ، فقد قال: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ ﴾ ، وقال: ﴿ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ ﴾ فذكر الياء وأثبتها .

قد تقول: ولكنه أثبت في آية الكافرون فقال: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

فنقول: أثبت أن دينهم لهم وأن دينه له ، ومن مقتضيات دينه ما ذكره من هذه المتاركة والمفاصلة في نفي عبادته ما يعبدون .

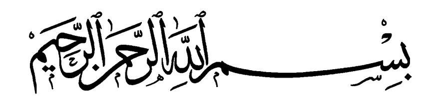
فناسب إظهار ياء المتكلم في آية الزمر دون آية الكافرون من كل جهة ، مع أن فواصل الآيات في السورة والسياق متماثلة .

* * *



تفسير آيات مختارة

من سورتي البقرة والمائدة



البقرة ٦٢ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢].

المائدة ٦٩ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩].

* * *

من النظر في الآيتين نلاحظ ما يأتي :

١ ـ إنه قدم النصارى على الصابئين في آية البقرة ، وأخرهم في المائدة.

٢ ـ عطف (الصابئون) بالرفع في آية المائدة ، وعطفهم بالنصب في البقرة.

٣ ـ ذكر في البقرة: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ولم يذكر مثل ذلك في المائدة ، مع أن المذكورين في المائدة والبقرة أصناف واحدة.

فما السبب في ذلك؟

أما التقديم والتأخير في الصابئين والنصارى ، والرفع والنصب في الصابئين ، فقد ذكرناه في كتابنا (معاني النحو) [1] فلا نعيد القول فيه .

وأما ذكر ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ في البقرة وعدم ذكره في المائدة فذلك لأكثر من سبب :

منها أنه ذم عقائد اليهود والنصارى في المائدة وذم سلوكهم وأطال وفصّل في ذلك .

وأما في البقرة فقد كان الكلام على اليهود فقط . وإن ما ذكره عن اليهود وصفاتهم وذمهم في المائدة أشد مما ذكره في البقرة . فإنه في البقرة ذكر نعمته وتفضله على بني إسرائيل وأنه فضلهم على العالمين فقال : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧] . ولم يذكر مثل ذلك في المائدة .

وذكر في البقرة أيضاً معاصيهم وسوء أفعالهم ، ولكنه ذكر ذلك في المائدة بصورة أشد ، وحتى في ذكر العقوبات التي عاقبهم بها فهي في المائدة أشد مما في البقرة . فقد قال في البقرة مثلاً : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥] .

في حين قال في المائدة : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠] .

فذكر لعنة الله وغضبه عليهم ، وأنه جعل منهم القردة والخنازير ، وأنهم عبدوا الطاغوت وقال : ﴿ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

---

(١) انظر (معاني النحو) ج ١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

ولم يقل مثل ذلك في البقرة ، بل لم يجمع القردة والخنازير فيهم إلا في المائدة.

فكان سياق الغضب في المائدة أشد مما في البقرة. فناسب زيادة تفضله في البقرة على ما في المائدة.

ثم إن جو الرحمة في البقرة أشيع مما في المائدة ، فإنه ذكر الرحمة ومشتقاتها في البقرة (١٩) تسع عشرة مرة ، وذكرها في المائدة خمس مرات ، فناسب ذلك أيضاً زيادة التفضل في البقرة من جهة أخرى.

ثم من ناحية أخرى أن الأجر إنما يكون على قدر العمل ، وقد ذكر من أنواع العمل الصالح واتساعه في سورة البقرة ما هو أكثر بكثير مما ورد في سورة المائدة ، فقد ذكر في المائدة زهاء عشرة أنواع من العمل وهي الوفاء بالعقود والتعاون على البر والتقوى والوضوء وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالاستباق إلى الخيرات والجهاد في سبيل الله والأمر بإطاعة الله ورسوله والإحسان.

وقد ذكرها كلها تقريباً في البقرة وزاد عليها ، فقد ذكر فيها أكثر من ثلاثين نوعاً من العمل الصالح منها الحج والعمرة والصيام والعكوف في المساجد والإحسان إلى الوالدين والأقربين والإصلاح لليتامى والقتال في سبيل الله والاستشهاد في سبيله والهجرة في سبيله والإصلاح بين الناس وأداء الأمانة وإنظار المدين المعسر والوفاء بالعهد وغيرها وغيرها.

فلما زاد العمل واتسع زاد في ذكر الأجر.

ثم لو نظرنا من ناحية أخرى لوجدنا أن مفردات قوله: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ترددت في البقرة أكثر مما ترددت في المائدة.

وهي في السورتين على النحو الآتي:

المفردة	البقرة	المائدة
فلهم: الفاء	٢٦٠	١٠٨
لهم	٢٩	١٥
أجر	٥	١
عند	١٩	١
ربهم	١٠	٢

ثم نضيف إلى ذلك أن قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لم يرد إلا في البقرة وقد ورد فيها أربع مرات.

فوضعها في مكانها الذي هو أنسب لها.

وهذا الأمر ملاحظ في القرآن الكريم، فقد تتشابه آيتان أو تعبيران إلا في مفردة، ثم نلحظ أن كل مفردة من مواطن الاختلاف إنما تتردد في سورتها التي وردت فيها أكثر من الأخرى.

من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى في الأنعام: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وقوله في الأعراف: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

فاختلف التعبيران في (آمن) و(اتقى).

وقد لاحظنا أن الإيمان ومشتقاته ورد في الأنعام (٢٤) أربعاً وعشرين مرةً، وورد في الأعراف (٢١) إحدى وعشرين مرة.

وأن التقوى ومشتقاتها وردت في الأعراف (١١) إحدى عشرة مرة،

ووردت في الأنعام (٧) سبع مرات.

ومن ذلك قوله في (النحل): ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [النحل: ٣٤].

وقوله في (الزمر): ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٥١].

فاختلف التعبيران في (عملوا) و(كسبوا) ولو لاحظت فعل الكسب لوجدته تردد في الزمر (٥) خمس مرات، ولم يرد في النحل البتة.

وإن لفظ العمل ومشتقاته تردد في النحل (١٠) عشر مرات، وتردد في الزمر (٦) ست مرات.

وقوله في (طه): ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١١].

وقوله في (النمل): ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ﴾ [النمل: ٨].

فقال في (طه): (أتاها)، وقال في (النمل): (جاءها).

وذلك أن ألفاظ (الإتيان) في طه أكثر منها في النمل، وأن ألفاظ المجيء في النمل أكثر منها في طه. فقد وردت ألفاظ (الإتيان) في طه (١٥) خمس عشرة مرة، ووردت في النمل (١٣) ثلاث عشرة مرة.

ووردت الفاظ المجيء في طه (٤) أربع مرات، ووردت في النمل (٨) ثماني مرات.

ومن ذلك قوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله في الأنعام: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقد تردد لفظ (الله) في البقرة أكثر مما في الأنعام، وأن لفظ (الرب) تردد في الأنعام أكثر مما في البقرة. فقد ورد لفظ الله (٢٨٢) مائتين واثنتين وثمانين مرة، وتردد في الأنعام (٨٧) سبعاً وثمانين مرة.

ووردت كلمة (الرب) في البقرة (٤٧) سبعاً وأربعين مرة، ووردت

في الأنعام (٥٣) ثلاثاً وخمسين مرة[(١)].

وقد تقول: ألم يرد في البقرة (إن ربك غفور رحيم)؟.

فنقول: كلا فإنه لم يرد ذلك إلا بلفظ (الله)، كما لم يرد في الأنعام إلا بلفظ (الرب) أو بالضمير الذي يعود على لفظ (الرب)، فلم يرد فيها (إن الله غفور رحيم).

وهذا من عجائب التعبير.

هذا علاوة على ما يستحقه السياق في كل موضع وما يقتضيه التعبير.

ونحو هذا كثير.

ثم نأتي إلى قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وهو تعبير في غاية الدقة، ولا يؤدي تعبير آخر مؤداه في أداء المعنى.

فقد نفى الخوف بالصيغة الاسمية، ونفى الحزن بالصيغة الفعلية.

وخصص الحزن بتقديم الضمير (هم)، ولم يخصص الخوف، فلم يقدم الجار والمجرور.

وإليك إيضاح ذلك:

١ ـ قال تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل (لا يخافون) كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وذلك لأنهم يخافون ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وخوفهم من اليوم الآخر مدح لهم. وكل الخلق من المكلفين يخافون

---

(١) انظر التعبير القرآني ٢٨٣.

في ذلك اليوم ، حتى يؤمّن الله من يؤمّن منهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج : ١ ـ ٢] .

فلا يصح أن يقال : (لا يخافون) .

٢ ـ إن معنى ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أنه لا يخشى عليهم خطر أو ليس عليهم خطر . أما هم فقد يكونون خائفين أو غير خائفين . فقد تخاف على إنسان وهو غير خائف ؛ لأنه لا يقدر الخطر أو لا يعلمه أو لا يشعر به ، كالطفل فإنه لا يخاف النار والحية والعقرب ونحن نخاف عليه، فهنا خوف عليه ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص : ٧] .

وقد يكون الشخص خائفاً من شيء وهو في الحقيقة غير مخيف ولا خطر عليه منه ، كالطفل يخشى من لعبة مخيفة .

فالمهم ألا يكون خوف واقعاً عليه .

٣ ـ وقال : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فجعل الحزن بالفعل وأسنده إليهم ، ولم يقل : (لا خوف عليهم ولا حزن) فيكونا على نمط واحد ؛ ذلك لأن المعنى لا يصح ، فإن معنى (لا خوف عليهم ولا حزن) أي لا حزن عليهم ، أي لا يحزن عليهم أحد . فنفى الحزن عن غيرهم ولم ينفه عنهم . فقد يكونون حزينين ولا يحزن عليهم أحد . وهذا غير مُجْدٍ في حقهم ، فإن المهم ألاّ يحزنوا هم .

وقد يكون ذلك القول ، أي (لا حزن عليهم) ذمًّا بحقهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل : ١٢٧] أي لا يستحقون أن يحزن عليهم أحد .

٤ ـ قال : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بتقديم (هم) وذلك لإفادة أنهم لا

يحزنون ، ولكن الذي يحزن هو غيرهم وهم أصحاب الشقوة. فإنه نفى الحزن عنهم وأثبته لغيرهم ، كما تقول (ما أنا فعلت هذا) أي لم أفعله أنا ولكن فعله غيري.

٥ ـ فإن قلت: هلا قيل: (لا عليهم خوف) بتقديم الجار والمجرور كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بتقديم الضمير.

قلنا: هذا لا يصح من حيث المعنى ، فإنه لو قال: (لا عليهم خوف) كان المعنى أنه ليس عليهم خوف ولكن الخوف على غيرهم ، فينفي الخوف عليهم ويثبته لغيرهم ، نظير (ولا هم يحزنون).

وهذا المعنى غير مراد ولا يصح أن يراد ؛ لأن ذلك يقتضي أنه لا يُخاف على المؤمنين ولكن يُخاف على الكفار.

ولكن من الذي يخاف على الكفار وهم مغضوب عليهم من الجميع؟

إنه لا أحد يخاف عليهم.

فلا يصح أن يقال (لا عليهم خوف) كما قال: (ولا هم يحزنون).

٦ ـ وقد نقول: وما الفرق بين (لا خوفٌ عليهم) برفع الخوف ، والقول (لا خوفَ عليهم) بالبناء على الفتح؟.

فنقول: إن البناء على الفتح يفيد نفي الجنس تنصيصاً. والرفع يفيد نفي الجنس على الراجح ويحتمل نفي غير الجنس ، والسياق قد يعيّن أحد المعنيين.

والسياق هنا دل على نفي الخوف تنصيصاً من أكثر من ناحية. فإن المقام مقام مدح من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإذا كانوا لا يحزنون فإن معنى ذلك لا خوف عليهم ؛ لأن الشيء يكون مخوفاً قبل أن يقع ، فإن وقع الشيء المخوف صاحبه

الحزن. فنفي الحزن يعني نفي الخوف عليه.

فدلت القرائن على نفي الخوف تنصيصاً فأدت ما أفادته (لا) النافية للجنس. هذا إضافة إلى أن ثمة قراءة متواترة بالبناء على الفتح وهي قراءة يعقوب، فدلت القراءتان على نفي الجنس تنصيصاً وبالقرائن.

ثم إن الرفع هنا أفاد معنى آخر لا تفيده النافية للجنس، ذلك أن قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بالرفع أفاد معنيين: كون حرف الجر متعلقاً بالخوف، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ وقولك: (أخاف عليك الذئاب) فيكون الخبر محذوفاً. وهذا من مواطن الحذف الكثير والشائع.

ويحتمل أن يكون الجار والمجرور (عليهم) هو الخبر متعلقاً بمحذوف، ونظير ذلك أن تقول: (الجلوس في الصف) فإنه يحتمل أن تعلق الجار والمجرور بالمبتدأ ويكون الخبر محذوفاً على تقدير (مطلوب أو نافع أو مهم) أو نحو ذلك.

كما يحتمل أن يكون تعلق الجار والمجرور بمحذوف فيكون هو الخبر، أي الجلوس كائن في الصف.

فجمع الرفع في الآية بين معنيين محتملين أحدهما (لا خوف عليهم من أي مكروه، أو من أي شيء، أو من أي محذور، أو من أي جهة) ونحو ذاك.

والآخر: لا خوف واقع عليهم أو حالّ عليهم ونحو ذلك.

وأما (لا خوفَ عليهم) بالبناء على الفتح فهو يفيد المعنى الثاني نصًّا، أي أن الجار والمجرور (عليهم) خبرها قطعاً. ولا يصح أن يكون متعلقاً بالخوف؛ لأنه لو كان كذلك لقيل بالنصب لا بالبناء أي (لا خوفاً عليهم) فيكون من الشبيه بالمضاف، والخبر عند ذاك يكون محذوفاً قطعاً. ونظير ذلك قولنا: (لا بائعَ في الدار) و(لا بائعاً في الدار) فالجملة الأولى نفت

أن يكون في الدار بائع سواء كان يبيع في الدار أم في غيرها. وأما الثانية أي (لا بائعاً في الدار) فإنها نفت وجود بائع يبيع في الدار، وقد يكون هناك بائع ممن يبيعون خارج الدار.

فالرفع أفاد معنيين ـ كما ترى ـ.

فيكون هذا التعبير أعدل تعبير وأصلحه وأبلغه.

ثم إنه نفى الخوف والحزن الثابت والمتجدد.

فقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ نفى الخوف الثابت.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ نفى الحزن المتجدد.

ونفي الحزن المتجدد يعني نفي الخوف؛ لأن الخوف إذا وقع المخوف منه حزن الشخص لذلك.

فنفي الحزن المتجدد نفى الخوف المتجدد، ونفي الخوف الثابت نفى الحزن الثابت.

وبذلك انتفى الخوف والحزن الثابت والمتجدد.

فإن قلت: هلا قيل: (لا خوف عليهم ولا حزن لهم) فتكون الجملتان اسميتين دالتين على الثبوت؟

قلنا: إن القول (لا حزن لهم) ينفي الحزن عنهم ولا يثبته لغيرهم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ذهب كثير من أهل اللغة أن قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جملة اسمية، وهي تفيد نفي الحزن على جهة الثبوت.

ولا نذهب إلى هذا؛ لأن الفعل هو الذي يفيد الحدوث والتجدد، والاسم يفيد الثبوت. وقوله: (ما هو يقرأ) يختلف عن قولنا: (ما هو قارئ).

فإن قلت: هلا قيل: (ولا لهم حزن) ليفيد نفي الحزن عنهم ويثبته لغيرهم؟

قلنا: إذا قيل ذلك ذهب التنصيص على الجنس ؛ لأنه يجب إهمال (لا) ويجب رفع الحزن.

هذا إضافة إلى أن هذا لا يفيد نفي الحزن المتجدد ، بخلاف قوله تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فإنه أفاد نفي الثابت والمتجدد. والله أعلم.

* * *

من سورتي البقرة وإبراهيم



* قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

* وقال في سورة إبراهيم: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ [إبراهيم: ٣١].

ومن النظر في النصين يتبين ما يأتي:

١ ـ إنه قال في البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

وقال في إبراهيم: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [إبراهيم: ٣١] بذكر (قل) وبزيادة (العباد) على ما في البقرة.

٢ ـ قال في البقرة: ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾.

وقال في إبراهيم: ﴿ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ ﴾ فذكر إقامة الصلاة إضافة إلى الإنفاق.

٣ ـ قال في إبراهيم: ﴿ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾.

ولم يقل مثل ذلك في البقرة.

٤ ـ ذكر الشفاعة في البقرة ولم يذكرها في إبراهيم.

٥ ـ قال في البقرة: ﴿ وَلَا خُلَّةٞ ﴾.

وقال في إبراهيم: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

فما سر هذا الاختلاف؟.

والجواب أن سياق كل تعبير اقتضى ما هو فيه:

١ ـ أما ذكرُ القول في إبراهيم دون البقرة فلأنه تردد التبليغ فيها على لسان الرسل، ولم يرد تبليغ مباشر من الله أو نداء مباشر للمؤمنين أو لغيرهم فيها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١].

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وأما في البقرة فقد ورد الخطاب المباشر من الله تعالى إلى عباده، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وليس في إبراهيم نداء مباشر من الله إلى الذين آمنوا أو غيرهم.

فناسب القول في آية إبراهيم، والنداء المباشر في آية البقرة.

وأما زيادة العباد على الذين آمنوا في إبراهيم فلأنه زاد الصلاة على الإنفاق، فلما زاد في العبادة زاد في ذكر العباد.

٢ ـ قال في البقرة: ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾.

وقال في إبراهيم: ﴿ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ ﴾.

فزاد في إبراهيم إقامة الصلاة؛ لأنه قال بعدها: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾، وقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

وذكر الإنفاق في البقرة ولم يذكر الصلاة؛ لأن الآية وقعت في سياق الإنفاق وليس في سياق الصلاة، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٦١ ـ ٢٧٠] ويستمر الكلام ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

ولم يرد ذكر للصلاة في السياق ، فناسب ذكر الإنفاق في البقرة ، وذكر الصلاة والإنفاق في إبراهيم .

٣ ـ قال في إبراهيم : ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لأنه قال بعدها : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ .

٤ ـ قال في البقرة : ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ لأنه قال بعدها : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

٥ ـ قال في البقرة: ﴿ وَلَا خُلَّةٌ ﴾.

وقال في إبراهيم: ﴿ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾.

والخُلَّة هي الصداقة وجمعها خِلال.

والخِلال أيضاً مصدر (خالّ) وهي المصادقة.

فالخِلال تحتمل أن تكون جمع (الخُلّة)، وتحتمل أن تكون مصدر (خاللت)[1] أيضاً الدال على المشاركة. وقد جاء بها بالجمع أو بالمصدر الدال على المشاركة؛ لأنه ذكر في آية إبراهيم ما زاد على آية البقرة:

١ً ـ فقد قال في إبراهيم: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [إبراهيم: ٣١] فزاد كلمة (عبادي) على ما في البقرة.

٢ً ـ وقال فيها أيضاً: ﴿ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٣١] فزاد إقامة الصلاة على ما في البقرة، فجمع بين الصلاة والإنفاق.

٣ً ـ وقال في إبراهيم: ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ فزاد السر والعلانية على ما في البقرة، فاقتضى ذلك الزيادة في معنى الخلّة. فالخلّة مفرد و(الخِلال) جمع، والجمع أكثر من المفرد.

وإن كانت كلمة (خِلال) بمعنى المصدر فهي تدل على المشاركة، فهي أكثر وأشمل من الخلة.

إن كلمة (الخِلال) تحتمل معنيين في السياق، أما (الخُلّة) فلها معنى واحد، فزاد معناها على معنى الخلة وشمل أكثر من معنى.

فناسب ذكر الخلال في إبراهيم دون البقرة.

---

(١) انظر لسان العرب (خلل).

هذا إضافة إلى أمور أخرى تقتضي ذكر الخلال في إبراهيم ، منها أنه جرى فيها ذكر الموالاة والتبع ، وهذه من المخالاّت. فقد قال: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ [إبراهيم : ٢١].

وذكر موالاة الشيطان فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ ﴾ [إبراهيم : ٢٢].

وقال على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال: ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] والأصل أن يكون مع الشخص وقومه خلال وصدقات.

والقوم جمع فناسب جمع الخلة.

فناسب ذلك ذكر الخلال والصداقات في إبراهيم ، والخلة في البقرة.

٦ ـ قال في خاتمة آية البقرة: ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

ولم يختمها بمثل ذلك في إبراهيم واكتفى بالكلام على اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلال ، ذلك أن آية البقرة سبقها الكلام على الكافرين ، قال تعالى: ﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فناسب ذلك ذكر الكافرين وأنهم هم الظالمون.

في حين كان سبقها الكلام في إبراهيم على جهنم ، قال تعالى:

﴿ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٣٠].

فناسب ذلك الكلام على اليوم الآخر في إبراهيم.

واختار البيع على الشراء في الآيتين؛ لأن البيع هو مظنة الربح، وهو الذي يأتي بالربح. أما الشراء فإن المشتري وإن اشترى بضاعة يراها مربحة فإنه يراها كذلك فيما إذا باعها.

وقدم البيع لأنه مظنة الربح ـ كما ذكرنا ـ وهو لمنفعة الشخص ذاته، ثم ذكر بعده الخلة وهي الصداقة، وتأتي بالمرتبة الثانية بعد النفس، ثم ذكر الشفاعة بعدها، وهي تأتي بعد الصداقة؛ إذ ليس من اللازم أن يكون الشفيع صديقاً لمن يشفع له.

فالشفيع قد يكون صديقاً وقد يكون من المعارف، بل قد يكون بعيداً طُلب منه أن يكون شفيعاً لدفع ضرر أو جلب منفعة أو نحو ذلك. ومن أمثلة ذلك شفاعة أسامة بن زيد عند رسول الله في المخزومية التي سرقت.

والشفيع في العادة تكون له منزلة ومكانة أعلى من المستشفِع له عند من يشفع عنده.

والخلة أدوم من الشفاعة؛ إذ إن الشفاعة تختص بالأمر الذي يشفع فيه وينتهي بانتهائه سلباً أو إيجاباً، بخلاف الخلة فإنه أدوم منها وأثبت ولذلك قدمها عليها. والله أعلم.

* * *

آية الكرسي



﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

بدأت الآية بالتوحيد ونفي الشرك ، وهو المطلب الأول في العقيدة وذلك قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وورد ذلك عن طريق الإخبار عن (الله) ، فـ (الله) مبتدأ ، وأخبر عنه بما ينفي الشرك ويثبت التوحيد وهو قوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

ثم إن كل جملة في الآية تصلح أن تكون خبراً عن الله. فقوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ، وقوله: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ إلى آخر جمل الآية ، كل منها يصلح أن يكون خبراً عن (الله) الذي هو المبتدأ.

فالآية تدور على الله وصفاته ، فهي سيدة آي القرآن.

(الحي): الكامل الاتصاف بالحياة.

(القيوم): صيغة مبالغة للقيام. ومن معاني (القيوم): القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم ، والقائم على كل شيء ،

والحافظ لكل شيء[١] ، والقائم بذاته ، والدائم القيام بتدبير الخلق ، الذي لا ينعس ولا ينام ، فإن «من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً» [٢] .

وقد عرّف الاسمين للدلالة على القصر والكمال فقال: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ ﴾ ولم يقل (هو حي) فيكون من جملة الأحياء ، وإنما هي الحي ، فلا حي في الحقيقة غيره ، إذ كل حي سواه يجوز عليه الموت . وهو الذي يفيض على الأحياء بالحياة ، ولولا هو لم تكن في الوجود حياة .

وهو (القيوم) ، ولم يقل (قيوم) فيشترك معه غيره في القيومية ، فلا قيوم سواه .

﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ .

السِّنة هي النعاس ، وهي ما يتقدم النوم . جاء في (الكشاف): «السِّنة ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس . . . أي لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم ؛ لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً» [٣] .

وقدم السِّنة على النوم لأنها أسبق منه ، فالنعاس يسبق النوم .

وجاء بـ (لا) الثانية فقال: ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ ولم يقل: (لا تأخذه سنة ونوم) للدلالة على أنه لا يكون واحد منهما . ولو حذف (لا) لاحتمل نفي الجمع وأنه قد يقع أحدهما . فجاء بـ (لا) لنفي كل منهما على سبيل الانفراد أو الجمع .

---

(١) انظر لسان العرب (قوم) ، روح المعاني ٣/ ١٢ ، تفسير الرازي ٧/ ٩ .
(٢) الكشاف ١/ ٣٨٤ .
(٣) الكشاف ١/ ٣٨٤ .

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

(ما) تدل على ذات ما لا يعقل وعلى صفة العاقل وذلك كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس ٧ ـ ٨] والذي سواها هو الله. فقال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليشمل العقلاء وغيرهم، ولم يقل (من) فيخص العقلاء وحدهم.

وقدم الجار والمجرور (له) للحصر، فدل على أن ذلك هو ملكه حصراً ولا يشاركه في ذلك أحد. وكرر (ما) للدلالة على الإحاطة والشمول لما فيهما.

وذكر ذلك بعد قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ للدلالة على أنه قائم بأمر ملكه هو، ويدل ذلك على كمال القيومية. فإن الذي يقوم بتدبير ملكه ليس كمن يقوم بالنظر في ملك غيره.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

«بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨]»[1].

فدل هذا على ملكه وحكمه وكبريائه في الدنيا والآخرة. فقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يشمل الدنيا ولا يخصها.

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ ظاهره أنه في الآخرة، فدل ذلك على ملكوته وكبريائه فيهما.

والمعنى لا يشفع أحد إلا بإذنه، ولكنه أُخرج مخرج الاستفهام

---

(١) الكشاف ١/ ٢٩١.

الإنكاري ، وذلك أقوى من النفي .

ودل قوله هذا على أنه حي قيوم ، فإن الذي يُسْتَشفَع عنده ويأذن بالشفاعة إنما هو حي .

والذي لا يستطيع أحد مهما بلغ أن يشفع عنده إلا بإذنه إنما هو القائم على كل شيء .

وقد تقول : ولم قال : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ ﴾ بزيادة (ذا) مع (من) ولم يقل : من الذي؟ .

والجواب : أن (من ذا) تحتمل أن تكون كلمة واحدة بمعنى (من) مع زيادة في التوكيد ، وتحتمل أن تكون كلمتين : (من) الاستفهامية مع اسم الإشارة (ذا) ، والمعنى : من هذا؟ .

فإن كانت كلمة واحدة فهي أقوى من (من) وآكد ؛ وذلك لزيادة مبناها[1] . والمقام به حاجة إلى توكيد ، فإنه لا يمكن لأحد أن يشفع إلا بإذنه ، ومن هذا الذي يفعل؟ .

وإن كانت (ذا) اسم إشارة فالمعنى : من هذا الذي يشفع؟ .

وقد تقول : ولم لم يقل (من هذا الذي يشفع)؟ كما قال في سورة الملك مثلاً : ﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك : ٢٠ ـ ٢١] .

والجواب : أن (ها) التنبيه تدخل على اسم الإشارة للتنبيه والتوكيد . والمقام في آيتي الملك أدل على التحدي ، وهو أشد وأقوى مما في آية الكرسي ، فإن الكلام فيهما في خطاب الكافرين ، وليس كذلك سياق آية الكرسي .

---

(١) انظر معاني النحو (باب الاستفهام) ـ الجزء الرابع .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن مقام آية الكرسي مقام شفاعة ، ومقام آيتي الملك مقام نصر ورزق ، ومقام الشفيع يختلف عن موقف الناصر .

«فقد قال في آية الكرسي : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والشفيع طالب حاجة مرتجٍ قضاءها ، عالم بأن الأمر بيد من هو أعلى منه . فهو متلطف بسؤاله .

في حين قال في سورة الملك : ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠ ـ ٢١].

وهذا ـ كما ترى ـ موقف ندّ وليس موقف شفيع . فالناصر من دون الرحمن والرازق إن أمسك الرحمن رزقه لا يكون إلا ندّاً لله سبحانه ، تعالى الله عن الند ، ولا يمكن أن يكون هذا لغير الله . ولذا سأل رب العزة قائلاً : من هذا الناصر الرازق من دوني؟ فزاد التنبيه .

هذا علاوة على ما في هذا من السخرية من إله لا يعرفه رب العالمين .

فأنت ترى أن السياق في آية الملك يقتضي زيادة التنبيه ، بخلاف آية البقرة» [١] .

هذا إضافة إلى أن التعبير في آية الكرسي كسب معنيين : قوة الاستفهام ومعنى الإشارة ، فأصبح المعنى : من الذي يشفع؟ ومن هذا الذي يشفع؟ ولا يؤدي أي تعبير آخر هذين المعنيين . فلو قال : من الذي يشفع لفات معنى الإشارة ، ولو قال : من هذا الذي يشفع لفاتت قوة الاستفهام التي تؤدى بـ (من ذا) [٢] والله أعلم .

---

(١) التعبير القرآني ١٢٤ .
(٢) التعبير القرآني ١٢٤ .

﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ ﴾ .

أي: يعلم ما أمامهم وما وراءهم ، والمقصود إحاطة علمه سبحانه بأحوالهم وأمورهم الماضية والمستقبلة ، وهو يعلم بأحوال الشافع ، والدافع الذي يدفعه إلى طلب الشفاعة ، ويعلم أحوال المشفوع له ، وهل يستحق أن يستشفع له ، فله كامل العلم ، ولا يأذن إلا عن كمال العلم .

قد تقول لقد قال في سورة مريم: ﴿ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٤] فذكر الملك ، وهنا في آية الكرسي ذكر العلم ، فما سبب هذا الاختلاف؟ .

فنقول إن سياق آية مريم في الملك ، فقد قال قبلها: ﴿ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٢ ـ ٦٣] .

وقال بعدها: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ ﴾ [مريم: ٦٥] فذكر أنه يرزق أهل الجنة بكرة وعشيًّا ، وذكر أنه يورث الجنة من كان تقيًّا ، والذي يرزق إنما هو مالك ، والذي يورث إنما هو مالك .

وقال: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ وربهما يعني مالكهما ، فهي قد وقعت في سياق الملك .

وأما في آية الكرسي فقد وقع قوله هذا في سياق العلم ؛ إذ جاء بعده قوله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ .

فناسب كل تعبير موطنه .

هذا إضافة إلى أنه ذكر الملك أيضاً في آية الكرسي ، فقد قال قبلها: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ .

فذكر فيها العلم والملك .

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ .

قوله: (بما شاء) يحتمل أن تكون (ما) فيه مصدرية، أي بمشيئته، ويحتمل أن تكون اسماً موصولاً، أي بالذي يشاؤه، فهو قيوم على علمهم.

فجمع بهذا التعبير المعنيين: أي لا يحيطون بذلك إلا بمشيئته وبالذي يشاؤه.

ودل هذا على أن من سواه لا يعلم شيئاً إلا ما أراده الله وبالقدر الذي يشاؤه قيوم السماوات والأرض، وأنهم لا يعلمون حتى أنفسهم ولا البديهيات لولا مشيئة الله؛ لأن ذلك من علمه، وأنهم لا يحيطون بشيء من ذلك إلا بالذي يشاؤه نوعاً ومقداراً.

قد تقول: لقد قال في سورة طه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] فنفى الإحاطة بذاته.

وقال في آية الكرسي: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ فنفى الإحاطة بشيء من علمه، فما سبب ذاك؟.

فنقول: إن آية طه جاءت بعد ذكر العجل الذي اتخذه بنو إسرائيل إلهاً. ولا شكّ أنهم أحاطوا بذلك الإله علماً، فهم صنعوه بأيديهم من الذهب. أما الله تعالى فلا يحاط به علماً، فنفى الإحاطة بذاته سبحانه، واما ما في آية الكرسي فهو في سياق العلم كما ذكرنا.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

دل قوله هذا على أنهما من ملكه. فقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دل على أن ما فيهما ملكه، وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ دل على أن السماوات والأرض ملكه، فدل ذلك على أن السماوات والأرض وما فيهما ملكه.

ودل ذلك على أن ملكه أوسع من ذلك بكثير ، وأنه لا يحاط بملكه علماً ، فالسماوات والأرض وما فيهما وسعهما كرسيه ، وهما فيه كحلقة في فلاة .

وقال : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ ولم يقل (يسع) ليدل على أنه وسعها فعلاً ، ولو قال : (يسع) لكان إخباراً عن مقدار السعة وإن لم يكن حاصلاً ، وذلك كما تقول : (تسع داري ألف شخص) فإن ذلك لا يدل على أنها حل فيها هذا العدد فوسعتهم ، بخلاف قولك : (وسعت داري ألف شخص) ، فإن ذلك يدل على أن الأمر حصل .

﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ .

أي لا يثقله ولا يجهده . وهذا يدل على كمال القيومية والقدرة .

وجاء بـ (لا) الداخلة على المضارع لإفادة الإطلاق ، وأن هذا على وجه الاستمرار في الحال والاستقبال .

﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

العليّ من العلو الذي هو بمعنى القدرة والسلطان والملك وعلو الشأن والقهر والاعتلاء والجلال والكبرياء .

وهو المتعالي عن الأشباه والأنداد والأمثال[١] .

فهو العلي عن الحقيقة ولا عليّ سواه ، وهو العظيم على الحقيقة ولا عظيم سواه .

والملاحظ أنه ورد وصف الله بهذين الوصفين الكريمين في موضعين من القرآن الكريم كلاهما في ملك الله للسماوات والأرض ، أحدهما في هذه الآية وهو قوله : ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، والآخر في قوله

---

(١) انظر روح المعاني ٣/ ١٧ .

في الشورى: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

والملاحظ أن آية الكرسي ذكرت في بدايتها اسمين من أسماء الله الحسنى وهما (الحي القيوم) وانتهت باسمين من أسمائه وهما (العلي العظيم). وكل جملة من جمل الآية تدل على أنه الحي القيوم، وأنه العلي العظيم.

فالذي لا إله إلا هو هو الحي القيوم؛ لأن الإله ينبغي أن يكون حيًّا وأن يكون قيوماً على عباده.

والذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الحي القيوم.

والذي له ما في السماوات وما في الأرض هو الحي القيوم، فإن المالك حي، وإن الذي له كل ذلك لا بد أن يدبر أمر ما يملك ويقوم بحفظه ورعايته وذلك من معاني القيوم.

وإن الذي لا يشفع عنده إلا بإذنه هو الحي القيوم، فإن الذي يُستشفع عنده ويأذن بالشفاعة هو حي، وإن الذي لا يُفعل ذلك إلا بإذنه هو القيوم على كل ما يحدث في ملكه.

وإن الذي يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء حي قيوم.

وإن الذي وسع كرسيه السماوات والأرض حي قيوم.

وإن الذي لا يؤوده حفظهما حي قيوم.

والعلي العظيم هو حي قيوم.

فدلت كل جملة من جمل الآية على أنه هو الحي القيوم.

كما أن كل جملة من الآية تدل على أنه علي عظيم، بل على أنه العلي العظيم.

فالذي لا إله إلا هو ، هو العلي العظيم .

وأن الذي لا تأخذه سنة ولا نوم علي عظيم .

والذي له ما في السماوات وما في الأرض هو العلي العظيم .

والذي لا يشفع عنده إلا بإذنه علي عظيم .

والذي يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم علي عظيم .

والذي لا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء علي عظيم .

والذي وسع كرسيه السماوات والأرض هو العلي العظيم .

وإن الذي لا يؤوده حفظهما هو العلي العظيم .

فكل جملة من جمل الآية تدل على أنه حي قيوم ، علي عظيم ، بل على أنه الحي القيوم ، والعلي العظيم .

ومن الملاحظ في الخط التعبيري لهذه الآية أنها تذكر من الأشياء اثنين اثنين .

فقد بدأها بصفتين من صفات الله هما : الحي القيوم .

وذكر اثنين من النوم وهما : السنة والنوم .

وذكر (لا) مرتين .

وذكر اثنين من ملكه هما ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وكرر (ما) مرتين .

وذكر اثنين من علمه ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .

وكرر (ما) مرتين .

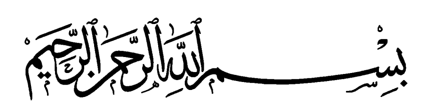
وكرر اثنين مما وسعه الكرسي ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

وختم الآية بصفتين من صفاته هما : العلي العظيم .

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ورد في موطنين: أحدهما في هذه الآية، والموطن الآخر في آل عمران وهو قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ والعلي العظيم وردا مرتين في هذه الآية، وفي الشورى في الآية الرابعة.

* * *

من سورة الإسراء



﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

* * *

لقد حُفَّت سورة الإسراء بالتسبيح والتحميد ، فقال سبحانه في بداية السورة التي قبلها: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١].

وقال في بداية السورة التي بعدها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف: ١].

وكما حُفت السورة بالتسبيح والتحميد حُفّت آياتها بالتسبيح والتحميد ، فابتدأت بقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾ ، وختمت بقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ .

وسبقت بالمعية من الله وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

وأعلى المعية أن يُعرج به إليه ، إذ لا معية أعلى من ذلك ، فدل ذلك على أنه ﷺ أعلى الذين اتقوا وأعلى الذين هم محسنون. فلا متقي أعلى منه ، ولا محسن أعلى منه ، فاستحق أعلى المعية.

وبعد هذه المقدمة الوجيزة نود أن نبين شيئاً من الأسرار التعبيرية في هذه الآية المباركة:

١ ـ بدأت السورة بقوله (سبحان) وهو علم على التسبيح، أو اسم مصدر بمعنى التسبيح.

وقد ورد التسبيح في القرآن الكريم بصور شتى؛ إذ ورد بالفعل الماضي نحو ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وبالفعل المضارع نحو ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ وبفعل الأمر نحو ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ وبالمصدر أو اسمه وهو (سبحان) [1]، وذلك ليشمل كل أحوال التسبيح.

وإنما جاء به بمعنى المصدر من غير ذكر لفاعل التسبيح، ومن غير تقييد بزمن معين لغرض الإطلاق، أي إنه أهل التسبيح ومستحقه، سواء كان هناك من يسبحه أم لا.

وهذا مما يفيده المصدر، فإن المصدر لا يدل على زمن معين، بخلاف الفعل، ولا يقتضي فاعلاً معيناً، فإنه يدل على الحدث المجرد، فدل ذلك على الإطلاق.

إن افتتاح السورة بالتسبيح طبعها بجو التسبيح إلى حد كبير وشاع فيها ذلك، من ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [٤٣].

وقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [٤٤].

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [٤٤] وهو أعظم إطلاق في التسبيح، فناسب هذا الإطلاق الإطلاق في أول السورة.

وقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

---

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني) ج ١/ ٢٧٧.

وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٨].

ولا أعلم سورة تماثلها في شيوع التسبيح وكثرته. ولعل ذلك إشارة إلى نقله إلى عالم مليء بالتسبيح.

٢ ـ وقال: (بعبده) ولم يقل: (بمحمد) ولا (برسوله) مثلاً، ليدل على أن الإنسان مهما عظم لا يعدو أن يكون عبداً لله. ولا ينبغي لأحد أن يتعالى ويدّعي أنه أرفع من سائر العباد وأعلى منهم، ولا يدّعي مقاماً فوق الخلق. فإن أعظم الخلق إنما هو عبد لله، ولئلا يعظَّم ﷺ على غير ما ينبغي ويُدَّعَى له غير مقام العبودية كما فُعل بغيره من الأنبياء والصالحين.

وللدلالة من جهة أخرى على أن أعلى مقام للخَلْق هو مقام العبودية لله، وأنه أعلى وسام ينعم الله به على الفرد، قال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣]، وقال في أيوب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤].

ألا ترى أنه لما ذكر موسى عليه السلام عند المناجاة باسمه فقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] كانت عاقبة ذلك أن خر موسى صعقاً.

ولما ذكر محمداً بصفة العبودية عرج به إلى السماوات العلى إلى سدرة المنتهى؟.

ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال في موسى مثلاً: (ولما جاء عبدنا موسى لميقاتنا) فينسبه إلى نفسه ثم يصعقه؟.

ثم أضاف محمداً إلى نفسه فقال: (بعبده) وهو تكريم آخر، وهو نظير قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠] وفيه تشريف وحفظ له

من كل سوء ، فإن السيد يحمي عبده ويحفظه .

٣ ـ وقال : (ليلاً) مع أن الإسراء لا يكون إلا في الليل للدلالة على أن الأمر كله إنما تم واكتمل ليلاً فقط ، فأكد ذلك لأن الإنسان لا يصدّق بأن كل ما حدث يمكن أن يحدث ليلاً ، فأكده للدلالة على أنه حدث في جزء من الليل ، وهذا ما يسمى بالظرف المؤكد .

وقال : (ليلاً) بلفظ التنكير لبيان «تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسري به بعض الليل من مكة إلى الشام»(١) .

جاء في (روح المعاني) : «إن الليل والنهار إذا عُرِّفا كانا معياراً للتعميم وظرفاً محدوداً ، فلا تقول : (صحبته الليلة) وأنت تريد ساعة منها ، إلا أن تقصد المبالغة ، كما تقول : (أتاني أهل الدنيا) لناس منهم ، بخلاف المنكّر ، فإنه لا يفيد ذلك . فلما عدل عن تعريفه هنا علم أنه لم يقصد استغراق السرى له»(٢) .

فدل بلفظ التنكير على أن الإسراء إنما تم في جزء من الليل ، ولو عرّف الليل لكان المعنى أن الإسراء إنما استغرق الليل كله ، كقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٠] .

٤ ـ وقال : ﴿ مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ فذكر مبدأ الإسراء ولم يغفله ؛ للدلالة على قدرته تعالى بأن أسرى به من هذا المكان إلى المسجد الأقصى ، وهي مسافة ستة أشهر ذهاباً وإياباً في جزء من الليل .

وفي ذلك أيضاً دلالة شرعية كما يبدو ، فإن كثيراً من العلماء على أن الإسراء إنما كان من بيت أم هانئ ، فاختة بنت أبي طالب ، وهذا البيت إنما هو خارج المسجد الحرام ، وإنما سماه الله (المسجد الحرام) ليدل

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٦ ، وانظر تفسير الرازي ١٩/ ١٤٨ .
(٢) روح المعاني ١٥/ ٧ ـ ٨ .

على أن مكة كلها حرم ، وأن ما يدخل منها في المسجد بسبب التوسعة إنما هو من المسجد الحرام له حرمته.

٥ ـ وقال: ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ ولم يكن ثمة مسجد آنذاك للدلالة على أن ذلك سيكون.

٦ ـ وقال: ﴿ بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ بإسناد فعل المباركة إلى ذاته العلية ، ولم يقل: (بورك حوله) كما قال في مكان آخر: ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل: ٨] للدلالة على عظم هذه المباركة ، وأن الذي بارك حوله إنما هو الله وليست جهة أخرى. وللدلالة على تعظيم هذا المكان. والله يسند الأفعال إلى نفسه في مقام التعظيم.

وقال: ﴿ بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ ولم يقل: (باركناه) لتشمل المباركة كل ما حول المسجد ولا تنحصر في المسجد.

وقد تقول: ولمَ لم يذكر مباركة المسجد؟.

والجواب: إنه إذا كان ما حول المسجد مباركاً فإن مباركة المسجد أولى. فإن مباركة ما حول المسجد إنما كانت بسبب المسجد ، ويكفيه بركة أنه سماه مسجداً قبل أن يكون ، والمساجد هي بيوت الله ، وقد جعلها الله له خالصة فقال: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]. وأضافها إلى نفسه فقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨]. وهي أحب البقاع إلى الله كما في الحديث.

وكما أن الطواف حول البيت يدل على تعظيم البيت فإن المباركة حول المسجد تدل على تعظيم المسجد. قال زهير بن أبي سلمى:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجالٌ بنوه من قريش وجرهم

فدل بالطواف حوله على تعظيمه والإقسام به.

وقد أطلق المباركة ولم يقيدها ، فلم يقل مثلاً: (باركناه بكذا) لتشمل

المباركة المعنوية والروحانية والمادية.

فالمباركة المعنوية والروحانية بإرسال الرسل فيه.

والمباركة المادية بما أودع الله فيه من خير ورزق.

وقال: ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ولم يقل: (باركنا ما حوله) لئلا تكون المباركة في أشياء مادية وذوات معينة، فإن ذهبت أو زالت ذهبت البركة معها. فقال: ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ فكانت المباركة حول المسجد، وهي مباركة ثابتة لا تزول؛ لأن المسجد لا بد أن يكون حوله شيء على الدوام. فالظرفية ملازمة للمسجد، والمباركة ملازمة للظرفية.

٧ ـ وقال: ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ و﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ ملتفتاً إلى التكلم بعد الغيبة.

فإنه كان المظنون أن يقول: (الذي بارك حوله) و(ليريه) فعبر بأسلوب الالتفات، ليدل على أن المتكلم هو الله وليس إخباراً عن الله.

٨ ـ وقال: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ ليدل بذلك على أن أفعاله معللة لا تكون إلا لغاية يبينها أو يخفيها، وأن هناك منهجاً لهذه الرحلة.

٩ ـ وقال: ﴿مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ ولم يقل: (آياتنا) ليدل على أنه أراد أن يريه بعضاً من آياته، كما قال في موطن آخر: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨].

١٠ ـ وقال: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ بإسناد الإراءة إلى نفسه، ولم يقل: (ليَرى) أو (ليُرى) بالبناء للمجهول؛ للدلالة على شدة الاحتفاء به ﷺ، وأنه تعالى هو الذي يريه ما أراد من الآيات بعلمه، ولم يقل (ليُرى) فلم يحدد من يُريه.

وأضاف الآيات إلى نفسه، ولم يقل (من الآيات)، للدلالة على عظم هذه الآيات.

١١ ـ وقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فرجع إلى الإفراد بعد أن كان الكلام بصيغة الجمع الدالة على التعظيم؛ وذلك ليدل على أنه واحد منزّه عن الشرك. وهذا أسلوب قرآني مطّرد. فإنه سبحانه إذا ذكر نفسه بصيغة الجمع ذكر بعده أو قبله ما يدل على الإفراد.

١٢ ـ وقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ولم يقل: (إنه سميع بصير) للدلالة على أنه الكامل فيهما، وأن ذلك مختص به سبحانه.

١٣ ـ وقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وكان المظنون أن يأتي بما يدل على القدرة فيقول مثلاً: (إنه على كل شيء قدير)؛ وذلك لأنه ذكر ما يدل على القدرة وهو قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾.

فنقول: إن ما ذكره أولى، ذلك أنه ذكر ما يدل على القدرة فيما سبق، فلو قال ذلك لم يزد على ما ذكر، أما ههنا فزاد السمع والبصر.

وهناك ملحظ آخر لذكر هاتين الصفتين، وذلك إنما أسري به وعُرج به إلى السماوات العلى ليرى ويسمع، فكان ذكر هذين الوصفين أنسب، وليدل على أن ما يراه يراه ربه، وأن ما يسمعه يسمعه ربه، وهو اختيار لطيف بديع.

وقد تقول: لم قال: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ولم يقل: (السميع العليم)؟.

فنقول: إن ما قاله أولى؛ ذلك أن من يسمعك ويراك عليم بك. أما العليم فقد يكون غائباً عنك.

قد تقول: ألم يقل: (السميع العليم) في مواضع؟.

فنقول: إنه يقول ذاك عندما يقتضي السياق.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦].

فقال في الشيطان الذي لا يُرى ولا تُرى وساوسه ولكنها تُعلم: إنه هو السميع العليم.

وقال في البشر الذي يُرى ويُبصَر: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (١).

١٤ ـ وقدم السمع على البصر؛ لأن من يسمعك أقرب إليك ممن يراك، فهو مشعر بالقرب والطمأنينة، كما أن السمع أهم من البصر في مجال الدعوة.

وهناك أمر آخر حسّن تقديم السمع على البصر، وهو أن الإسراء إنما هو في الليل، والليل آلته السمع وليس البصر. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٢].

فختم آية الليل بقوله: ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ لأن الليل يصلح فيه السمع، وختم آية النهار بقوله: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ لأنه صالح للإبصار (٢).

---

(١) انظر التفسير القيم ٥٨٦، التعبير القرآني ٢٦٨.
(٢) التعبير القرآني ٢٦٧ ـ ٢٦٨، البرهان للزركشي ١/ ٨٢، ملاك التأويل ٢/ ٧٦٢.

فكان تقديم السمع أولى من كل ناحية.

١٥ ـ لقد ذكر في هذه الآية جملة من صفات الله سبحانه، منها: الحياة والقدرة والحكمة والسمع والبصر، ذلك لأن من كان قديراً سميعاً بصيراً كان حيًّا، ومن يفعل لعلة فهو حكيم.

١٦ ـ وذكر صفة الخلق والملك تضمناً فقال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ فأضاف الآيات إليه، أي هو خالقها وفاعلها ومالكها.

فذكر أبرز صفات الألوهية: الحياة والخلق والملك والقدرة والحكمة والسمع والبصر.

وذكر هذه الأمور من صفات الله إنما هي تعريض بآلهة الكفار التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، وهي عاجزة عن كل شيء.

١٧ ـ وذكر الكمال فيما ذكر من صفات وفيما لم يذكر، فقد يكون الفرد سميعاً بصيراً ذا قدرة إلا أنه أحمق متهور، فتكون هذه الصفات عيباً فيه، وتكون قدرته ذمًّا لا مدحاً.

فنفى ذلك عن نفسه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ فنزّهه عن صفات النقص وما لا يليق، فكان كاملاً في صفاته منزهاً عن العيوب، فاستحق الثناء عليه وعلى صفاته.

هذا علاوة على أن قوله: (سبحان) يفيد تنزيهه عما يصفه أهل الجاهلية من صفات لا تليق، كما قال ربنا: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

١٨ ـ ومن اللطيف أن نشير إلى ارتباط أول السورة بآخرها، فقد بدأت بالتسبيح وختمت بالتحميد. فقال في أول السورة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ وختمت بقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

ولما ذكر نعمته على عبده بالإسراء قال له في الآخر: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كأنه تعليم لمن ينعم الله عليه أن يحمده على نعمه.

ثم إن مبتدأ السورة وختامها كان بالباقيات الصالحات التي يرى كثير من العلماء أنها (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر).

فالتسبيح كان في أول السورة وفي ختامها وهو قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

والتحميد وهو قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

ولا إله إلا الله وهو قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾.

والله أكبر وهو قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾.

وهناك ملاحظة أخرى أود أن أذكرها، وهي أنه لما قال في آخر السورة: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جاء بعدها مباشرة في مطلع السورة التي تليها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ كأن ذلك استجابة للأمر بالقول.

كأنه قال: قل الحمد لله.

فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

ولما وصفه بأنه لم يتخذ ولداً في آخر السورة أنذر الذين يقولون: (اتخذ الله ولداً) في ابتداء السورة التي تليها فقال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤]. فارتبط آخر السورة بأول السورة التي تليها أجلّ ارتباط وأجمله.

* * *

من سورتي الكهف والإنسان

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠ ـ ٣١].

وقال في سورة الإنسان: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١ ـ ٢٢].

* * *

لسائل أن يسأل: لم ذكر أساور الذهب في الكهف، وأساور الفضة في سورة الإنسان؟

والجواب أن عمل المذكورين في سورة الكهف أعلى من المذكورين في سورة الإنسان فكان الجزاء أعلى، ذلك أنه قال عن المذكورين في سورة الإنسان: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٧ ـ ٨].

وقال في سورة الكهف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

فذكر أنهم عملوا الصالحات، والعمل الصالح أعم من الوفاء بالنذر وإطعام الطعام لهذه الأصناف خاصة: المسكين واليتيم والأسير. ثم إن

النذر مكروه شرعاً ، غير أن الوفاء به واجب .

ثم ذكر إحسان العمل في الكهف فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧] . وإحسان العمل أعلى من مجرد العمل الصالح .

فلما كان عمل المذكورين في الكهف أعلى كان الجزاء أعلى من نواح عدة :

١ ـ ذكر التحلية من أساور الذهب في الكهف .

والتحلية بأساور الفضة في الإنسان .

فكان الجزاء في الكهف أعلى من ناحيتين :

أ ـ من ناحية الجنس ، فالذهب أعلى من الفضة .

ب ـ والكثرة ، فقد قال في الكهف : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ فذكر (من) مع التحلية ، ولم يذكر (من) في الإنسان ، وإنما قال : ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ ﴾ .

وذكرُ (من) أعلى في الجزاء ، فهي تدل على كثرة الأساور ، فقولك : (كل من هذا التفاح) أدل على كثرة التفاح من قولك : (كل هذا التفاح) ، وقولك : (البسْ من هذه الملابس) أدل على كثرة الملابس من قولك : (البسْ هذه الملابس) .

ثم إنه حيث ذكر أساور الذهب جاء بـ(من) مع التحلية فيقول : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ [الحج : ٢٣ ، فاطر : ٣٣] بخلاف أساور الفضة .

ويدلك على ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الدخان : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الدخان : ٥١ ـ ٥٣] .

فلما ذكر المتقين وهم أعلى من مجرد المؤمنين المذكورين في الكهف قال: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ فجاء بـ (من)، ولم يقل: (يلبسون سندساً) ولا (ثياباً) كما قال في الكهف. فدل على أن ذكر (من) أعلى.

ثم إنه لم يقل في سورة الدخان: (يلبسون ثياباً من سندس) كما قال في الكهف، وإنما قال: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ فأطلق اللباس ولم يقيده بالثياب فكان أعم. فدل على علوّ الجزاء بالإطلاق وبذكر (من) للدلالة على الكثرة.

٢ ـ قال في الإنسان: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ وعاليهم من العلو.

وقال في الكهف: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾ فذكر أنهم يلبسون ذلك، وقد لا يكون ذلك عليهم، بل إن عاليهم قد يكون أعلى من السندس.

٣ ـ امتدح الثواب في الكهف فقال: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

وقال في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

فذكر أن هذا جزاؤهم الذي يستحقونه، ولم يقل فيه ما قال في الكهف من الثناء.

٤ ـ ذكر الاتكاء على الأرائك في الكهف: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

ولم يذكر مثل ذلك في سورة الإنسان.

٥ ـ ذكر في الكهف أنهم تجري من تحتهم الأنهار.

ولم يذكر مثل ذلك في سورة الإنسان.

فدل ذلك على علوّ الجزاء في الكهف، فناسب الجزاء العمل.

* * *

من سورة النجم



﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١ ـ ١٨].

* * *

هذه الآيات من سورة النجم هي في المعراج، وقد سبقتها آية الإسراء التي سبق أن ذكرناها في مكانها.

لقد سُبقت هذه السورة بالتسبيح، فقال سبحانه في خواتيم السورة التي قبلها: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٨ ـ ٤٩].

وناسب ذكرُ إدبار النجوم، وهو غروبها وهويّها في خاتمة السورة التي قبلها، القسَمَ بالنجم إذا هوى، و(هوى): غرب، فكانت بداية هذه السورة شديدة المناسبة لما قبلها، جاء في (روح المعاني): «وهي شديدة المناسبة لما قبلها، فإن الطور ختمت بقوله تعالى: ﴿ وَإِدْبَٰرَ

﴿ٱلنُّجُومِ﴾ ، وافتتحت هذه بقوله سبحانه : ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ . . .

ومعنى : (هوى) : غرب ، وقيل : طلع» [(١)].

وناسب مفتتح السورة خاتمتها وهو قوله : ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾.

فإن السجود هو أهم ركن في أهم عبادة وهي الصلاة ، وقد فرضت في خاتمة المعراج .

ثم إن السجود هُوِيّ إلى الأرض ، فهو مناسب لقوله : ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

إن السجود أقرب حالة إلى الرب كما قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» وقد ذكر في أقرب حالة للرسول من ربه وهي المعراج .

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾.

الضلال نقيض الهدى ، وهو العدول عن الطريق المستقيم ، ولذلك كثيراً ما يقابل القرآن الضلال بالهدى ، قال تعالى : ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال : ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] ، وقال : ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٦] ، وقال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠].

وهو يكون عن قصد وعن غير قصد ، قال تعالى : ﴿يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤]، وقال : ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال : ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: ٢٣]وهذا ضلال أو إضلال عن قصد وعلم .

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٦٩ .

وقال: ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وهذا ضلال أو إضلال من غير قصد وبغير علم.

جاء في (المفردات) للراغب: «الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضادّه الهداية... ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج، عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً»[١].

ويكون للإنسان وغيره من الحيوان والجماد. يقال: ضلّت الدابة إذا ضاعت، وضلّ السعي إذا حبط، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٤] وضلّ الشيء: خفي وغاب، وإذا سقطت الدراهم عنك فقد ضلّت[٢].

وأما الغيّ فهو الضلال والخيبة والفساد[٣] والاعتقاد الباطل[٤].

وهو نقيض الرشد[٥] ولذلك قد يقرن القرآن بينهما على أنهما نقيضان. قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ضل).
(٢) لسان العرب (ضل).
(٣) لسان العرب (غوى).
(٤) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٥٣.
(٥) الكشاف ٤/ ٢٨، روح المعاني ٢٧/ ٤٥، مفردات الراغب (رشد).

بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فنفى عن الرسول ﷺ الضلال والغيّ فقال: (ما ضلّ) و(ما غوى) فهو مهتد رشيد.

وكرر (ما) في النفي للدلالة على أنه لم يحصل له واحد من هذين على سبيل الجمع أو الإفراد. ولو قال: (ما ضلّ صاحبكم وغوى) لاحتمل نفي الجمع بينهما، أي لم يجتمعا فيه، وإنما حصل له واحد منهما.

واحتمل نفي الإفراد أيضاً، واحتمل نفيْ الأول وإثبات الثاني، ونحو ذلك أن تقول: (ما ضربه وشتمه) أي لم يفعل الاثنين جميعاً، وإنما فعل واحداً منهما، وقد يحتمل أنه لم يفعل أي واحد منهما، ويحتمل أيضاً نفي الأول وإثبات الثاني فتكون الواو استئنافية أو حالية نحو قولك: (ما ضربته وشتمني) أي أنا لم أضربه وهو شتمني، فعطف مثبتاً على منفي. ونحو قولك: (ما أسأنا إليهم وبَغَوْا علينا) أي لم نسئ إليهم وهم بَغَوْا علينا. فإن قلت: (ما ضربه وما شتمه) نفيت الأمرين على كل حال.

وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل (محمد) أو الرسول أو نحو ذلك، إشارة إلى أنهم صحبوه وعرفوه وعرفوا أحواله بطول صحبته لهم وعرفوا أمانته ورجاحة عقله، فكيف ينسبونه إلى الضلال والغيّ؟ ونحو هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

جاء في (روح المعاني): «وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان المصاحبة لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبراً ببراءته ﷺ مما نفى عنه بالكلية وباتصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهدى والرشاد، فإن طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم

لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً ، ففي ذلك تأكيد لإقامة الحجة عليهم»[١] .

وقد وردت هذه اللفظة في مواضع عدة من القرآن كلها في سياق نفي الجنون والضلال عن الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [سبأ : ٤٦] ، وقال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : ٢٢] ، وقال : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم : ٢] ، وقال : ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٤] .

إن علاقة القسم بالجواب ظاهرة ، فقد أقسم بالنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبهم وما غوى. وهوى معناه سقط وغرب. والضلال والغواية سقوط ، فناسب سقوط النجم سقوط الإنسان وهويّه .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ﴾ .

نفي النطق عن الهوى بالفعل المضارع للدلالة على استمرار النطق بالحق ونفي النطق عن الهوى .

لقد نفى الضلال والغيّ بالفعل الماضي ، ونفى النطق عن الهوى بالمضارع ، فدل ذلك على نفي الضلال والغي والصدور عن الهوى في الماضي والحال والاستقبال ، وإن ذلك النفي كائن على جهة الاستمرار .

إن النفي في الآيتين يدل فيما يدل على نفي هذه الأمور عملاً وقولاً .

فالضلال والغي قد يكونان في السلوك والقول .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ١٠٤] فهذا ضلال في السعي .

وقال : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ١] ، وقال :

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٥٠ .

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٤].

وقال: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا ﴾ [الإسراء: ٤٨] وهذا ضلال في القول.

وأما قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ فإنه نص في الدلالة على نفي النطق عن الهوى، فاستغرقت هاتان الآيتان نفي ما ينبغي نفيه قولاً وعملاً.

وقال: ﴿ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ ولم يقل: (بالهوى) مع أن الأصل أن يعدى النطق بالباء، قال تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ [المؤمنون: ٦٢]، وقال: ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [الجاثية: ٢٩] ذلك لأن معنى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ أن نطقه ليس صادراً عن الهوى، فنفى أن يكون نطقه صادراً عن الهوى، فبرأ الدافع الذي دفعه إلى النطق؛ وذلك لأن الإنسان قد ينطق بكلمة حق ولكن ليس للحق ذاته وإنما لغرض آخر، فقد يكون لمنفعة يجرها إليه أو لغرض آخر، كما قيل في نحو ذلك (كلمة حق أريد بها باطل) فيكون النطق بكلمة الحق ليس للحق ذاته. فبرأه ﷺ من ذلك وأثبت تزكية نفسه التي تطلب الحق وتدعو إليه. ولو قال: (وما ينطق بالهوى) لكان ذكرَ النطق ولم يذكر الدافع إليه ولا الغرض من هذا النطق.

جاء في (روح المعاني) في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾:

«والنطق مضمن معنى الصدور فلذا عدي بعن في قوله تعالى: ﴿ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾، وقيل: هي بمعنى الباء، وليس بذاك، أي: ما يصدر نطقه فيما أتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن أو من القرآن عن هوى نفسه ورأيه أصلاً. فإن المراد استمرار النفي» (١).

إن هذه الآية تناسب القسم في بداية السورة، وتناسب ما قبلها من

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٧٢.

الجواب ، فإن الهوى الذي يستميل الإنسان فيترك لأجله الحق إنما هو هويّ وسقوط ، وهو ضلال وغيّ ، فناسب ذلك ما قبله وارتبط به أحسن ارتباط .

لقد ذكر هذه الأمور المنفية مرتبة من العام إلى الخاص ، فقدم الضلال على الغيّ ، وقدم الغيّ على النطق بالهوى. فإن الضلال عام في الإنسان وغيره من الحيوان والجماد ، وهو عام في السلوك والقول والاعتقاد ، فهو أعم من الغيّ.

ثم ذكر بعده الغيّ ، وهو خاص بالإنسان ، وهو أعم من النطق. فإن الغيّ يكون سلوكاً واعتقاداً وعملاً .

وأخر النطق وهو أخص .

فرتب هذه الأمور من العام إلى الخاص .

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ .

الضمير (هو) يعود على ما ينطق به ، أي ليس الذي ينطق به إلا وحياً يوحى إليه[1] . وقد نفى ذلك بـ (إنْ) التي هي أقوى من (ما) [2] ؛ ذلك لأن هذا الأمر، أي مسألة الوحي، هي أصل الخلاف بين الرسول والكفار، فإن الكفار لا يعتقدون أنه يوحى إليه ، فكذلك أكد النفي والإثبات بإنْ وإلا .

وجاء بالحصر لأنه أقوى من المؤكدات الأخرى ، فإنه نفى كل شيء عن نطقه إلا الوحي .

وقد تقول: لماذا جاء بهذه الآية بعد قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾؟

---

(١) ينظر روح المعاني ٢٧/ ٤٥ ، تفسير أبي السعود ٨/ ١٥٥ .
(٢) انظر معاني النحو ١/ ٣٢٢ ، ٤/ ٢٣٥ .

أليس قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ مغنياً عن هذه الآية؟.

والجواب: كلا ؛ ذلك أن الإنسان قد يقول الشيء غير صادر عن هوى ، ولكن ليس بالضرورة أن ما يقوله حق وصواب. فقد يكون الإنسان مخلصاً ولكنه مخطئ في علاجه وتحليله وقوله ، فليس المخلص بالضرورة مصيباً ، فقد يكون المخلص مصيباً أو مخطئاً. لقد برّأ الدافع بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ ولكنه لم يبرّئ النطق نفسه من الغلط. فذكر أن نطقه وحي يوحى إليه. فجمع في هاتين الآيتين الإخلاص والصواب ، وهما مناط القبول عند الله.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾.

ذو مرّة: أي ذو حصافة وحكمة وإحكام.

إن ارتباط هذه الآية بالتي قبلها أجلّ ارتباط ؛ ذلك أنه ذكر في الآية السابقة أن نطقه عن وحي. والوحي قد يكون إلهاماً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

وقد يكون الوحي من شياطين الإنس والجن ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فبين أن الوحي إليه ليس كذلك ، وإنما هو تعليم ممن هذه صفته ، وليس أمراً تخيّله أو إلهاماً ألهمه أو ظناً ظنه أو شيطاناً أوحاه إليه. مما يدل على أن قوله حق صادر عن حق. فذو العقل والحكمة والحصافة لا يعلّم إلا الحكمة والإحكام.

وبذلك يكون قد زكّى الدافع الذي دفعه إلى القول وبرّأه من الهوى بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾.

وبرّأ قوله من الغلط ومجانبة الحق ؛ ذلك لأن هذا ليس قولاً من عنده أو اجتهاداً اجتهده مما يحتمل الخطأ والصواب ، وإنما هو وحي أوحاه إليه رب العالمين وعلّمه إياه ذو مرة.

ثم نلاحظ أنه ذكر صفة الذي علّمه بقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾ ولم يذكر اسمه ، وأنه قال في الرسول: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يذكر اسمه. وهو تناظر طريف.

ثم إنه قال: (علّمه) ولم يقل: (أعلمه) ؛ للدلالة على مداومة التعليم واستمراره ؛ لأن (علّم) يقتضي التكثير والمداومة. بخلاف (أعلم) ، فإن (أعلم) قد يكون لوقت قصير ولمسألة واحدة ، كأن تقول: (أعلمته الخبر). أما ما يقتضي الاستمرار والتكثير فإنه يقال له: (علّم) ، نقول: علّمته الحساب باباً باباً ، وعلّمته النحو مسألة مسألة ، ولا تقول: أعلمته ؛ لأن ذلك يقتضي الاستمرار في التعليم.

لقد ذكر صفتين لجبريل وهما ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ و﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ، وهذان الوصفان لهما دلالتهما في هذا المقام من ناحيتين:

١ ـ الناحية الأولى: أن فيهما إشارة إلى أن العروج إلى فوق والصعود إلى أقطار السماوات يحتاج إلى أمرين:

القوة ، بل القوى الشديدة ، وقد أشار إلى ذلك بقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

والأمر الآخر: العقل والإحكام والحصافة ، أو بتعبير آخر (العلم المحكم) ، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾.

٢ ـ والناحية الأخرى أن هذين الوصفين يدلان على تمكن الموصوف من حفظ الرسول في عروجه ونزوله من القوى الطبيعية والشريرة وغيرها.

وحفظ الوحي الذي يتنزل به من الشياطين التي قد تسترق السمع أو غيرهم.

والحفظ وكل حفظ يحتاج إلى القوة والعلم.

فناسب اختيار هذين الوصفين لمقام أجلّ مناسبة وأعلاها.

﴿ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾.

استوى: اعتدل واستقام، أي تهيأ للمهمة التي أوكلت إليه وهو بالأفق الأعلى.

وهذا ثناء على جبريل وتكريم للرسول، فإنه استعد للأمر قبل أن ينزل وهو بالأفق الأعلى، وليس بالأفق فقط ولا الأفق العالي وإنما بالأفق الأعلى، للدلالة على عظم المهمة التي أوكلت إليه.

وهو تكريم للرسول؛ لأنه استعد لملاقاته وهو بالأفق الأعلى.

والاستعداد لأي أمر يرتبط به أمران:

الأول: قيمة الأمر الذي استعد له وأهميته.

والأمر الآخر: الشخص الذي يذهب إليه لتنفيذ المهمة.

فإن كان الأمر يسيراً أو كان الشخص الذي تذهب إليه ليس ذا مكانة رفيعة فإن الاستعداد يكون من أقرب مكان إليه، بل قد تستعد إليه عند المدخل الذي تدخل إليه منه وليس قبل ذلك.

وإن كان الأمر عظيماً أو كان الشخص سلطاناً أو نحو ذلك فإنك قد تستعد إليه قبل أيام وأنت في بيتك. وقد ذكر ربنا أنه استوى وهو بالأفق الأعلى للدلالة على عظم المهمة وعلى كرامة الشخص الذي ينوي الذهاب إليه، ويدل أيضاً على حسن تقدير من أوكلت إليه المهمة فاستوى وهو بالأفق الأعلى، فدل ذلك على عظم المهمة وتكريم

الرسول والثناء على جبريل لتقدير الأمر كما ينبغي.

قد تقول: لقد ذكر الأفق الأعلى هنا، وقد ذكر الأفق المبين في موطن آخر فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٢ ـ ٢٥].

فما سبب ذلك؟

والجواب أن المقام يختلف في آية النجم هذه عن آية التكوير.

فإن المقام في النجم في العروج إلى الأعلى، فناسب ذكر الأفق الأعلى.

والمقام في آية التكوير في تبيين ما يوحى إليه وإبلاغه للناس فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي ما هو ببخيل، وإنما هو يبين كل ما يوحى إليه لا يكتم منه شيئاً.

فناسب ذكر الأفق المبين قوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، والمبين كما هو معلوم من الإبانة.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾.

الدنوّ هو القرب سواء كان من الأسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، أو من مكانين مستويين.

وأما التدلي فهو من أعلى إلى أسفل. أي إن جبريل اقترب من الرسول وتدلى إليه. وهذا تكريم بعد تكريم، فالدنو منه تكريم، والتدلي إليه تكريم آخر. فإنك إذا كنت راكباً مثلاً ورأيت شخصاً قريباً منك فسلمت عليه كان ذلك تكريماً، وإن نزلت إليه فحييته كان ذلك أدل على تكريمه وهو تكريم آخر. فهو لم يكتف بالقرب منه وإنما تدلى إليه.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

هذا بيان لشدة القرب منه ، و﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ قيل: ما هو بين مقبض القوس وطرفيها ، أو ما بين وتر القوس ومقبضها ، وقيل: مقدار قوسين أو أقرب من ذلك. وأيًّا كان ذلك فإنه يدل على أنه قرب منه قرباً شديداً.

ولم يكتف بقوله: ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ وإنما قال: ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ للدلالة على شدة قربه منه. و(أو) هذه قيل: إنها للشك بالنسبة إلى الرائي ، على معنى أنه إذا رأى الرائي قال: هو قاب قوسين أو أدنى[1] .

وتحتمل أن تكون (أو) بمعنى (بل) فيكون المعنى: بل هو أقرب من ذلك.

والقوس هي القوس التي يرمى بها.

واختيار هذا التعبير لبيان شدة القرب اختيار له دلالته في هذا المقام ، فإن العرب تعبر عن مكان القرب بتعبيرات مختلفة نحو قولهم: (هو مني معقد الإزار) أو (مقعد القابلة) أو نحو ذلك ، ولكن هذا الاختيار له دلالته هنا كما ذكرت ، فإن القوس ينبغي أن تكون شديدة قوية ، والوتر كذلك ينبغي أن يكون قوياً شديداً. قال الشاعر:

والقوس فيها وتر عُرُدُّ مثل ذراع البكر أو أشد

ومعنى العُرُدّ: قوي صلب شديد.

كما أن الرامي ينبغي أن يكون قويًّا. وهذا كله متناسب مع قوله: ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ .

كما أن الرمي ينبغي أن يكون شديداً محكماً ، وهذا من معاني المِرّة.

ومن القوس ينطلق السهم لإصابة الهدف. وهذه الصورة تناسب انطلاقهما إلى ما شاء الله.

---

(١) انظر روح المعاني ٢٧/ ٤٨ ، تفسير الطبري ٢٧/ ٤٥ .

فكان في هذا التعبير الدلالة على الشدة والقوة والسداد والإحكام للانطلاق ، وهذه العناصر ينبغي أن تكون في كل عروج إلى هدف .

وكل ذلك يتناسب هو ووصف جبريل بقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾ .

فهو أنسب اختيار في هذا المقام .

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ .

اختار صفة العبودية ، وهو أنسب اختيار كما ذكرنا في آية الإسراء ، وأضافه إلى نفسه تكريماً ، والضمير يعود على الله تعالى. وهو نظير قوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ، وكلما كان الفرد أكثر عبودية لله كان أعلى منزلة وأقرب إليه .

وقد أبهم (ما أوحى) للتعظيم «وتفخيماً لشأن المنزل وأنه شيء يجلّ عن الوصف»[1]. وهذا الإبهام وعدم ذكر ما أوحى إليه يتناسب هو وإبهام جبريل وإبهام ذكر الرسول ، فلم يذكر اسم جبريل ولا اسم الرسول ، كما لم يذكر ماذا أوحى .

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ .

لفظ (الفؤاد) من التفؤد وهو التوقد. وسمي القلب فؤاداً لتفؤده وتوقده ، وهو مأخوذ من مادة (فأد) التي معناها شوى. وفأد اللحم وافتأده: شواه ، والمفتأد موضع الوقود[2].

والمكان الذي عرج به إليه يدعو إلى التفؤد والتوقد للاطلاع على شيء لم يعهد بمثله. وهو كما نقول: (تحرّق شوقاً إلى لقائه) فهي إشارة

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٤٩ .
(٢) انظر لسان العرب (فأد).

إلى مقدار لهفة الرسول وتوقّد قلبه للعروج إلى الملأ الأعلى.

ومعنى الآية أنّ فؤاده لم يكذب ما رأى بصره، بل صدق فؤاده ما رأى بصره؛ وذلك أن الإنسان قد يرى شيئاً أو شخصاً فيشك في ذلك ويقول: أنا لا أصدّق عيني ولا أصدّق ما أرى أهو هو؟. أو يقول: أنا غير مطمئن إلى ما رأيت، فأنا أرى شيئاً أو شخصاً وقلبي يقول غير ذلك، وذلك يحصل عندما يكون الشيء غريباً أو عجيباً أو نحو ذلك.

أما ما رآه ﷺ فلم يكذب الفؤاد ما رأى بصره ولم يقل فؤاده ليس هو «ما أوهمه الفؤاد أنه رأى، ولم يرَ، بل صدقه الفؤاد رؤيته»[1].

فاطمأن فؤاده إلى ما رأى بصره. وهذا غاية اليقين والاطمئنان.

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾.

المراء: الجدل، والمراء أيضاً من الامتراء والشك[2].

يقول: أتجادلونه على ما يراه ببصره؟ إن الجدال قد يكون في الأفكار والآراء ولا يكون الجدال على ما يراه. فإن الرؤية ليست موضع جدال. ولذا عدى الفعل بـ (على) فقال: ﴿ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾، ولم يعدّه بـ (في) فلم يقل (فيما يرى) كما قال في موطن آخر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ ﴾ [الشورى: ١٨] لأن المماراة في الشيء معناها الجدال فيما هو موضع جدال من فكر أو معتقد أو نحو ذلك، أما الرؤية بالبصر فليست كذلك.

واختار فعل المماراة على فعل الجدال، فلم يقل: (أفتجادلونه)؛ لأن المماراة فيها معنيان: الشك والجدال. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الحج: ٥٥] أي في شك، وهم شكّوا في إخباره

---

(١) لسان العرب (كذب).

(٢) لسان العرب (مرا).

وجادلوه على ذلك ؛ لأن الرؤية قد تكون موضع شك ، فاستعمل الفعل بمعنييه : الجدال والشك ، وهو من لطيف الاستعمال ودقيقه.

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ .

النزلة : المرة من النزول ، أي : رآه مرة أخرى عند نزوله . ولم يقل : (مرة أخرى) ليدل على أنه رآه مرة أخرى عند نزوله . ويدل هذا على أنه صعد إلى مكان أعلى من مكان جبريل فرآه عند النزلة .

وذكر ﴿ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ يدل على أنه صعد إلى أعلى مكان وأرفعه في الدنيا ، فلم يبق أمامه إلا الجنة . فهي أرفع مكان في هذه الحياة ، وهي منتهى الرحلة .

﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ .

أبهم ما رآه تفخيماً وتعظيماً لما يغشى ، وهذا الإبهام للتفخيم ، نظير الإبهام في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ .

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ .

الزيغ والزَّيَغان هو الميل عن الاستقامة والذهاب يميناً أو شمالاً .

والطغيان هو مجاوزة الحد والتطلع إلى ما ليس له . وطغى أيضاً جاوز قدره .

والمعنى أنه لم يلتفت يمنة ويسرة ، ولم يذهب بصره يميناً أو شمالاً ، ولم يتجاوز الحد أو يتطلع إلى ما ليس له .

وهذا النفي نظير النفي في قوله في أوائل الآيات : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ غير أن هذا في الأرض وذلك في السماء .

والزيغ هو ضلال ، فإن من مال عن الاستقامة ضلّ ، والطغيان غيّ . وكرر (ما) ليدل على أنه لم يحصل واحد من هذين الأمرين . ولو لم يكرر

لاحتمل النفي عن الجمع بينهما واحتمل المعنى الأول أيضاً.

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾.

قال: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ﴾ ولم يقل: (لقد رأى آيات ربه) ليدل على انه رأى بعضاً من آيات ربه ولم يرها كلها، وهذا نظير قوله في آية الإسراء: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾، فقد ذكر في أول الرحلة أنه أسرى به ليريه من آياته، وقال بعد تمام الرحلة: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ﴾ فأنجز ما ذكر، وبذا تمت الرحلة بحسب المنهج الذي رسم لها.

وقال: ﴿ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ﴾ ولم يقل: (آيات الله) أو غير ذلك من الأسماء الحسنى، وذلك لمناسبة ذكر العبد بقوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ فإن للعبد ربًّا يحفظه ويرعاه. وكلمة (الرب) تدل على الملك والهداية والرعاية، وهذا التعبير فيه تكريم ظاهر.

ووصف الآيات بالكبرى تكريم آخر.

إن هذه الآيات يظهر فيها التكريم من أولها إلى آخرها، فكل آية فيها تكريم للرسول ﷺ.

كما يظهر في هذه الآيات خط تعبيري واضح هو الإبهام وعدم الإفصاح عن الأمر أو الشيء تكريماً وتفخيماً أو لغير ذلك:

١ ـ فقد قال: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ ولم يذكر اسمه.

٢ ـ وقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ فذكر الضمير ولم يذكر الشيء الذي يعود عليه الضمير.

٣ ـ وقال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ ﴾ فذكر صفة المعنيّ ولم يذكر اسمه.

٤ ـ وقال: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ فجاء بـ (أو) ولم يقطع.

٥ ـ وقال: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ ولم يذكر ما أوحى إليه ، ولم يذكر الموحي ، وأضاف العبد إلى ضمير لم يذكر صاحبه.

٦ ـ وقال: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ ولم يذكر الذي رآه.

٧ ـ وقال: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ولم يذكر المرئيّ.

٨ ـ وقال: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ ولم يذكر ماذا غشيها.

٩ ـ وقال: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ ولم يذكر ماذا رأى.

كما أن فيها خطًّا آخر وهو خط النزول أو السقوط من أعلى إلى أسفل إثباتاً أو نفياً.

فهويّ النجم سقوطه أو غروبه.

والضلال سقوط.

والغيّ سقوط.

والنطق عن الهوى سقوط.

والتدلّي نزول من أعلى إلى أسفل.

والكذب سقوط.

والمماراة على الرؤية سقوط.

والنزلة نزول.

وزيغان البصر وطغيانه سقوط.

ثم إن هذه الآيات متناسبة مع جو السورة التي هي فيها ، أو بتعبير آخر إن السورة مطبوعة بطابع هذه الآيات.

١ ـ فقوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [٢٣] يقابل قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ ، فهم يعتقدون أموراً ما أنزل الله بها من سلطان ، أما هو فإنه وحي يوحى.

وهم يتبعون ما تهوى الأنفس ، أما هو فلا ينطق عن الهوى.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ هو المعنيّ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ فالذي يوحى إليه هو الهدى الذي جاءهم من ربهم.

٢ ـ وقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ يقابل من علّمه من الملائكة الذي وصفه بقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾.

فكلتا الآيتين في الكلام على الملائكة.

٣ ـ وقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [٢٨] يقابل قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾ فهم ليس لهم علم وأما هو فمعلَّم من ذي مرة.

٤ ـ وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [٣٠] يقابل قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

٥ ـ وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يصدّقه أنه عرج بنبيه إلى سدرة المنتهى عند باب الجنة.

٦ ـ وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ تعريض بأن الشعرى لا تصلح للعبادة ، فإن لها ربًّا وأنها تهوي وتغيب ، وهو مناسب لقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ والشعرى نجم كان يعبد في الجاهلية(١).

٧ ـ ناسب الإبهام في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [٥٣ ـ ٥٤] الإبهام في قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ غير أن تلك نقمة في

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢٧/ ٧٧ ، روح المعاني ٢٧/ ٦٩.

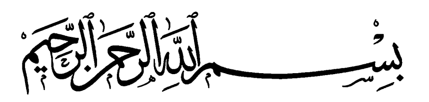
الأرض ، وهذه نعمة في السماء .

٨ ـ قوله : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ [٥٥] مناسب لقوله : ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ فإن كليهما مماراة مع اختلاف الموضوعين واختلاف المتماريين .

وغير ذلك والله أعلم .

* * *

من سورة القمر



﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ١ ـ ٨].

* * *

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ .

مناسبة أول السورة هذه لآخر السورة التي قبلها ظاهرة ، فقد افتتحت السورة بالكلام على اقتراب الساعة ، وقال في خواتيم السورة قبلها: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴾ أي دنت القيامة .

و(أزف) بمعنى (اقترب) والساعة والآزفة يكادان يكونان بمعنى .

وتناسب توالي السورتين ظاهر أيضاً، فالسورة التي قبلها افتتحت بالنجم إذا هوى ، وهذه السورة افتتحت بانشقاق القمر . وهويّ النجم مناسب لانشقاق القمر ، فكلاهما من الأجرام السماوية ، وهو تناسب طريف .

والهويّ والانشقاق متناسبان لما فيهما من تغير حال الجرم وذهاب نوره أو خفوته .

وقال: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ ولم يقل (إذا غرب) أو (إذا أفل) كما قال في آية أخرى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

والهويّ والانشقاق حالتان غريبتان على الجرم، فالتناسب ظاهر.

جاء في (روح المعاني): «ومناسبة أولها لآخر السورة التي قبلها ظاهرة، فقد قال سبحانه: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ وهنا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

وقال الجلال السيوطي: لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حسن التناسق للتناسب في التسمية لما بين النجم والقمر من الملابسة» [1].

كما أن مفتتح السورة مرتبط بخاتمتها، فقد افتتحت السورة بقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، وختمت بقوله: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾.

وذكر عاقبة المعرضين المكذبين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٨].

وعاقبة المؤمنين المتقين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

ثم إن أحداث الساعة مذكورة بحسب تسلسلها وترتيبها.

فقد بدأت باقتراب الساعة ثم خروج الناس من الأجداث ثم مشهد المجرمين وهم في النار، وختمت بمشهد المتقين وهم في الجنات في مقعد الصدق عند المليك المقتدر. فإن هذا هو المشهد الأخير، ذلك أن

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ١١٢ ـ ١١٣.

مشهد النار أسبق من هذا المشهد ؛ لأن قسماً ممن يعذب في النار يخرج منها ويدخل الجنة وليس العكس ، فدخول الجنة هو المشهد الأخير وبه ختمت السورة.

وقوله: (اقتربت) يدل على شدة القرب ، و(اقترب) أبلغ في القرب من (قرب) لما في (افتعل) من المبالغة. والمعنى: «قربت جدًّا» [(١)] أو اشتدت قرباً[(٢)].

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾.

هذا تصوير لحالهم وبيان أنهم إن رأوا آية أعرضوا.

قد تقول: لقد قال في آية أخرى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ [الأنعام: ٢٥] فذكر أنهم إن رأوا كل آية لا يؤمنوا بها على وجه العموم وليست آية فما الفرق؟

فنقول: إن السياقين مختلفان ، فقد قال في الأنعام: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٥ ـ ٢٦].

فقد ذكر في آيتي الأنعام من هم أشد إعراضاً وتكذيباً وأنأى عن الإيمان والتصديق ، فقد قال:

١ ـ أنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه.

٢ ـ وفي آذانهم وقراً.

٣ ـ وذكر أنهم ينهون عنه ولا يكتفون بالتكذيب.

---

(١) انظر روح المعاني ٢٧/ ١١٢.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧/ ٣٣٩.

٤ ـ وأنهم ينأون عنه.

فناسب أن يقول عنهم: إنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها على سبيل العموم.

وقد تقول: ولماذا ختم آية الأنعام بقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وختم آية القمر بقوله: ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾؟.

فنقول:

الفرق واضح بين السياقين.

فإن آية القمر وقعت في سياق انشقاق القمر، فالمناسب أن يختمها بالسحر وليس بالأساطير.

في حين أن سياق آية الأنعام في الاستماع إلى القرآن، فقد قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهذا يتعلق بالاستماع والفهم، فناسب ذلك قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

حذف المبتدأ، أي: هذا سحر.

وقد تقول: لقد حذف المبتدأ ههنا وذكره في مواطن أخرى مؤكداً وغير مؤكد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦]، وقوله: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣] وغير ذلك، فما سر هذا الاختلاف؟.

فنقول: إن ذلك بحسب ما يقتضيه السياق، فإن السياق قد يقتضي

الحذف إذا كان الكلام موجزاً والمعنى واضحاً ، ولا يضر الحذف في معنى الكلام وبلاغته .

وقد يقتضي السياق الذكر ، وذلك إذا كان الكلام في مقام التفصيل أو التوكيد ، أو كان الحذف يؤدي إلى الإبهام ، وما إلى ذلك مما تقتضيه البلاغة .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١١٠] .

ففصّل في ذكر الآيات التي آتاها عيسى ابن مريم من النفخ في الطين فيكون طيراً ومن إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيرها ، فاقتضى ذلك الذكر والقصر ، فحكى عن الذين كفروا أنهم قالوا : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ بخلاف ما في آية القمر التي قال فيها : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ ﴾ فلم يذكر آية ، وإنما عقب ذلك على قوله : ﴿ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصافات : ١٢ ـ ١٥] .

فذكر أنهم يسخرون ، وأنهم إذا رأوا آية يستسخرون ، أي : يبالغون في السخرية ، ويدعون غيرهم ليسخر معهم ، فناسب المقام أن يقولوا : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، بخلاف قوله : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ ﴾ فإنه ذكر إعراضهم ولم يذكر السخرية ولا دعوة غيرهم ليسخر معهم ، فالفرق واضح .

وقد تقول: لقد جاء التعبير مرة مؤكداً ومرة غير مؤكد والموطن متشابه ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦] .

فأكد ذلك بإن واللام .

وقال في موطن آخر: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧] .

فلم يؤكد مع أن الموطن متشابه .

والحق أن الموطنين مختلفان ، فإن في سياق آية يونس من التفصيل وغير ذلك مما يستدعي التأكيد ما ليس في سياق آية الأحقاف .

فقد قال في سياق آية يونس: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٧٥ ـ ٨٢] .

في حين قال في الأحقاف: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٧ ـ ٨] .

والفرق واضح بين السياقين .

فقد ذكر في آيات يونس من صفات المكذبين ما لم يذكره في الأحقاف ، وفصل في ذكر السحر ما لم يذكره في الأحقاف .

فقد قال في يونس :

١ ـ أنهم استكبروا .

٢ ـ وكانوا قوماً مجرمين .

٣ ـ وقالوا إن هذا لسحر مبين .

٤ ـ رد عليهم موسى : أسحر هذا؟

٥ ـ لا يفلح الساحرون .

٦ ـ قال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم .

٧ ـ فلما جاء السحرة قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون .

٨ ـ قال موسى : ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين .

في حين لم يزد في سياق آية الأحقاف على ما ذكرنا وهو :

١ ـ أنهم قالوا للحق هذا سحر مبين .

٢ ـ أم يقولون افتراه .

فاقتضى كل سياق ما ورد فيه من التعبير .

ووصف السحر هنا بأنه مستمر ، ومعنى مستمر «مطرد دائم يأتي به محمد على مر الزمان ، وهو ظاهر في ترادف الآيات وتتابع المعجزات» [1] .

---

(١) روح المعاني ٢٧/١١٨ ، وانظر البحر المحيط ١٠/ ٣٣ .

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ ﴾ بالفعل المضارع يدل على تكرر الآيات واستمرارها ؛ لأن الفعل المضارع في الشرط يفيد احتمال تكرر الحدث[1] . وهو مناسب لقوله: ﴿ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴾ .

قد تقول: لقد وصف السحر في القرآن بصفات متعددة ، فقد وصف في هذه الآية بأنه سحر مستمر ، وفي مواطن أخرى بأنه سحر مبين ، وفي موطن آخر بأنه سحر مفترى ، وفي آية أخرى أنه سحر يؤثر ، وأحياناً لا يصفه بشيء ، فما سبب ذلك؟ هل هو مرتبط بفواصل الآي؟ .

فنقول: قد تكون الفاصلة تقتضي لفظاً دون آخر ، ولكن لا يكون ذلك للفاصلة وحدها ، وإنما قد يقتضي ذلك السياق .

فإن معنى (مبين) ظاهر ، ومعنى (مفترى) مكذوب ، ومعنى (يؤثر) ينقل ويروى .

أما الوصف بأنه مبين ، فلأنه وردت في السياق آيات وعلامات من أمثال قلب العصا حية أو إحياء الموتى فنسبوا ذلك إلى السحر الظاهر .

وأما أنه مفترى ، فلأن السياق في غير ذلك ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [القصص: ٣٦] .

فلما ذكروا أنهم لم يسمعوا بمقالة موسى في آبائهم الأولين اقتضى ذلك أن يكون كلامه افتراءً وكذباً فلا يناسب أن يقول: (سحر مبين) فإنه غير واضح ولا ظاهر ولكنه مفترى .

وكذلك ما جاء في سورة المدثر ، فإن الوليد نفى بادئ ذي بدء أن يكون ما جاء به محمد سحراً ولا شعراً ، وعلى هذا فلا يصح أن يقول إنه

---

(١) انظر معاني النحو ٤/ ٩١ وما بعدها.

سحر مبين ، وكيف يكون سحراً مبيناً وقد نفى ذلك عنه؟ .

فابتدع قولاً في القرآن فقال: (هو سحر يؤثر) أي ينقله عن غيره ويرويه .

وأما عدم وصفه بشيء فلأنه لم يذكر آية ، وإنما ذكر مجيء الحق على العموم.

قال تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٩ ـ ٣٠].

فناسب أن يقولوا فيما جاء به (هذا سحر) من دون وصف. والله أعلم.

﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ .

قال: ﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ بالفعل الماضي ليدل على أن التكذيب واتباع الهوى إنما حصل قبل رؤية الآيات ، وأن ذلك ليس معطوفاً على جواب الشرط ، وإنما هو متحقق قبل ذلك ، فجاء بالفعل الماضي للدلالة على التحقق(١) .

لقد أطلق التكذيب ولم يقيده بأمر. فإن هذا الفعل يعدّى بنفسه إلى الأشخاص فيقال: (كذّبت زيداً) ، قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ [القمر: ٩] ، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣] ، و﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠] ، وقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤] ، وقال: ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ﴾ [سبأ: ٤٥].

ويعدّى بالباء إلى ما يكذب به من العقائد والأفكار والأقوال فيقال: (كذّب بآيات الله) و(كذّب بالدين) و(كذّب بالنار) قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٧٨.

مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧] ، وقال: ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤] ، وقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون: ١].

وهنا أطلق التكذيب فلم يقل: (كذبوا الرسول) ولا (كذبوا بالآيات) ولا نحو ذلك للدلالة على إطلاق التكذيب ، فإنهم كذبوا الرسول وكذبوا بالآيات التي جاء بها.

وهذا الإطلاق في التكذيب نظير الإطلاق في الآية السابقة ، وهو قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ فلم يقل: (يعرضوا عنها) وإنما أطلق الإعراض ليعم الإعراض عن الآيات وعما سوى ذلك مما جاء به الرسول ، فهم أعرضوا عن الرسول وعما جاء به.

ثم إنهم لم يكتفوا بالتكذيب وإنما اتبعوا أهواءهم علاوة على ذلك.

وقال: (اتبعوا) ولم يقل (تبعوا) للدلالة على المبالغة في اتباع الهوى.

فهم بالغوا في الإعراض ، وبالغوا في التكذيب بإطلاقهما ، وبالغوا في اتباع الهوى.

جاء في (روح المعاني): «وكذبوا النبي ﷺ وبما أظهره الله تعالى على يده من الآيات ، واتبعوا أهواءهم التي زينها الشيطان لهم... وصيغة الماضي للدلالة على التحقق»[(١)].

إن هذا التكذيب الصادر من قوم الرسول ﷺ نظير تكذيب الأمم السابقة بالآيات والرسل. وذكره هنا مناسب لما ذكره من تكذيب الأمم السابقة في السورة من أمثال قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، فقد قال

---

(١) روح المعاني ٢٧/٧٨.

تعالى: ﴿ ۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ [٩].

وقال: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [١٨].

وقال: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [٢٣]، و﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ [٣٣].

وقال: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ [٤١ـ٤٢].

فذكر التكذيب هنا مناسب لما ذكره من تكذيب الأمم السابقة في السورة.

﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾.

«أي وكل أمر من الأمور منتهٍ إلى غاية يستقر عليها لا محالة»(١).

فأمرُه ﷺ وأمرُهم وكلٌّ من الأمور سيستقر ويثبت على حالة من الحالات ويتبين أمره من صدق أو كذب، ونصر أو خذلان، وحق أو باطل، ونحو ذلك. فإنه لا يبقى أمر من الأمور على حاله من عدم الاستقرار والتبين، بل لا بد أن يثبت ويتبين. جاء في (الكشاف): «﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾، أي كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل وسيظهر لهم عاقبته. أو وكلّ أمر من أمرهم وأمره مستقر، أي: سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا، وشقاوة أو سعادة في الآخرة»(٢).

وهذا التذييل للآية أنسب شيء، فإن الآيات التي يرونها سيتبين أمرها أهي حقيقة أم سحر. وإن عاقبة إعراضهم ستتبين أهي إلى سعادة أم إلى شقاء، أو أكانت حقًّا أم باطلاً.

---

(١) روح المعاني ٢٧/١١٩، وانظر الكشاف ٤/٣٦.

(٢) الكشاف ٤/٣٦.

وإن عاقبة تكذيبهم ستتبين أكانوا محقين في تكذيبهم أم مبطلين ، وإن أمره فيما دعا إليه أهو حق أم باطل .

وستتبين عاقبة اتباع الأهواء وماذا سيجرّ عليهم ذاك .

وكل أمر من أمور الدنيا والآخرة منتهٍ إلى غاية ومستقر على حالة .

وهذا إنصاف للجميع .

وقد استقر أمره وأمرهم فيما بعد وانتهى ذلك إلى تبيّن صدقه ﷺ ونصره وإلى خذلانهم وتبين باطلهم .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ .

أي جاءهم ما فيه منعٌ عما هم فيه من القبائح .

والمزدجَر أبلغ من الزجر ؛ لأنه من (افتعل) وهو أبلغ من (فعل) .

وازدجر يكون متعدياً بمعنى زجر ، قال تعالى : ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [٩] .

ويكون لازماً بمعنى انزجَر وارتدع .

والمعنى أنه جاءهم من الأنباء ما فيه منع عظيم .

والأنباء هي أنباء الأمم السابقة وما حل بهم من العذاب والوعيد وأنباء الآخرة وما فيها من أهوال للمكذبين وسعادة للمؤمنين . وكل ذلك فيه زجر عظيم .

و(المزدجر) قد يكون مصدراً ، أي ما فيه ازدجار وهو المنع .

وقد يكون اسم مكان ، أي : موضع ازدجار لهم ، أو اسم زمان ، أي : وقت ازدجار .

ولما بالغ في الزجر أكد مجيء ذلك بـ (لقد) التي هي جواب قسم مقدر .

وجاء بـ(ما) الدالة على العموم ، وهي تحتمل الاسم الموصول وتحتمل النكرة الموصوفة بمعنى (شيء) ، أي جاء شيء فيه ازدجارهم[١] .

ولم يجعل الازدجار خاصًا بهم ، فلم يقل : (ما فيه مزدجر لهم) وإنما جعل ذلك عامًّا لكل من وصلت إليه الأنباء فقال : ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ .

وهذا الإطلاق نظير الإطلاق في الإعراض والإطلاق في التكذيب .

جاء في (روح المعاني) : «ما فيه مزدجر : ما فيه ازدجار لهم ومنع عما هم فيه من القبائح ، أو موضع ازدجار ومنع وهي أنباء التعذيب ، أو أنباء الوعيد»[٢] .

ثم لنلاحظ بناء هذه الآية واختيار ألفاظها :

فقد بدأ بقوله : (لقد) وهما أي اللام وقد يفيدان التوكيد ، وعند النحاة أن هذا التعبير إنما هو جواب لقسم مقدر وذلك لأهمية الأمر .

وقال : (جاءهم) ولم يقل : (أتاهم) لأن المجيء إنما لما هو أثقل وأعسر من الإتيان كما أوضحنا ذلك في كتابنا (لمسات بيانية)[٣] .

وقال : ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ ولم يقل : (من الأخبار) ؛ لأن النبأ أهم من الخبر وأعظم .

جاء في (المفردات) للراغب : «النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة»[٤] .

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ٣٣ .

(٢) روح المعاني ٢٧/ ١٢٠ .

(٣) انظر (لمسات بيانية) ١١٤ وما بعدها .

(٤) المفردات في غريب القرآن (نبأ) .

ولذلك يستعمل القرآن (النبأ) لما هو أعظم من الخبر ، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١ ـ ٢] ، وقال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧ ـ ٦٨] ، وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

أما الخبر فقد استعمله لما هو دون ذلك ، ولم يستعمل الخبر بالإفراد إلا في قصة موسى في قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل: ٧] ، وقوله: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩] ولم يستعمل لأخبار الماضين من الرسل وغيرهم إلا (الأنباء) ولم يستعمل للرسالات إلا الأنباء والنبأ.

ويستعمل الأخبار لما هو دون ذلك.

قد تقول: ولكن الله قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فقال: ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ولم يقل (أنباءكم) فدل على عظم الأخبار أيضاً.

فنقول: الأمر على عكس ما توهمت ، فإنه إذا بَلا الأخبار كان من الباب الأَولى أن يبلو الأنباء ؛ لأن الأنباء أعظم وأكبر ، فإذا بَلا القليلَ فلا شك أنه سيبلو الأعظم. ولو قال: (ونبلو أنباءكم) لما دل على أنه يبلو ما هو أقل وهو الأخبار.

ولكن الله سبحانه لا يترك شيئاً حتى يبلوه ويختبره مهما كان صغيراً ، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧] ، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

وقد تقول: لقد قال الله في سورة الزلزلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ

رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٥].

فقال: ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ولم يقل: (تحدّث أنباءها) فدلّ على عظم الأخبار.

فنقول: إن ما ذكره ههنا من أحداث الساعة إنما هو من الأخبار بالنسبة إلى ما ذكره من الأحداث الأخرى.

فقد ذكر ربنا في مواطن أخرى من القرآن من أحداث الساعة ما هو أعظم من زلزلة الأرض، فقد ذكر انفطار السماء وانشقاقها وأنها تصير كالمهل، وتكوير الشمس وانتثار الكواكب وتفجير البحار وتسجيرها، وحمل الأرض والجبال ودكّهما دكّة واحدة، ونسف الجبال حتى تكون هباء منبثاً، وبعثرة ما في القبور وخروج الموتى منها سراعاً، وغير ذلك من الأحداث مما هو أعظم من الزلزلة وأشد هولاً. ثم إن الزلزلة مشهد متكرر في الأرض معروف وإن كانت هذه الزلزلة أعظم منها جميعاً وإنها لا تشابهها زلزلة. غير أن انفطار السماء وانشقاقها وانتثار الكواكب وتكوير الشمس وغير ذلك من أحداث الساعة وأهوالها غير معروف ولا مشاهد.

فما ذكره في سورة الزلزلة إنما هو من الأخبار بالنسبة إلى ما سيحدث مما يجعل الولدان شيباً.

فقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ تخويف عظيم وإشارة إلى هول ما سيحدث. فإذا كان هذا هو الخبر فكيف النبأ؟!.

وقد تقول: ولكنه قال فيها: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]. وهذا أمر عظيم وهو يدل على عظم الخبر.

فنقول: هو والله كما تقول، ولكنه سبحانه قال إنه يرى مثقال الذرة

ولم يقل: (يجزي به) أو (يحاسب عليه) فرؤية العمل لا تقتضي أنه سيجازي به، بل إنه سيراه وقد يغفره له ربه ويستره عليه.

فذكر ما هو أيسر ولم يذكر ما هو أعظم كالحساب على ما فعله والجزاء عليه.

فإنما هذا الذي ذكره هو الخبر، فبربك كيف النبأ؟.

نسأل الله سبحانه أن يقينا شر ذلك اليوم، إنه أكرم مأمول وأعظم مسؤول، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والله أعلم.

وقال: (ما فيه) ولم يقل: (الذي فيه)؛ لأن (ما) أعم من (الذي)؛ ذلك أنها تكون للمذكر والمؤنث، المفرد والمثنى والجمع.

ومن ناحية أخرى أن (ما) تحتمل أن تكون اسماً موصولاً، وأن تكون نكرة موصوفة بمعنى (شيء)، فهي أعم من (الذي) على أية حال.

وقدم ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ على الفاعل ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ لأهمية الأنباء، ولمناسبة ما سيذكره من الأنباء في السورة.

وتظهر أهمية التقديم بأدنى تأمل، فإن القصد أن يبين ما فيه زجر من الأنباء.

والزجر إنما يؤتي ثمره ويؤثّر في السامعين إذا كان من ارتكب الذنب قد عوقب عقاباً شديداً واستؤصل وعُرف ذلك، فإن ذلك يكون أدعى للزجر.

فإن الزجر قد يكون عن طريق النصح والإرشاد والتوجيه والإخبار بمآل ذلك عقلاً، وهذا قد لا يؤثر في السامع ولا يردعه، بخلاف ما إذا علم أن الحاكم ـ مثلاً ـ قد عاقب من فعل مثل ذلك عقوبة رادعة واستأصله استئصالاً وجعله مثلة ونكالاً، فإن ذلك سيردع من يريد

الإقدام على مثل ذلك الفعل.

وهذا الأمر إنما يظهر ويعرف عن طريق ما تنوقل من الأنباء والأخبار. وبخاصة إذا كثرت الأنباء عن مثل ذلك، فإنه إذا شاع في البلد أن الحاكم يستأصل من فعل هذا الفعل أو نحوه استئصالاً بلا رحمة فإن ذلك سيكون أكبر زاجر.

ولذلك قدم (الأنباء) وما جاءهم منها. بخلاف ما إذا قيل: (ولقد جاءهم ما فيه مزدجر من الأنباء) فإن قوله: (ما فيه مزدجر) قد يكون من باب النصح والتوجيه وليس من باب العقوبات. فلما قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي أنباء من كان قبلهم أو فعل فعلهم كان التقديم ولا شك هنا أهم؛ لأنه قدم ما هو أدعى إلى الزجر والمنع.

وجاء بـ (مزدجر) ولم يقل: (زجر)؛ وذلك للمبالغة وليتسع المعنى فيحتمل عدة معان: المصدر واسم المكان والزمان. وأطلق المزدجر ولم يقل: (لهم) ليشمل عموم من تصل إليه الأنباء.

فانظر سموّ هذا التعبير وما فيه من القوة والمبالغة في:

(لقد) و(جاء) و(الأنباء) و(ما) و(مزدجر) والإطلاق والتقديم.

ولقد ذكر من عواقب الأمم السابقة ما فيه مزدجر عظيم، فذكر عاقبة قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغير تلك من الأقوام.

وذكر من أنباء الساعة والجزاء ما فيه مزدجر عظيم.

فكأن هذه الآية إجمال لما بينته السورة من الأنباء ومواطن الزجر.

﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

بالغة «أي واصلة غاية الإحكام لا خلل فيها»[١] وواصلة إلى المقصود[٢] ، فهي تبلغ المدى الذي ينبغي أن تصل إليه ، وليس فيها ما يمنع أو يحجز أو يضعف وصولها إلى مداها الأبعد.

و(حكمة) قيل: هي بدل من (ما) أو من (مزدجر). وجاء بالبدل ليعطي المعنيين: ما فيه المزدجر والحكمة البالغة. إذ لعل ما فيه المزدجر ليس فيه من الحكمة شيء ، أو أن فيه من الحكمة ما ليس كافياً أو ليس بالغاً مبلغه الذي ينبغي أن يصل إليه. فجمع المعنيين: الحكمة والمزدجر. إذ ربما ينفرد أحدهما عن الآخر ، فربما تكون الحكمة وليس معها الزجر ، وقد يكون الزجر وليس معه الحكمة ، فجمعهما ليفيد المعنيين ، وهو أحسن جمع.

وقيل: هي خبر مبتدأ محذوف ، أي: هي حكمة ، أو هذه[٣].

والقول الأول فيما يبدو لي أولى ، فإنه على إعرابها خبراً يكون المعنى أن ما فيه مزدجر هو حكمة بالغة ، في حين أن معنى البدلية يجمع المعنيين كما ذكرت وهو أولى.

﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ .

يحتمل أن يكون نفياً للإغناء ، كما يحتمل أن يكون استفهاماً إنكاريًّا[٤].

أي مع كل ما مر من الأنباء والحكمة البالغة لا تغني النذر ، وماذا

و(النُّذُر) جمع نذير ، ومن معانيه الشخص الذي يأتي بالإنذار ، كقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ، وقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٩] .

والنُّذُر بهذا المعنى هم المنذرون ، أي الرسل ، ويحتمله قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ [الأحقاف: ٢١] ، وقوله: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النجم: ٥٦] .

والنذير: الإنذار ، قال تعالى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: ١٧] . أي إنذاري[١] .

والنُّذُر قد تطلق على الأمور التي ينذر بها أيضاً[٢] ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ٣٧] ، وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ [القمر: ٢٣] .

فجمعت كلمة (النذر) عدة معان في آن واحد ، والمعنى: فما يغني المنذرون ، وما تغني الإنذارات ، وما تغني الأمور التي ينذر بها؟ ولو قال: (المنذرون) لكان لها معنى واحد .

ولقد بيّنت السورة كيف أن النذر ما أغنت فيما مضى على كثرتها من نحو قوله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ و﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴾ وغير ذلك مما ذكرنا .

وهذه السورة هي أكثر سورة في القرآن تردد فيها جمع النذير بهذه الصورة ، أي (النذر) ، فقد ورد فيها هذا الجمع إحدى عشرة مرة ، ولم يرد في أية سورة من سور القرآن نحو هذا العدد ولا نصفه ، بل لم يرد هذا

---

(١) انظر لسان العرب (نذر) .
(٢) انظر نظم الدرر ٧/ ٣٤٦ .

الجمع أكثر من مرة في أية سورة أخرى ورد فيها هذا الجمع .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ .

أي : فأعرض عنهم .

والفاء تفيد السبب ، فإنه لما كانت النذر لا تغني معهم ولا ينفع معهم شيء من الآيات فأعرضْ عنهم .

غير أنه قال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ ولم يقل : (فأعرض عنهم) والتولّي أشدّ من الإعراض ، فالتولّي قد يكون إعراضاً وابتعاداً عن الشيء . فإن التولّي معناه الإدبار والنأي عن الشيء ، وتولّى عنه : أعرض وأدبر ، والتولّي : الانصراف[1] .

فهو أشد من الإعراض ، ولذا لم يرد الأمر بالتولّي إلا مع الكافرين . قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٤ ـ ١٧٦] ، وقال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات : ٥٤] .

أما الإعراض فقد يكون عامًّا مع الكافرين وغيرهم ، قال تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٠٦] .

وقال : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ﴾ [النساء : ١٦] .

وقال في إيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٨] .

وحتى لو لم يكن مع التولّي إدبار فهو أشد من الإعراض ، إذ قد يكون التولّي بترك الإصغاء[2] كما قال تعالى معاتباً نبيه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن

---

(١) انظر لسان العرب (ولي) ، مفردات الراغب (ولي) .

(٢) مفردات الراغب (ولي) .

جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ٢].

* * *

﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾.

أي يخرجون من الأجداث يوم يدع الداعي إلي الشيء النكر.

فـ (اليوم) ظرف مقدم على عامله، وأصل التعبير: يخرجون من الأجداث يوم يدعو الداعي.

وقدم اليوم للاهتمام به وتعظيمه وتهويله، فإن ذلك اليوم يوم مهول عظيم.

و(النُّكُر) هو الفظيع البالغ النكارة، الذي لم يعهد مثله، وهو أبلغ من (نُكْر) بسكون الكاف، كما مر بيان ذلك في باب الفاصلة القرآنية.

وتقديم الظرف والمجيء بكلمة (شيء) ـ وهي أعم كلمة ـ وتنكيرها ووصفها بنكُر مما يدل على هول ذلك اليوم وعظمته.

﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾.

خشّعاً أبصارهم، أي: ذليلة منكسرة.

كأنهم جراد منتشر: شبههم بالجراد المنتشر لكثرتهم وتموّجهم[1].

﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ أي: مسرعين خائفين مادّي أعناقهم ينظرون في ذلّ وخشوع. جاء في (لسان العرب): «أهطع: أقبل على الشيء ببصره

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/٣٥، الكشاف ٤/٣٧، البحر المحيط ١٠/٣٧، روح المعاني ٢٧/١٢٣.

فلم يرفعه عنه. وفي التنزيل: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾. وقيل: المهطع: الذي ينظر في ذلّ وخشوع. . .

وهطع وأهطع: أقبل مسرعاً خائفاً، لا يكون إلا مع خوف. وقيل: نظر بخضوع. . . وقيل مدَّ عنقه وصوّب رأسه.

والإهطاع: الإسراع في العدو»[1].

وقد يكون الإهطاع إسراعاً من دون خوف، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦].

أما ههنا فالإهطاع يجمع الإسراع والخوف، ويدل على ذلك خشوع الأبصار، وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

ومن الملاحظ أنه جاء بالحال السببية (خُشّعاً) جمع تكسير، في حين جاءت مفردة في موطنين آخرين، فقد قال في سورتي القلم والمعارج ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ بإفراد الحال.

وقدم الحال على عاملها (يخرجون) في سورة القمر هذه، في حين أخرها عن العامل في سورتي القلم والمعارج.

فقد قال في سورة القلم: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢ ـ ٤٣].

وقال في سورة المعارج: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣ ـ ٤٤].

فكان الاختلاف في الحال في سورة القمر من ناحيتين:

---

(١) لسان العرب (هطع).

١ ـ جمع الحال السببية ، وهي في الموطنين الآخرين مفردة .

٢ ـ تقديم الحال على عاملها ، وهي في الموطنين الآخرين مؤخرة .

وسبب الاختلاف يبينه السياق ، فإن الموقف في سورة القمر أشد وأعظم هولاً ، ولذا جاء بالحال جمع تكسير دالاً على المبالغة والتكثير .

لقد جاء بالجمع على وزن (فُعَّل) وهو جمع دال على التكثير ، ونظير وزنه في المفرد قُلَّب وخُلَّب وحُوَّل الدال على التكثير والمبالغة ، أي كثير التقلب والتحول[1] .

كما جاء به مقدماً على عامله ، والتقديم دالّ على الاهتمام كما هو معلوم من أغراض التقديم . وكل موطن مما ذكرناه يقتضي ما جاء فيه .

فقد قال في سورة القلم: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢ ـ ٤٣] .

وقال في سورة المعارج: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢ ـ ٤٤] .

وقال في سورة القمر: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦ ـ ٨] .

فقد قال في سورة القلم:

١ ـ إنهم يدعون إلى السجود فلا يستطيعون .

---

(١) انظر (معاني الأبنية في العربية) ١٤٧ ـ ١٤٩ .

٢ ـ خاشعة أبصارهم .

٣ ـ ترهقهم ذلة .

ولم يذكر أنهم يخرجون من الأجداث سراعاً ولا نحو ذاك .

وقال في سورة المعارج :

١ً ـ إنهم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم يسرعون إلى حجارتهم التي يعبدونها .

٢ً ـ خاشعة أبصارهم .

٣ً ـ ترهقهم ذلة .

وقال في سورة القمر :

١ ـ يوم يدعُ الداع إلى شيء نكُر ، أي شديد النكارة مما لم يعرفوه أو يألفوه من قبل ، بخلاف ما قال في سورة المعارج ، فإنه قال : ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ والإسراع إلى النصب مما ألفوه وعرفوه وليس أمراً منكوراً عندهم ولا مجهولاً ، بخلاف هذا الموقف . وظاهر أن هذا أشد .

٢ ـ خُشَّعاً أبصارهم .

٣ ـ يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر في الكثرة والتموّج والانتشار[1] .

وهـذا ظـاهر في الدلالة على الكثرة ، بخلاف قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ فإن الجراد المنتشر أكثر من كفار قريش الذين يوفضون إلى النصب ، فناسبت الكثرة الجمع ، والقلة الإفراد من جهة أخرى .

---

(١) انظر الكشاف ٤/ ٣٧ ، تفسير الرازي ٢٩/ ٣٥ ، روح المعاني ٢٧/ ١٢٣ ، البحر المحيط ١٠/ ٣٧ .

٤ ـ مهطعين إلى الداع ، أي مسرعين خائفين مادّي أعناقهم إليه[١] .

٥ ـ وأن الكافرين يقولون : ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ .

ولم يذكر أنهم قالوا شيئاً في الموطنين السابقين .

فناسب المجيء بالحال على صيغة الجمع هذه في القمر دون الموطنين الآخرين ، كما ناسب تقديم الحال على عاملها ههنا كما هو ظاهر . والله أعلم .

* * *

(١) انظر نظم الدرر ٧/٣٤٨ ، روح المعاني ٢٧/ ١٢٣ .

سورة الجن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ

فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ١ ـ ٢٨].

من الملاحظ في هذه السورة أن الأمور فيها لم تُبْنَ على الشيء ومقابله، وإنما يذكر الأمر ويقابل بما يتضمنه أو يتضمن جزءاً منه.

وهذا الأمر جارٍ في السورة كلها، وهو الخط الظاهر فيها، من ذلك قوله تعالى:

١ ـ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

فإنه لم يقابل الشر بالخير، وإنما قابله بالرشَد.

والذي يقابل الشر هو الخير، أما الرشَد فمما يتضمنه الخير وهو جزء منه.

وقد قابل الشر بالخير في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، وقال: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وغير ذلك.

٢ ـ وقال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾.

وقوله: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ لا يقابل الصالحين، وإنما يقابل الصلاح الفساد، والمصلح يقابله المفسد.

وأما قوله: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ فقد يتضمن من هم دونهم في الصلاح

إلى أن يصل إلى الفساد والكفر. وقد قابل الله الإصلاح بالإفساد، والمصلح بالمفسد.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٢].

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

وقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وغير ذلك.

٣ ـ وقال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

والمسلم يقابله الكافر ولا يقابله القاسط، والقاسط معناه الجائر الظالم، والظالم قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

وقال: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

فقابل الإسلام بالكفر في هذه الآيات.

٤ ـ وقال: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

ولم يقل بمقابل من تحرى الرشد: إن القاسطين تحرّوا الغيّ والضلال.

٥ ـ وقال: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾.

ولم يقل: (لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً). وما يقابل الضر هو النفع. وقد قابل الضر بالنفع في مواطن عديدة من القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨ ، يونس: ٤٩] ، وقال: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ [الرعد: ١٦] ، وقال: ﴿ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ [الفرقان: ٣] .

وغير ذلك .

وهذا هو الموطن الوحيد الذي قابل فيه الضر بالرشد .

٦ ـ وقال: ﴿ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ .

ولم يقل: (أقريب أم بعيد) كما قال في آية أخرى: ﴿ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] .

والأمد هو الغاية ، والغاية قد تكون قريبة أو بعيدة .

وهذا خط ظاهر في هذه السورة .

ارتباط السورة بما قبلها:

أما وجه ارتباط هذه السورة بما قبلها ، وهي سورة نوح ، فإنه عز وجل «قال في سورة نوح: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ وقال عز وجل في هذه السورة لكفار مكة: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ وهذا وجه بيّن في الارتباط» [(١)] .

ومن وجوه العلائق بين هذه السورة والسورة التي قبلها:

١ ـ أنه قال في السورة التي قبلها: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ فذكر أن نوحاً أرسل إلى قومه خاصة وأنه طلب منه أن ينذرهم .

وفي هذه السورة ذكر أن رسالة محمد لم تقتصر على قومه ولا على

(١) روح المعاني ٢٩/ ٨١.

الإنس ، بل شملت الجن أيضاً.

٢ ـ وأن قوم نوح تمسكوا بالشرك وبأوثانهم ودعوا إلى عدم ترك أصنامهم فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

وإن الجن هؤلاء تركوا الشرك وعزموا على عدم العودة إليه فقالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

٣ ـ وقال في هذه السورة: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

وقال في السورة التي قبلها: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كما جاء في (روح المعاني).

ثم إنه ورد في السورة التي قبلها أثر الماء المدمر أيضاً فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ فأغرقهم الماء.

٤ ـ وأنه قال في هذه السورة: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾. وقد ذكر في السورة التي قبلها أن قوم نوح لما أعرضوا عاقبهم في الدنيا بالغرق في الماء ، وفي الآخرة بالنار ، فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾.

والتهديد في سورة الجن ليس خاصًّا بالآخرة ، وإنما قد يطالهم العذاب في الدنيا والآخرة إذا ما أعرضوا ، كما فعل مع قوم نوح.

٥ ـ جرى ذكر السماء في سورة نوح ، وذكر من أجرامها الشمس والقمر فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

وذكر السماء في سورة الجن وذكر من أجرامها الشهب فقال: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾.

٦ ـ وجرى ذكر الناصر في السورتين عند العذاب، فقال في سورة نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾.

وقال في سورة الجن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾.

٧ ـ وقال في سورة نوح على لسان نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

وقال في هذه السورة: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾.

وغير ذلك.

* * *

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾.

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

أمره أن يعلن هذا الأمر، وذلك لما فيه من تثبيت له ولأصحابه وتقريع لقومه، ذلك أن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به وعرفوا إعجازه، وأن قومه لم يؤمنوا به مع أنهم يعلمون صدق الرسول وأمانته، ويعلمون من إعِجاز القرآن ووجوهه ما لا يعلمه غيرهم؛ إذ هم أهل الفصاحة واللسان.

جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «اعلم أن قوله تعالى: (قل) أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله في واقعة الجن. وفيه فوائد:

إحداها: أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بُعِثَ إلى الإنس فقد بُعِث إلى الجن.

وثانيها: أن يعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول.

وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس.

ورابعها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا.

وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان.

وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس»(١).

وجاء في (روح المعاني) أن «السورة الكريمة من مفتتحها مسوقة للتعريض بحال مشركي مكة وتسلية لرسول الله ﷺ وتسرية عنه عليه الصلاة والسلام وتعبير لهم بقصور نظرهم عن الجن مع ادعائهم الفطنة وقلة إنصافهم ومبادهتهم بالتكذيب والاستهزاء بدل مبادهة الجن بالتصديق والاستهداء»(٢).

﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

الهاء ضمير الشأن وهو يفيد التفخيم والتعظيم، وهنا يفيد التفخيم والتعظيم للقرآن، وإن هذا التفخيم والتعظيم يتناسب مع وصفه بالعجب.

وقال: ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ ولم يقل: (استمع إليك)، ذلك لأنه ليس المقصود هو شخصه، ولكن المقصود هو القرآن.

وحيث عدى الاستماع إليه جرى ذكره هو في سياق الآية.

---

(١) التفسير الكبير ١٠/ ٦٦٥.

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٩٥.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ثم قال في الآية نفسها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥].

فذكره بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾.

وقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد: ١٦].

وقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ٤٢].

وقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧].

فحيث قال: ﴿ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ أو ﴿ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ جرى ذكر لشخصه في السياق.

ولما لم يجر ذكر للرسول في هذا السياق لم يعدّ الاستماع إليه.

قد تقول: وهو أيضاً لم يذكر أنهم استمعوا القرآن، فهو لم يقل: (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن القرآن) كما ذكر في سورة الأحقاف مثلاً، فقد ذكر فيها أن الجن استمعوا القرآن. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

فنقول: إنه ذكر في الأحقاف عن القرآن وفصّل فيه ما لم يذكره في سورة الجن.

ذلك أنه لم يقل في سورة الجن في القرآن إلا قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

وأما في الأحقاف فقد ذكر عن القرآن وصفاته ما لم يذكر في سورة الجن، فقد قال:

١ ـ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن.

٢ ـ فلما حضروه قالوا أنصتوا، أي: حضروا قراءة القرآن وطلبوا الإنصات لسماعه، والهاء تعود على القرآن.

٣ ـ فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين، أي قضيت قراءته.

٤ ـ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى.

٥ ـ مصدّقاً لما بين يديه.

٦ ـ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

فناسب ذكر استماع القرآن في الأحقاف.

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾.

وصفوا القرآن بالمصدر فقالوا إنه (عجب) ولم يقولوا (عجيب)، وذلك للمبالغة في العجب من حسن نظمه وتراكيبه وما فيه.

والوصف بالمصدر يدل على المبالغة، فكأنه هو عجب في نفسه.

جاء في (الكشاف): «(عجباً) بديعاً مبايناً لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه... و(عجب) مصدر يوضع موضع العجيب، وفيه مبالغة وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره» [1].

وجاء في (البحر المحيط): «عجباً وصفاً بالمصدر على سبيل

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٤.

المبالغة ، أي : هو عجب في نفسه لفصاحة كلامه»[١] .

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ .

الرشد : «الصلاح ، وهو خلاف الغيّ والضلال ، وهو إصابة الصواب»[٢] .

والرُّشد بالضم «الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه»[٣] .

و(يهدي إلى الرشد) قيل معناه : «يدعو إلى الصواب ، وقيل : إلى التوحيد والإيمان»[٤] .

وفرق بعضهم بين الرُّشْد بالضم ، والرَّشَد بالتحريك فقالوا : «الرُّشْد بالضم يكون في الأمور الدنيوية والأخروية ، وبالتحريك يكون في الأخروية خاصة»[٥] . والراشد والرشيد يقال فيهما جميعاً[٦] .

وقيل إن : «هذا لا يوافقه السماع ، فإنهم استعملوا اللغتين ، ووردت القراءات بالوجهين في آيات متعددة»[٧] .

وقد ورد (الرُّشد) بالضم في أمور الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء : ٦] .

وهذا رشد في أمور الدنيا .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤٧ ، وانظر روح المعاني ٢٩/ ٨٣ .
(٢) المصباح المنير (رشد) .
(٣) تاج العروس (رشد) .
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٤٧ ، روح المعاني ٢٩/ ٨٣ .
(٥) تاج العروس (رشد) ، وانظر المفردات في غريب القرآن للراغب (رشد) .
(٦) المفردات للراغب (رشد) .
(٧) تاج العروس (رشد) .

ومما ورد في أمور الدين قوله تعالى على لسان موسى للعبد الصالح: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

أما الرَّشَد بالتحريك فالكثير أنه يستعمل في أمور الدين، من ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤].

ولا أراه استعمل في القرآن إلا في أمور الدين.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾.

وقال في سورة الأحقاف على لسان الجن: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٠].

فما الفرق؟.

فنقول: الحق أعم من الرشد، فهو نقيض الباطل، وأما الرشد فنقيض الغيّ، ويوصف بالحق أحياناً ما لا يوصف بالرشد، ويخبر عنه بما لا يخبر عن الرشد، ولذا لا يصح وضع إحدى الكلمتين مكان الأخرى دائماً، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ لا يصح أن يقال مكانه: (فإن آنستم منهم حقًّا).

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤] فلا

يصح أن يقال: (إن ذلك لرشد تخاصم أهل النار).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١].

وقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].

وقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ [آل عمران: ٨٦].

وقوله: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [يونس: ٣٢].

وقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٩].

وقوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وغير ذلك وغيره.

والفرق الآخر بين الحق والرشد أن الرشد لا يقال إلا في العاقل، ولا يستعمل مع غيره. وأما الحق فهو عام يستعمل مع العاقل وغيره فيقال: (الوزن الحق) و(القتل بالحق) و(هذا المال حق لك) و(هذا حقك من المال) و(المشهد الحق) ونحو ذلك.

ويقال: (الجنة حق والنار حق) و(الله هو الحق) و(الإله الحق) ونحوه، وإذن فالحق أعم من الرشد من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الرشد خاص بأولي العلم وبالمكلفين خاصة.

فالرشد قسم من الحق وليس الحق كله. فكل رشد حق وليس كل حق رشدًا.

أما سبب الاختلاف بين ما في آية سورة الجن وما في الأحقاف من حديث الجن فإن ما في الأحقاف أعم مما في آية الجن. وما ذكره الجن في الأحقاف أوسع وأشمل، فناسب ذكر الحق الذي هو أوسع من الرشد، ذلك أنه لم يقل في سورة الجن بخصوص القرآن إلاّ قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ ـ ٢] ثم انصرف الحديث بعد ذلك إلى أقسام الجن ومعتقداتهم، وأنهم كانوا يقعدون في السماء مقاعد للسمع فمنعوا من ذلك.

وأما في سورة الأحقاف فقد اتسع الحديث عن القرآن وتأثيره فيهم.

فقد ذكر في سورة الجن أنهم سمعوا القرآن وآمنوا به.

وأما في الأحقاف فإنهم لم يكتفوا بالإيمان، وإنما ذهبوا إلى قومهم ينذرونهم ويدعونهم إلى الإيمان، فقد قال: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

وذكروا لقومهم أنهم سمعوا كتاباً أنزل من بعد موسى، وأنه مصدّق لما قبله من الكتب، وأنه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

وطلبوا منهم إجابة داعي الله والإيمان به، وأنهم إن فعلوا ذلك يغفر الله لهم من ذنوبهم ويُجرهم من عذاب أليم.

وأن من لا يُجب داعي الله فلن يعجز الله. وما إلى ذلك.

فالكلام ـ كما ترى ـ متسع، فناسب ذكر ما هو أوسع وأعم ـ وهو (الحق) ـ في الأحقاف، وذكر جانب منه في سورة الجن.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن كلمة (الحق) وردت في الأحقاف (٦) ست مرات، ولم ترد في سورة الجن.

وردت كلمتا (الرُّشْد) و(الرَّشَد) في سورة الجن (٤) أربع مرات ، ولم ترد في الأحقاف .

فناسب ذكر (الحق) في الأحقاف و(الرشد) في سورة الجن من هذه الناحية .

ثم إنه لم يكتف بذكر الهداية إلى الحق في سورة الأحقاف ، بل ذكر مع الحق الطريق المستقيم فقال : ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ذلك أنه قال في الآية التاسعة من سورة الأحقاف : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي إن هذه الدعوة إنما هي طريق مسلوكة سلكها الأنبياء والرسل قبله .

والطريق هو السبيل الذي تطرقه الأرجل .

وقال : ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحقاف : ٢١] فذكر أن النذر خلت من بين يديه ومن خلفه ، مما يدل على أن هذه سبيل مطروقة .

فناسب ذكر الطريق إضافة إلى الحق في الأحقاف .

﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ .

جاء بالفاء للدلالة على سرعة الاستجابة والإيمان ، فإنهم سمعوا فآمنوا من دون تراخ .

﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ .

وهذا يدل على أنهم كانوا مشركين فأصبحوا موحدين ، وأنهم عزموا على عدم العودة إلى الشرك في المستقبل .

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ .

﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ : «عظمته ، من قولك : جدّ فلان في عيني ، أي : عظم . . . أو ملكه أو سلطانه أو غناه ، استعاره من الجد الذي هو الدولة والبخت ؛

لأن الملوك والأغنياء هم المجدودون»[١].

وقيل: قدره وأمره[٢]. وقيل: جلاله[٣].

والمعنى: تعالى قدره وسلطانه على اتخاذ الصاحبة والولد. «والمعنى: وصفه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته، أو سلطانه وملكوته، أو لغناه»[٤].

والهاء في (أنه) للشأن، ويؤتى به في مواطن التفخيم، فجاء بضمير الشأن وبـ (الجد) للدلالة على عظمة ربنا وجلاله في التعالي عن اتخاذ الصاحبة والولد.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾.

هو رد على من قال ذاك، وهذا يدل على أن قسماً من الجن كانوا يقولون ذاك، بدليل قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾.

ومما يقوّي ذلك أيضاً النفي بـ (ما)؛ لأن النفي بـ (ما) في نحو هذا رد على من قال ذلك[٥]. فهو لم يقل: (لم يتخذ صاحبة ولا ولداً)؛ لأن هذا التعبير قد يدل على أنه من باب الإخبار أو التعليم، ولا يدل بالضرورة على أن هناك من قال بذاك فردّ عليه. قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ١ ـ ٢].

فنفى بـ (لم)؛ لأنه في سياق التعليم والتنزيه والتعظيم، وليس في

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٤٧.

(٣) معاني القرآن ٣/ ١٩٢.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٧٤.

(٥) انظر (معاني النحو) ١/ ٤٥٨ وما بعدها.

سياق الرد على من قال بذاك.

وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] وهو نظير ما مر.

في حين قال في محاجّته للمشركين: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠ ـ ٩٢].

فنفى بـ (ما)؛ لأنه في مقام الرد على المشركين.

وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

فردّ قولهم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فرد قولهم بـ (ما).

جاء في (الفروق اللغوية) لأبي هلال العسكري: «الفرق بين (ما) و(لا): أن (لا) جواب استفهام، كقولك: أتقول كذا؟ فيكون الجواب: لا. و(ما) جواب عن الدعوى، تقول: قلت كذا، فيكون الجواب: ما قلت»[1].

ثم إنه ذكر (لا) بعد العطف على النفي فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ولم يقل: (ما اتخذ صاحبة وولداً) ليدل على نفي اتخاذ الصاحبة والولد على سبيل الإفراد أو الجمع بينهما. ولو قال: (ما اتخذ صاحبة وولدًا) لاحتمل نفي الجميع، أي لم يتخذهما جميعاً ولكن اتخذ أحدهما،

---

(١) الفروق اللغوية ٣٣٤.

ولاحتمل أيضاً نفيهما على سبيل الإطلاق ، فكان ما قاله أولى .

وقدم الصاحبة على الولد ؛ لأن الولد إنما يكون من الصاحبة ، كما قال تعالى : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام : ١٠١] .

فقدمها لأنها أسبق من الولد .

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ .

السفه : هو خفة العقل والجهل[١] ، والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره[٢] . فإذا جاوز الحد في ظلم أو في غير الظلم أحد فقد أشطّ وابتعد عن الحق .

ونسبة الصاحبة أو الولد إلى الله تعالى غاية الشطط ، والقول به غاية السفه وقلة العقل . جاء في (التفسير الكبير) للرازي : «السفه خفة العقل ، والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره . . .

واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد ، وليس في اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو في جانب الإثبات ، فحينئذ ظهر أن كلا الأمرين مذموم ، فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلى التعطيل ، ومجاوزة الحد في الإثبات تفضي إلى التشبيه وإثبات الشريك والصاحبة والولد ، وكلا الأمرين شطط ومذموم»[٣] .

والمعنى أن هذا السفيه كان يقول على الله قولاً هو الشطط بعينه .

قد تقول : فهلاّ قال : (وإن سفيهنا كان يقول على الله شططا) .

فنقول : إن ما قاله أدلّ على عظم هذا القول ونكارته من جهتين :

---

(١) انظر لسان العرب (سفه) ، التفسير الكبير للرازي ١٠/ ٦٦٧ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٤ ، وانظر تفسير الرازي ١٠/ ٦٦٧ .

(٣) التفسير الكبير ١٠/ ٦٦٧ .

الأولى: أنه جاء بضمير الشأن مع (أن)، وهذا الضمير كما ذكرنا يؤتى به في مواطن التفخيم والتعظيم.

والجهة الأخرى: أن الضمير المستتر في (كان) الذي هو اسمها إنما هو ضمير الشأن أيضاً، ويدل على ما دل عليه الضمير الأول، فدلّ ذلك على أن هذا القول قول عظيم من أكثر من جهة.

قد تقول: لا يلزم هذا الإعراب، بل يحتمل أن يكون (السفيه) هو اسم (كان) مؤخراً.

وجملة (يقول) خبر (كان) مقدم، والأصل: (أنه كان سفيهنا يقول على الله شططاً) فلا يكون في التقدير ضمير الشأن.

فنقول: إن ذلك ضعيف أو ممنوع؛ لأنه يفضي إلى الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي. فإن (سفيهنا) معمول (كان) على هذا القول، و﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ معمول لـ(يقول)، فـ(سفيهنا) أجنبي وقع بين العامل والمعمول، وهو ضعيف أو ممنوع.

فدل على أن اسم (كان) إنما هو ضمير الشأن المستتر وليس (سفيهنا).

فاتضح أن ما جاء في الآية أولى.

وقد تقول: فهلا قال: (أنه كان سفيهنا يقول على الله شططاً).

فنقول: إن ما قاله أولى أيضاً؛ ذلك لأنه سيكون في هذا القول المقترح، أي: (إنه كان سفيهنا يقول على الله شططاً) ضمير شأن واحد وهو الذي دخلت عليه (أن).

أما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ ففيه ضميران للشأن ـ كما ذكرنا ـ فهو أدل على عظم هذا القول ونكارته.

فإن قلت: فهلاّ قال: (وأنه كان على الله يقول سفيهنا شططاً) فيقدم (على الله) للقصر.

فنقول: إن ما قاله أولى أيضاً؛ ذلك أنه لو قال ذلك لكان المعنى أنه حصر قول الشطط على الله وحده دون غيره، فلم يقل السفيه في غيره تعالى شططاً.

وهذا لا يناسب وصفه بالسفه؛ لأن السفيه إنما أكثر قوله سفه، ولا ينحصر جهله وخفة عقله بشيء دون شيء، فإن قليل العقل يقول من الشطط الكثير وفي مختلف الأمور، فلا يناسب ههنا الحصر.

أما ما دلت عليه الآية فإن السفيه كان يقول على الله شططاً، ولم يحصر قول الشطط عليه، بل ربما قال على غيره شططاً أيضاً، وهو الذي يقتضيه الوصف بالسفه.

لقد اجتمع في هذا التعبير من أوصاف السوء الكثير، منها:

١ ـ أن القائل سفيه، أي: خفيف العقل جاهل.

٢ ـ ثم إنه أضاف السفيه إلى ضمير المتكلمين فقال: (سفيهنا) وهذا يعني أنه شخص معروف بالسفه مشهور به، وقيل: هو إبليس، أو المقصود به الجنس، وقيل: هم مردة الجن[1].

٣ ـ ضمير الشأن المتصل بـ (أن).

٤ ـ ضمير الشأن المستتر في (كان).

٥ ـ أن هذا السفيه كان يقول ذلك باستمرار، ذلك أنه قال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ فجعل خبر (كان) فعلاً مضارعاً، وإذا كان خبر (كان) كذلك دل على الاستمرار والاعتياد.

---

(١) انظر روح المعاني ٢٩/ ٨٥.

والاستمرار على هذا القول أدل على النكارة والسفه.

٦ ـ جاء بالمصدر فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ فجعل القول هو الشطط بعينه للمبالغة ولم يأت بالوصف.

جاء في (الكشاف): «الشطط: مجاوزة الحد في الظلم وغيره.

ومنه: أشط في السوم، إذا أبعد فيه، أي: يقول قولاً هو في نفسه شطط؛ لفرط ما أشطّ فيه، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله» [(١)].

وجاء في (روح المعاني): «أي: قولاً ذا شطط، أي بعد عن القصد ومجاوزة الحد، أو هو في نفسه شطط لفرط بعده عن الحق، وهو نسبة الصاحبة والولد إليه عز وجل» [(٢)].

* * *

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

قدم الإنس على الجن؛ لأنهم ذكروا بآيات الجن ومعاصيهم ما لم يذكروه في الإنس من مثل قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

فناسب تقديم الإنس.

وربما لأنهم أيضاً كانوا يحسنون الظن بالإنس أكثر من الجن، فإن عالم الإنس غير عالمهم، وأنهم يعلمون أن جماعتهم منهم الصالح

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٨٥.

ومنهم دون ذلك ، وأنهم يرون في الإنس مظنة الصدق على الله .

كما أن الإنس ـ فيما نظن ـ يرون مثل ذلك في الجن ، فإنهم يظنون أنهم لا يكذبون على الله ، وأنهم يصدّقون ما يلقونه إلى الكهنة .

فقدموا من هو أولى بقول الصدق عندهم .

ونكّر (الكذب) ليشمل كل كذب ، ولو عرّفه لكان النفي عن كذب في أمر معيّن .

وقد ذكر في الآية أبعد حالات الكذب على الله :

١ ـ فقد قال : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ . . . ﴾ ولم يقل : (وأنا لم نظن أن تقول) أو (ما ظننا أن تقول) .

فقد أثبت ظنهم بأنهم لا يقولون على الله كذباً .

وثمة فرق بين قولك : (ما ظننت أن يفعل) و(ظننت ألا يفعل) .

فقد نفيت ظنك عن أن يفعل في قولك : (ما ظننت أن يفعل) ، وأما في الجملة الثانية فقد أثبت ظنك بأنه لا يفعل .

وهذا الإثبات أقوى وأدلّ على المراد ، وهو نظير قولك : (ما علمت أنه مسافر) ، وقولك : (علمت أنه غير مسافر) . فقد نفيت علمك في الأولى . وأما الثانية فقد أثبت علمك في الأمر .

ونظير قولك : (ما علمت أنه قادم) و(علمت أنه غير قادم) ، وقولك : (ما سمعت أنه ناجح) و(سمعت أنه ليس ناجحاً) .

٢ ـ وأنه نفى بـ (لن) المؤكدة .

٣ ـ وقال : (على الله) وهو أبعد من أن يكذب عليه ، فإن الشخص قد يكذب على بني جنسه ، ولكنه قد يتحرج من الكذب على الله .

٤ ـ ونكّر الكذب ليشمل كل أنواع الكذب .

٥ ـ وأنه وصف بالمصدر للمبالغة. والتقدير في الأصل قولاً مكذوباً فيه[(١)]. جاء في (روح المعاني): «وجوز أن يكون من الوصف بالمصدر مبالغة»[(٢)].

* * *

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

«**الرهق**: غشيان المحارم، والمعنى أن الإنس باستعاذتهم زادوهم كبراً وكفراً، وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى في واد قفر في بعض مسايره وخاف على نفسه قال: (أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه)، يريد الجن وكبيرهم، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سدنا الجن والإنس، فذلك رهقهم.

أو فزاد الجن الإنس رهقاً بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم»[(٣)].

قد تقول: لِمَ لَمْ يقل: (وأنه كان يعوذ رجال من الإنس برجال من الجن) كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ فيجعل ضمير الشأن في (كان) كما جعله في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾؟.

فنقول: هذا الأمر ليس بمنزلة قول الشطط على الله، فإن ذلك أدعى إلى الإنكار وأعظم، خاصة وأن ذلك كان تعقيباً على من قال: (إن الله اتخذ صاحبة وولداً) وهو شرك، والشرك بالله أعظم الذنوب وأكبرها، فلم يجعلهما بنفس المنزلة في النكارة والعظم.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٥.

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٨٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٧٥، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٤٨، روح المعاني ٢٩/ ٨٥.

وقال: (يعوذون) ولم يقل: (عاذوا) للدلالة على استمرار هذا الأمر واعتيادهم فيه.

وهو أذمّ لهؤلاء الرجال من الإنس، وهو ذمّ لرجال الجن أشدّ؛ لأنهم زادوهم ضلالاً وغشيان محارم.

فهو لم يقل: (فأرهقوهم)، وإنما قال: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي زادوهم ضلالاً على ضلالهم.

وجاء بالفاء للدلالة على السبب وعلى التعقيب في هذا الأمر السيّء، فإنه لم تكن مهلة بين الاستعاذة وزيادة الرهق.

وجاء بالضمير ولم يصرح بالاسم الظاهر ليشمل الإنس والجن، فلم يقل: (فزادهم الجن رهقاً) ولا (فزادهم الإنس رهقاً) بل شمل الرهق رجال الإنس والجن.

فرجال الجن ازدادوا تكبراً وعتوّاً بأن قالوا: سدنا الجن والإنس[1].

ورجال الإنس ازدادوا ضلالاً وغواية.

* * *

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾.

هذا يحتمل أن يكون من كلام الجن، فيكون المقصود بـ (ظنوا) جماعة الإنس، وبـ (ظننتم) قومهم، أي أن الإنس ظنوا كما ظننتم أنتم أنه لن يبعث الله أحداً.

ويحتمل أن يكون هذا مما أوحى الله إلى رسوله، أي أوحي إليّ أن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكفار أن لن يبعث الله أحداً.

---

(١) انظر روح المعاني ٢٩/ ٨٥.

والاحتمالان صحيحان ، فكلاهما ظن ذلك .

وقوله : ﴿لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ إنكار لليوم الآخر ، ويرجح النفي بـ (لن) هذا المعنى ، فإنه خاصة بنفي المستقبل .

وذهب بعضهم إلى أن المقصود إنكار النبوات ، فظنوا أنه سبحانه لن يبعث رسولاً ، وهذا النفي للمستقبل وليس نفياً للماضي .

والذي يترجح عندنا المعنى الأول فيما يظهر والله أعلم .

* * *

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ .

أي طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها[١] فوجدناها مملوءة بالحرس الشديد ، وهم الملائكة الحافظون لها ، ومملوءة بالشهب التي يرجم بها من أراد الاستماع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً راصداً له يرجمه .

والرَصَد يحتمل أن يكون بمعنى اسم الفاعل ، أي يجد له شهاباً راصداً يرصده فيحرقه[٢] .

ويحتمل أن يكون بمعنى اسم المفعول ، أي شهاباً أُرصد له ليرجمه[٣] .

والمعنى أن «من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه» [٤] .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٥ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٤٩ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٣ ، وانظر التفسير الكبير للرازي ١٠/ ٦٦٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٩ .

وقال: ﴿يَجِدۡ لَهُۥ﴾ أي لأجله هو، فعلّقه بكل من يريد الاستماع، أي يجده معدّاً له. ولم يقل: (يجد شهاباً رصداً) فيجعل وجود الشهاب عامًّا وليس معدًّا له على الخصوص. ومعنى الآية: أن كل من يطلب الاستماع يجد له هو شهاباً راصداً أعدّ له يرصده فيرجمه فلا ينجو منه أحد منهم.

قد تقول: لقد قال في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠].

فذكر في الصافات ﴿مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ ولم يذكر مثل ذلك في سورة الجن، فما السبب؟.

فنقول: إنه ذكر في سورة الجن من الحراسة ما هو أشد وأحفظ:

١ ـ فقد ذكر في سورة الجن أن السماء ملئت بالحرس الشديد، فهو لم يقل: إن فيها حرساً، ولكنه قال إنها (ملئت) بهم، ثم وصف الحرس بأنه شديد.

ولم يذكر مثل ذلك في الصافات، بل لم يذكر أن فيها حرساً أصلاً، شديداً ولا غير شديد.

٢ ـ وذكر في سورة الجن أنها ملئت بالشهب، ولم يذكر مثل ذلك في الصافات.

٣ ـ وذكر أنه أُعدَّ لكل من أراد الاستماع شهاب يرصده فيحرقه فلا ينجو منه أحد.

ولم يقل مثل ذلك في الصافات.

فيتعذر في مثل هذه الحراسة الشديدة والشهب الراصدة المرصدة أن

تحصل خطفة ، فلا يناسب أن يذكرها ، بخلاف ما في الصافات ، فإنه لم يذكر غير الكواكب .

قد تقول : لكنه قال في الصافات : ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ .

فنقول : نعم إنهم يقذفون على العموم ، كما أن الجيش المهاجم يُقذف من كل جانب ، لكن لا يعني ذلك بالضرورة أن كل أفراد الجيش سيصابون بالقذائف بلا استثناء ، فقد يفلت أحد من ذلك فيخطف الخطفة ، فإن حصل ذلك أتبعه شهاب ثاقب .

أما في سورة الجن فقد ذكر أن من يستمع يجد له هو على سبيل الخصوص شهاباً راصداً له .

* * *

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ .

قالوا ذلك لما منعوا من الاستماع ، وقد بنوا مريد الشر للمجهول تأدّباً من نسبته إلى الله سبحانه ، وأسندوا مريد الرشد إلى ربهم ، وهذا خط واضح في القرآن الكريم ، فإنه لا يسند السوء إلى نفسه ، بعكس الخير والتفضل والنعم(١) .

جاء في (روح المعاني) : «ولا يخفى ما في قولهم : (أشرّ أريد. . . إلخ) من الأدب ، حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى الله عز وجل كما صرحوا به في الخير ، وإن كان فاعل الكل هو الله تعالى ، وقد جمعوا بين الأدب وحسن الاعتقاد» (٢) .

وقد قابل الشر بالرشد ولم يقابله بالخير ، وقد ذكرنا أن هذه السورة جرى فيها مقابلة الأمر بما يتضمنه وليس بمقابله .

---

(١) انظر معاني النحو ٢/ ٩٠ وما بعدها .

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٨٨ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٤٩ .

وقدم إرادة الشر على إرادة الرشد فقال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ؛ لأنه ذكر ما يفعله أهل الأرض من الشرور من الجن والإنس ، فاستحقوا التهديد وإرادة العقوبة لهم وإنزال الشر بهم. فقد تقدم الآية قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ ، وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [٥] ولكن تبيّن أن الإنس والجن يقولون على الله الكذب. وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ، وقال: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ وهذا إنكار للحشر أو للنبوات أو لكليهما.

فاستحقوا تقديم إرادة الشر بهم. ومما يقوّي هذا التقديم أنهم منعوا من السمع ، وأن من أراد الاستماع منهم رجم بشهاب يرصده. فكل ذلك أدعى إلى الظن أنه أريد بهم الشر والعقوبة ، مع احتمال إرادة الرشد بهم.

فكان تقديم إرادة الشر هو المناسب.

وقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فأسند الرشد إلى الرب الذي أضيف إلى ضميرهم (ربهم) ولم يقل: (أم أراد الله بهم رشداً) لأن الرب هو المربي والقيم على الأمر والرازق والهادي. ورب الشخص يريد له نفعه وهدايته وخيره ، فإن الشخص إذا أصابه سوء فزع إلى مالك أمره والقيم عليه وربه. ورب الجماعة يريد الخير لهم.

فناسب ذكر (ربهم) مع إرادة الرشد.

ولم يرد في القرآن إسناد إرادة السوء أو الضرر إلى الرب ، بل يسند ذلك إلى الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١].

وقال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

وقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح: ١١].

وقال: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

وأما إذا ذكر الرب فلا يسند إليه إلا إرادة الخير والرشد.

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

وقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

فأنت ترى أنه يسند احتمال إرادة العقوبات والسوء إلى الله، كما يسند إليه إرادة الخير والرحمة.

وأما إذا ذكر الرب فلا يسند إليه إلا إرادة الخير.

ولا يعني هذا أنه لم يذكر الرب في مقام العقوبات، ولكن أعني ذكر إسناد فعل الإرادة خصوصاً. أما في غير أفعال الإرادة فقد يذكر الرب في عموم المقامات مع التفضل والنعم والعقوبات وغيرها، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] وغيرها كثير.

* * *

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.

لم يذكر من هم مقابل الصالحين وهم الفاسدون ، وإنما قال: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾. وقوله: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يشمل من هم أقل صلاحاً ، ويشمل من هم دونهم من الكفار على اختلاف أحوالهم. والذي يدل على شمول أهل الكفر على اختلاف مللهم قوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ ، فقوله: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ يعني طرائق متقطعة ومذاهب مختلفة غير ملتقية ولا متصلة ، وهذا يدل على شدة الاختلاف والتباين. ولو كانوا دونهم في الصلاح مع اشتراكهم فيه لم يكونوا طرائق قدداً ، بل هم في طريقة واحدة. إذ القِدّة: «من قدّ ، كالقطعة من قطع ، ووصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على معنى التقطع والتفرق» [1].

فقوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ شمل أهل الكفر إضافة إلى الصالحين.

جاء في (الكشاف): «كنا طرائق قدداً: أي كنا ذوي مذاهب مفترقة مختلفة ، أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ، أو كنا في طرائق مختلفة» [2].

* * *

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾.

والمعنى: أنا أيقنّا أننا لن نعجزه على أية حال ، فإنا لا نفوته إن طلبَنا سواء كنا في الأرض أم هربنا إلى السماء.

وجاء بـ (لن) الدالة على توكيد النفي في الاستقبال ؛ ليدل على أنهم لن يعجزوه في المستقبل أيضاً ، كما هو في الحال مهما جدّت من وسائل

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٦.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٦ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٥٠.

يستعين بها من يستعين للهرب واكتشف من سبل لذلك فلن يكون ما يمنعنا منه سبحانه.

جاء في (الكشاف): «أي لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها، ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء.

وقيل لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً، ولن نعجزه هرباً إن طلبنا» [١].

وجاء في (روح المعاني): «كأنه قيل: لن نعجزه سبحانه في الأرض ولا في السماء... وحاصله إن طلبَنا لم نفته، وإن هربنا لم نخلص منه سبحانه» [٢].

* * *

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.

البخس نقص الشيء على سبيل الظلم[٣]، يقال: بخسه حقه إذا نقصه، والبخس من الظلم[٤]. والرهق: الظلم[٥]، وغشيان المحارم والذلة[٦]. ورهقه الأمر: غشيه بقهر[٧].

ومعنى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أنه لا يخاف أن ينقص حقه، بل يجزى الجزاء الأوفى، كما لا يخاف أن تغشاه ذلة أو أن يظلم أو يقهر.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٦.
(٢) روح المعاني ٢٩/ ٨٨.
(٣) المفردات (بخس).
(٤) لسان العرب (بخس).
(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٣، وانظر لسان العرب (رهق).
(٦) انظر لسان العرب (رهق).
(٧) مفردات الراغب (رهق).

وقيل: معناه: أنه لا يخاف جزاء بخس وظلم، لأنه لم يبخس أحداً ولا قهر أحداً وظلمه أو أذلّه فلا يخاف عاقبة ذلك؛ لأن المؤمن لا يفعل ذلك فلا يخاف أن يجزى جزاء من فعل هذا. جاء في (الكشاف): ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: «أي جزاء بخس ولا رهق؛ لأنه لم يبخس أحداً حقًّا ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما. وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أن يجتنب المظالم، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (المؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم).

ويجوز أن يراد فلا يخاف أن يبخس، بل يجزى الجزاء الأوفى، ولا أن ترهقه ذلة من قوله عز وجل: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾»[1].

وقال: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ بالفاء ورفع الفعل المضارع، ولم يقل (لا يخف بخساً) بالجزم جواباً للشرط؛ لأن المجيء بالفاء ورفع الفعل المضارع آكد، وهو على تقدير مبتدأ، أي (فهو لا يخاف) فتكون الجملة اسمية، وهي تدل على تحقيق عدم الخوف، والجملة الاسمية آكد من الفعلية.

جاء في (الكشاف): «(فلا يخاف): فهو لا يخاف، أي فهو غير خائف، ولأن الكلام في تقدير مبتدأ وخبر دخلت الفاء، ولولا ذلك لقيل: لا يخف. فإن قلت: أي فائدة في رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له ووجوب إدخال الفاء، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال: لا يخف؟.

قلت: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك فكأنه قيل: فهو لا يخاف، فكان

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٦.

دالاً على تحقيق أن المؤمن ناجٍ لا محالة ، وأنه هو المختص بذلك دون غيره»[(١)] .

وجاء في (البحر المحيط) : «وكان الجواب بالفاء أجود من المجيء بالفعل مجزوماً دون الفاء ؛ لأنه إذا كان بالفاء كان على إضمار مبتدأ ، أي : فهو لا يخاف ، والجملة الاسمية أدلّ وآكد من الفعلية على تحقق مضمون الجملة»[(٢)] .

قد تقول : لقد قلنا ههنا : ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ .

وقال في سورة طه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢] .

فما الفرق؟ .

فنقول : إن البخس هو نقص الحق وهو من الظلم .

أما الظلم فهو أعم منه ، فهو يشمل البخس وغيره : كالعقوبات بغير حق ، واغتصاب أموال الناس ، والعدوان عليهم ، ومنع الحقوق ، وغير ذلك . فلو قتل أحد بغير حق كان ذلك ظلماً وليس بخساً . ولو نصح أحد حاكماً بالحسنى فهدم الحاكم عليه داره وشرد أهله كان ذلك ظلماً عظيماً وليس بخساً .

أما الهضم فهو الظلم والغصب والقهر ونقص الحق[(٣)] .

وقيل : إن الهضم نقص من حسنات الشخص[(٤)] .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٦ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٥٠ .

(٣) انظر اللسان (هضم) .

(٤) انظر البحر المحيط ٦/ ٢٨١ .

وأما الرهق فمن معانيه: الإثم وغشيان المحارم والظلم. وقيل: الطغيان. وقيل الذلة[١].

وقد ذكر في طه من هو أفضل ممن في سورة الجن، فقد قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ فذكر العمل الصالح، ولم يذكره في سورة الجن.

وقال في طه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فجاء الوصف بالإيمان اسماً، في حين قال في سورة الجن: ﴿فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ﴾ فجاء بالإيمان فعلاً، والاسم يدل على الثبوت، أما الفعل فيدل على الحدوث.

فالمذكور في طه موصوف بما هو أفضل وبما هو أعم وأشمل، فأمّنه مما هو أعم وأشمل، وهو الظلم الذي يشمل البخس وزيادة.

ثم من ناحية أخرى أن نفي الظلم مناسب لما قبله، فقد قال في الآية التي قبلها: ﴿۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ فناسب ذلك نفي الظلم أيضاً.

ثم ذكر نفي الهضم له إضافة إلى نفي الظلم، وهو مناسب لقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ ذلك أن من معاني الهضم: النقص من الحسنات، والذي يعمل صالحاً يبتغي بذلك الحسنات، فأمّنه من النقص من حسناته.

ولما لم يذكر العمل الصالح في آية الجن ولم يذكر الهضم، ومن لم يعمل فمن أين تأتيه الحسنات فتهضم؟.

أما في سورة الجن فقد نفى عنه الرهق: وقد ناسب هذا ذكر الرهق قبله في السورة وذلك قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ فالمؤمن بربه لا يعوذ بغيره من الجن أو الإنس، فانتفى عنه الرهق الذي يأتيه من هذه الجهة.

---

(١) انظر اللسان (رهق)، روح المعاني ٢٩/ ٨٩.

وانظر كيف قال: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ ولم يقل: (فمن يؤمن بالله)، فاختيار الرب وإضافته إليهم اختيار لطيف، فإن الشخص إذا خاف أمراً فزع إلى ربه ومالك أمره فيعوذ به ويلتجئ إليه.

وأما إذا كان الرهق بمعنى الذلة فإن ذلك منفي عن المؤمن في الدنيا والآخرة، فقد قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فأثبت للمؤمن العزة.

وانتفى عنه كل رهق يأتيه عن غير طريق الإيمان والحمد لله.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

القاسطون هم الجائرون الظالمون، والقَسْط بفتح القاف هو الجور والظلم، وهو ههنا يعني بالقاسطين الكافرين، بدليل مقابلتهم بالمسلمين.

وأما سبب اختيار القاسطين على الكافرين مع أن ليس كل جائر كافراً فذلك لأكثر من سبب والله أعلم.

منها أن فيها بيان عظم جرم القاسطين، فكأن القاسطين ليسوا بمسلمين، فذكر عقوبتهم ولم يذكر جزاء المسلمين.

ومنها أنه مناسب لما ذكرنا من أن السورة مبنية على أجزاء من المقابلة وعلى ما يتضمن المذكور، فذكر القاسطين وهم يتضمنون الكافرين، وقد قال ربنا: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ثم إن ما ذكر في السورة من معاصٍ وأوصاف وذنوب إنما هي من باب المظالم.

فقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وهذا ظلم، فإن المنتظر أن يكون جزاء الاستعاذة هو العون وليس زيادة الرهق.

وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ وهذا ظلم للرسول، فقد اجتمعوا لإيذائه بسبب عبادته لله وهو لم يسئ إليهم. حتى إنه لم يقل (يدعوهم إليه) وإنما قال: (يدعوه) أي يعبده، وهذا من أكبر الظلم.

وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ وهذا اعتداء في القول على الله. فأنت إذا قلت على أحد شططاً فقد ظلمته.

ومن ذلك قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

وأنت إذا كذبت على أحد فقد ظلمته. ومن أكبر الظلم أن تقول على الله الكذب، وقد قال ربنا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤] ثم إن هذه الآية مناسبة لما قبلها وهو قوله: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.

والبخس ظلم، والرهق ظلم.

فناسب ذكر القاسطين من كل وجه.

وفي الآية تحذير عظيم لكل قاسط بأنه سيكون حطباً لجهنم ولو كان مسلماً، فإنه بنى العذاب والجزاء على صفة القَسط وليس على صفة الكفر. فكل جائر سيكون حطباً لجهنم على قدر ما اتصف به من هذه الصفة.

* * *

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾.

اختار صفة تحري الرشد من صفات المسلم مناسبة لما ورد في السورة من ذكر الرشد.

فإن الجن قالوا عندما سمعوا القرآن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ فهم تحروا الرشد وآمنوا به.

وقد تردد ذكر الرشد في السورة في مواطن عدة.

فناسب ذلك ذكر تحري الرشد في الآية.

وذكر عذاب القاسطين دون جزاء المسلمين، وإنما قال في المسلمين: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ ولم يذكر جزاءهم. وهذا مناسب لما ورد في السورة من تردد العذاب. فقد قال ههنا: ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، وقال: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾، وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ كما ناسب عدم ذكر جزاء المسلمين في الآية جوّ السورة، فإنه لم يذكر فيها جزاء المسلمين.

فعدم ذكر جزاء المسلمين مناسب لجو السورة.

وذكر جزاء القاسطين مناسب لجو السورة.

وهو تناظر لطيف.

* * *

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

أي: لو أنهم استقاموا على الهدى لوسّع عليهم الرزق. وذكر الماء الغدق وهو الكثير: «لأنه أصل المعاش وسعة الرزق»[1].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٧، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٥٢.

وهذا كقوله تعالى في السورة قبلها: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢] «وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾» [(١)].

وقيل: المعنى أنهم: «لو استقاموا على طريقة الضلال لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً كما في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وكقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦]» [(٢)].

ويبعده استعمال الاستقامة للاستقامة على الضلال، ولم يرد في القرآن ذلك، فإنه لا يستعمل الاستقامة إلا على الخير والهدى.

ومعنى (لنفتنهم فيه): «لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه» [(٣)]. وأسند الإسقاء والفتنة إليه ليدل على أن المنعم والمختبر واحد.

قد يقال: لماذا قال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ فحذف الضمير ولم يقل: (وأنهم لو استقاموا على الطريقة) أو (ولو أنهم استقاموا على الطريقة) كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣١.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٣١.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٧٧، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٥٢.

والجواب أنه لو قال: (وأنهم لو استقاموا على الطريقة) أو (ولو أنهم استقاموا) لربما أفهم أن ذلك مختص بهم لا يتعداهم الحكم إلى غيرهم فذكر ضميرهم، في حين أن هذا الحكم عام لكل من يستقيم على الطريقة. أما قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ فهذا خاص باليهود والنصارى، فإن التوراة أنزلت إلى بني إسرائيل خاصة، وكذلك الإنجيل، ثم إنهما نسخا فلا ينطبق الأمر على من جاء بعد النسخ، في حين أن الحكم الذي ذكره في آية الجن عام إلى قيام الساعة، فكان عدم ذكر الضمير الخاص بهم أولى.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ أي «عن عبادته أو عن موعظته أو عن وحيه»[1]. وأكثر ما استعمل الإعراض في القرآن إذا عُدّي بعن في الإعراض عن الذكر أو الآيات إذا لم يقصد الإعراض عن الأشخاص. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ٩٩ - ١٠٠].

وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢].

وقال: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

وجعل عاقبة الإعراض عن الذكر والوعيد على ذلك أشد من الإعراض عن الآيات.

قال تعالى في الإعراض عن الآيات: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٧، وانظر روح المعاني ٢٩/ ٩٠.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

ولم يذكر شيئاً عن هذا الانتقام.

في حين قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠٢].

وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

وقال: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

ذلك أن الآيات جزء من الذكر، فتوعده على الإعراض عن الذكر بما هو أشد.

ومعنى: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي يدخله فيه، والصَّعَد مصدر (صعد): «فوصف به العذاب؛ لأنه يتصعده العذاب، أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه»(١).

وقد وصف العذاب بالمصدر للمبالغة في غشيان العذاب لهم.

وقيل: صَعَد هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم(٢).

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٧، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٥٢.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٥٢، فتح القدير ٥/ ٣٠٠.

وهو تناظر طريف مع محاولة صعود الجن إلى السماء للاستماع ، حتى إذا حاولوا الاستماع رجموا بالشهب.

وجاء بفعل الإعراض في الآية مضارعاً ، أي (يعرض) دون (أعرض) للدلالة على تجدد الإعراض وتكراره ، ولذا كان الوعيد أشد مما ذكر فيه الفعل الماضي ، فإنه لم يذكر هذا النوع من العذاب إلا مع الفعل المضارع. أما مع الفعل الماضي فقد ذكر تهديداً أو وعيداً أخف من عذاب تكرر الإعراض كما هو ظاهر من الآيات.

ومن الطريف أن نذكر أن القرآن لم يستعمل الفعل (سلك) في الآخرة إلا في النار ، ولم يستعمله في الجنة. قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٤٢].

وقال: ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٧].

وقال: ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٣٢].

* * *

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها ظاهرة ، فإنه قال قبل هذه الآية: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾.

والمساجد إنما هي دور للذكر والصلاة. قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧].

وقال: ﴿ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

والصلاة يشيع فيها الذكر ، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالمساجد هي دور الذكر والعبادة.

ومعنى ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [١] لا تعبدوا مع الله أحداً ولا تشركوا به شيئاً.

إنه لم يقل: (فلا تدعوا فيها مع الله أحداً) فيكون النهي عن ذلك في المساجد خاصة دون غيرها من الأماكن، بل منع ذلك على الإطلاق فقال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ على الإطلاق، في المساجد وغيرها.

* * *

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، فإنه لما قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ دل ذلك على أنه استجاب لله فقام يدعوه ويعبده، فازدحموا عليه وتجمعوا وأطبقوا على عداوته وتلبد بعضهم على بعض، أي اجتمع بعضهم على بعض لمحاربته، وهذا من أكبر الظلم؛ لأنه قام بعبادة الله ودعوته ولم يؤذهم ولم يحاربهم. واختيار (عبد الله) أنسب شيء ههنا، فلم يقل: الرسول أو النبي مما ينكره القوم، وإنما قال: (عبد الله) وكلهم عبد الله شاؤوا أم أبوا، وكلهم يقر بأنه عبد الله، فلماذا ينكر على عبد الله أن يعبد الله؟.

و(عبد الله) إذا قاله الإنسان عن نفسه فهو تواضع وتذلل بحق وصدق.

وإذا قاله الله عن شخص فإنه تكريم له. جاء في (الكشاف): «(عبدالله) النبي ﷺ. فإن قلت: هلا قيل: رسول الله أو النبي؟.

---

(١) ينظر روح المعاني ٢٩/ ٩٢.

قلت: لأن تقديره: وأوحي إلي أنه لما قام عبد الله، فلما كان واقعاً في كلام رسول الله ﷺ عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل.

أو لأن المعنى أن عبادة عبد الله لله ليس بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر حتى يكونوا عليه لبداً.

ومعنى قام يدعوه: قام يعبده»[١].

وقوله: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي «كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه متراكمين (لبداً) جمع لبدة، وهو ما تلبد بعضه على بعضه»[٢].

«وما أحسن التقابل بين قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ وبين هذا القول، كأنهم نهوا كلهم عن الإشراك ودُعوا إلى التوحيد، فقابلوا ذلك بعداوة من يوحد الله سبحانه ويدعوه ولم يرضوا بالإباء وحده»[٣].

* * *

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

وهذا أمر بالتبليغ عن نفسه، فالآية السابقة تطبيق واستجابة، فإنه قام يدعوه.

وهذه إشهار وإعلان بالقول عن معتقده وفعله.

فاقترن القول بالعمل.

وأمره ربه أن يقول لهؤلاء القوم المجتمعين عليه: أنا لا أعبد إلا الله

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٧.
(٣) روح المعاني ٢٩/ ٩٢ ـ ٩٣.

ولم أفعل شيئاً يوجب إنكاركم عليّ ، فلماذا تجتمعون عليّ وتطبقون على معاداتي ومحاربتي؟ .

جاء في (الكشاف): ﴿إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي﴾ يريد: ما أتيتكم بأمر منكر ، إنما أعبد ربي وحده ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ وليس ذاك مما يوجب إطباقكم على مقتي وعداوتي» [١] .

واختيار (الرب) أنسب شيء في هذا السياق ، فإن العبد إذا حزبه أمر أو احتاج إلى شيء دعا ربه ولا يدعو أحداً سواه ، فربه هو مالكه وسيده .

* * *

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ .

قيل: إن معنى الرشد هنا هو النفع ، أو إن معنى الضر هنا هو الغيّ [٢] .

وذلك ليتقابل اللفظان ، فإن مقابل الضر النفع ، ومقابل الرشد الغيّ .

وقيل: يجوز أن يكون المراد: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ولا رشداً ولا غيًّا ، فاكتفى بمقابل كل من المعنيين. جاء في (روح المعاني): «وجوز أن يكون في الآية احتباك ، والأصل: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ولا غيًّا ولا رشداً ، فترك من كلا المتقابلين ما ذكر في الآخر» [٣] .

وقد ذكرنا في أول الكلام على السورة أن الأمور فيها لم تبن على الشيء ومقابله ، وإنما يذكر الأمر ويقابله بما يتضمنه أو يتضمن جزءاً منه ، والرشد مما يتضمنه النفع .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٨ .

(٢) انظر الكشاف ٣/ ٢٧٨ .

(٣) روح المعاني ٢٩/ ٩٣ .

ولو نظرنا في السورة لوجدنا أن الضر شائع فيها وليس النفع ، وأن الرشد ظاهر التردد فيها.

ومن مظاهر الضر المذكورة في السورة أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ، وهذا ضر وليس نفعاً.

وقال: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا ضر وليس نفعاً.

وذكر البخس والرهق ، وكلاهما ضر وليس نفعاً.

وذكر القاسطين ، وهم يضرون غيرهم ويجورون عليهم.

وذكر أنه لما قام عبد الله يدعوه اجتمعوا على عداوته والإضرار به.

وقال: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي إن أراد بي ضرًّا فلن ينجيني منه أحد.

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ وهي تهديد لهم وتوعّد ، ولا شك أن ذلك إضرار بهم وليس نفعاً.

وأما الرشد فهو شائع في السورة ، بل هي أكثر سورة في القرآن ذكر فيها الرشد.

فناسب ذكر الضرّ والرشد وليس النفع والغيّ.

وقدم الضرّ على الرشد ؛ لأن تحقيقه أيسر من الرشد والهداية بالنسبة إلى قدرة الإنسان ، وأنه المناسب لما فعلوه به وأطبقوا على الإضرار به وعداوته ، فلا يملك ضرهم كما فعلوا به.

ولما كان هو عبداً لله فإنه لا يملك لأحد ضرًّا ولا رشداً ، وإنما يملك ذلك سيده ومولاه.

* * *

﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾.

ومن يجير العبد من سيده؟ فإذا كان عبداً لله فلن يجيره من الله أحد ولن يجد ملجأ غيره ، فإن العبد ليس له ملتجأ إلا سيده ، والملتحد هو الملتجأ.

فنفى المجير والملتجأ غير الله.

فإن العبد إذا أبق من سيده فلا بد أن يستجير بأحد ليمنعه من صاحبه ، فإن لم يجد أحداً فلا بد أن يلتجئ إلى مكان يأوي إليه ، وقد نفى المجير له والملجأ غير الله.

وهذا ينطبق عليه وعلى الخلق أجمعين ، فإنهم كلهم عباد الله ، فعليهم ألا يدعوا غيره وألا يشركوا به أحداً ؛ لأنه سيدهم ومولاهم ، وإنهم كلهم لا يملكون لأحد ضرًّا ولا رشداً ، وإنما يملك ذلك مولاهم وسيدهم ، وإنهم كلهم لن يجيرهم من الله أحد الذين هم عباد له. ولن يجدوا من دونه ملتجأ.

فناسب كلمة (عبد) هذه المعاني أحسن مناسبة وانطبق ذلك على الخلق أجمعين.

﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ ﴾.

يحتمل أن يكون قوله: ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا ﴾ استثناء من قوله: (لا أملك لكم ضراً ولا رشداً إلا بلاغاً من الله) أي: لا يملك إلا البلاغ الكائن من الله ولا يملك غيره ، فهو لا يملك أن يضركم ولا أن يهديكم ، بل لا يملك إلا البلاغ.

ولا يملك إلا الرسالات التي أرسل بها إليكم فيبلغها لكم ، فيكون

(رسالاته) عطفاً على البلاغ ، وما بين ذلك اعتراض .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ بدلاً من (ملتحداً) أي : لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به .

ويحتمل أن تكون الرسالات عطفاً على الله ، أي لا أجد ملتجأ إلا التبليغ عن الله وعن رسالاته(١) .

جاء في (الكشاف) : ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا ﴾ : استثناء منه ، أي : لا أملك إلا بلاغاً من الله ، و﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي ﴾ جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه ، على معنى أن الله إن أراد به سوءًا من مرض أو موت أو غيرهما لم يصح أن يجيره منه أحد أو يجد من دونه ملاذاً يأوي إليه .

والملتحد : الملتجأ ، وأصله المدّخل ، من اللحد . . .

وقيل : بلاغاً بدل من (ملتحدًا) أي : لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به . . .

(ورسالاته) عطف على (بلاغاً) كأنه قيل : لا أملك إلا التبليغ والرسالات .

والمعنى : إلا أن أبلغ عن الله فأقول : قال الله كذا ، ناسباً لقوله إليه ، وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان» (٢) .

فإن قلت : أليس الأولى أن يقال إذا أراد المعنى الأول : (قل إني لا أملك لكم ضرًّا ولا رشداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته . قل إني لن يجيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحدًا)؟

قلت : التعبير القرآني فيه توسع في المعنى ، وهو يشمل المعنيين :

---

(١) انظر البحر المحيط ٨/ ٣٥٤ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٨ .

المعنى الأول: قل إني لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا إلا بلاغاً من الله ورسالاته.

والمعنى الآخر: ولن أجد من دونه ملتحدًا إلا بلاغًا من الله ورسالاته.

والمعنيان مرادان. فهو لا يملك إلا البلاغ، وليس له ملتجأ إلا البلاغ.

والمعنى الأول يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

والمعنى الآخر يدل عليه قوله: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد ذهب بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧] إلى أنه: «إنك إن لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد معدلاً تعدل إليه ومكاناً تميل إليه»[(١)].

وهو قريب من هذا المعنى، فجمع هذا التعبير هذين المعنيين الجليلين.

* * *

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

قال ههنا: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ بالجمع.

وقال في سورة النساء: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

---

(١) فتح القدير ٣/ ٢٧١.

بالإفراد ، فما السبب؟ .

والجواب: أن الوعيد بالعذاب في آية النساء أشد ؛ وذلك لأنه عذاب بالنار وبالوحدة. والوحدة في حد ذاتها عذاب ولو كانت في الجنة. ولذا لا تجد في القرآن ذكر (خالدًا) بالإفراد في أصحاب الجنة ، بل لا يذكر ذلك إلا في صورة الجمع (خالدين) للزيادة في النعيم بالاجتماع المستلزم للأنس.

وأما سبب زيادة العذاب في آية النساء فلأنه زاد على معصية الله ورسوله تعدي الحدود. ولم يذكر ذلك في آية سورة الجن، فاستلزم ذلك زيادة العذاب ، وزاد على ذلك أيضاً قوله: ﴿ وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ .

ومما حسّن الجمع في آية الجن ذكر اجتماع الكفرة على رسوله في قوله: ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ فذكر أن لهؤلاء وأمثالهم نار جهنم خالدين فيها أبداً.

ومما حسّن الإفراد في آية النساء أيضاً أنهم أقل من المذكورين في آية الجن ؛ وذلك لأنهم عصوا الله ورسوله وتعدوا حدوده ، فكانوا أقل من الذين عصوا الله ورسوله ولم يذكر أنهم يتعدون حدوده. فإن أولئك أعم وأكثر ، فازدادوا تخصيصاً.

فاستعمل الإفراد للقلة النسبية أيضاً إضافة إلى ما ذكرنا.

فحسن الإفراد من كل وجه في آية النساء ، والجمع في آية الجن ، والله أعلم.

* * *

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾ .

إن قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ يحتمل ما يوعدون من إظهار النصر عليهم ، كما يحتمل أن يراد به يوم القيامة.

وهذه الآية مرتبطة بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ فإنهم استضعفوه ورأوا قلة أتباعه فاجتمعوا عليه. فتوعدهم بأنه إذا جاء وعد الله من نصره عليهم فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً. وهو تهديد وتوعّد لهم.

ومرتبطة أيضاً بقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

فهو وعيد لهم على ما يفعلون في الدنيا والآخرة. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: بم تعلق (حتى) وجعل ما بعده غاية له؟.

قلت: بقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم.

حتى إذا رأوا ما يوعدون من يوم بدر وإظهار الله له عليهم، أو من يوم القيامة فسيعلمون حينئذ أنهم أضعف ناصرًا وأقل عددًا.

ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال: من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده، كأنه قال: لا يزالون على ما هم عليه حتى إذا رأوا ما يوعدون» [١].

قد تقول: لقد قال في سورة مريم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [٧٥].

ففصّل في رؤية ما يوعدون بقوله: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ وأجمل في آية الجن.

واختلف المعلوم فيهما، فقد قال في آية الجن: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٨.

وقال في مريم: ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾.

فما سبب ذلك؟.

فنقول: أما التفصيل في مريم أو الإجمال فله سببه،

فإنه فصّل في مريم؛ لأنه تقدم الآية ذكر العذاب وذكر الساعة. فقد قال قبل هذه الآية: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٦٦ ـ ٧٢].

وقال بعدها: ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٧٩ ـ ٨٠].

في حين لم يذكر في سورة الجن في ذلك إلا قوله: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ وهي جزء من آية.

فناسب التفصيل التفصيل والإجمال الإجمال.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ إِمَّا ٱلْعَذَابَ ﴾ العذاب الدنيوي بغلبة المؤمنين واستيلائهم عليهم[1].

فيكون ذكره مناسباً لما تقدم الآية من قوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ [مريم: ٧٤].

ومناسباً لما ختمت به السورة وهو قوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨].

---

(١) انظر روح المعاني ١٦/ ١٢٧.

فيكون التفصيل بذكر العذاب والساعة مناسباً من كل وجه في آية مريم دون آية الجن.

وأما اختلاف المذكورين في العلم فكلٌّ مناسب لما ذكره في موطنه.

أما في سورة الجن فقد ختم الآية بقوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ ذلك أنه كان فرداً وأنصاره قليلون مستضعفون، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٢٦].

فهو مناسب لقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ ففعلوا ذلك لأنهم قليلون مستضعفون كما هو ظاهر فقال: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

وأما قوله في مريم: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ فهو المناسب في سياقه.

فقوله: ﴿هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مناسب لما تقدمه من قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

فقابل قولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ بقوله: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

وقابل قولهم: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ بقوله: ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾، أي ناسب توعدهم بالعذاب والنصر عليهم بقوله: ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

و﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ «أي مكاناً ومنزلاً. وأصله موضع القيام، ثم استعمل لمطلق القيام»[1].

جاء في (الكشاف): «﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾، أي لا يبرحون يقولون هذا القول... إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين (إما العذاب) في الدنيا، وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسراً وإظهار الله

---

(١) روح المعاني ١٦/ ١٢٥.

دينه على الدين كله على أيديهم ، وإما يوم القيامة وهو ما ينالهم من الخزي والنكال ، فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه ، وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً ، لا خير مقاماً وأحسن نديًّا ، وأن المؤمنين على خلاف صفتهم . . .

فإن قلت : (حتى) هذه ما هي؟ .

قلت : هي التي تحكى بعدها الجمل ، ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله : ﴿ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ [مريم : ٧٥] في مقابلة : ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ ؛ لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم ، والنديّ : المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم . والجند : هم الأنصار والأعوان» [١] .

وجاء في (البحر المحيط) : «وقابل قولهم : ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا ﴾ بقوله : ﴿ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ، وقولهم : ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ بقوله : ﴿ وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ ؛ لأن النديّ هو المجلس الجامع لوجوه القوم والأعوان والأنصار ، والجند هم الأعوان والأنصار» [٢] .

وجاء في (روح المعاني) : «والمراد : حتى إذا عاينوا ما يوعدون من العذاب الدنيوي أو الأخروي فقط فسيعلمون حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ من الفريقين ، بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدرونه ، فيعلمون أنهم شر مكاناً لا خير مقاماً .

وفي التعبير بالمكان هنا دون المقام المعبر به هناك مبالغة في إظهار سوء حالهم .

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٩ .

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٢ .

﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي فئة وأنصاراً، لا أحسن نديًّا. ووجه التقابل أن حسن النديّ باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم»[١].

ولما فصّل في مريم في أحوالهم وقولهم ما قالوا في الفريقين، وفصّل في ذكر رؤية ما يوعدون ناسب ذلك ذكر (هو) فقال: ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

ولما أوجز وأجمل في سورة الجن لم يذكر ذلك، وإنما قال: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ ولم يقل (من هو).

* * *

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾.

لم يقابل قوله: (قريب) بالبعيد، وإنما قابله بالأمد. والأمد هو الغاية، وهو يكون قريباً وبعيداً.

وهو الخط الجاري في السورة كما ذكرنا.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ والأمد يكون قريباً وبعيداً، ألا ترى إلى قوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾؟.

قلت: كان رسول الله ﷺ يستقرب الموعد، فكأنه قال: ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أو مؤجل ضربت له غاية؟»[٢].

قد تقول: لقد قال سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

فقابل القريب بالبعيد فما الفرق؟.

---

(١) روح المعاني ١٦/ ١٢٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٩.

والجواب أن من الوعد ما هو ظاهر القصد في سياق آيات الأنبياء ، وهو يتعلق بالآخرة والأحداث التي تسبقها .

فقد ذكر يأجوج ومأجوج عند اقتراب الوعد الحق ، فقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧] .

وذكر جملة وعود تتعلق بأحوال الآخرة في آيات عدة ، وكذلك نحو قوله تعالى : ﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [١٠٣] ، وقوله : ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [١٠٤] .

وقال بعد ذلك : ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [١٠٥] .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالأرض الأرض المقدسة ترثها أمة محمد ، وقيل : هي الجنة ، وقيل : أرض الدنيا يرثها المؤمنون ويستولون عليها وهي أمة محمد ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور: ٥٥] (١) .

وقال بعد تلك الوعود : ﴿ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الأنبياء: ١١١] .

وهذه كلها من الوعود ، ولا شك أنها ليست في القرب بمنزلة ما ذكر في سورة الجن من قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا

---

(١) انظر البحر المحيط ٦/ ٣٤٤ ، روح المعاني ١٧/ ١٠٤ .

﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ من احتمال أن يكون المقصود من ذلك يوم بدر. فصرح باحتمال البعد في الأنبياء ولم يصرح به في آية الجن. فإن الأمد يحتمل القرب والبعد.

فكان كل تعبير في مكانه أنسب والله أعلم.

* * *

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾.

أي هو عالم الغيب، وفي القرآن الكريم حيث أفرد الغيب جاء باسم الفاعل (عالم) وحيث جمعه جاء بصيغة المبالغة (علّام) فيقول (علّام الغيوب) وهو المناسب للتكثير في المبالغة.

ولما نفى درايته بما يوعدون أقريب هو أم لا نسب علم الغيب إلى الله سبحانه. ومناسبة الآية لما قبلها ظاهرة.

وقال: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ ولم يقل: (فلا يظهر عليه أحدًا) فلم يأت بالضمير العائد على الغيب، وذلك ـ والله أعلم ـ أن الغيب الثاني الذي أضافه إلى نفسه غير الأول.

فإنه عالم الغيب على الإطلاق، وهناك من الغيوب ما يظهرها الله ربنا بوسيلة من الوسائل كالإلهامات والرؤى الصادقة أو غيرها مما يعلمه ربنا.

وهناك غيب استأثر بعلمه ربنا فلا يظهره لأحد، أو هو يظهر ما شاء منه للمرتضَين من رسله، ولذا أضافه إلى نفسه واختص به.

إنه لا يعلم من في السماوات ومن في الأرض الغيب إلا الله، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ولا يعلم أحد شيئاً منه إلا إذا أراد الله أن يطلع ما شاء منه من يشاء من عباده.

والمرتَضَون من الرسل يجعل من بين أيديهم ومن خلفهم حَفَظة يحفظونهم من الشياطين فلا يختطف منهم شيء ولا يخلط بشيء من وساوسهم. جاء في (الكشاف): «﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾: حَفَظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يبلّغ ما أوحي به إليه»(١).

وقال: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ولم يقل (بين يديه وخلفه) ليكون الرصد بين الأيدي من غير فاصل، ومن الخلف من غير فاصل، فلا يقترب منهم أحد.

ولو قال: (بين يديه وخلفه) لاحتمل المسافة القريبة والبعيدة. وهذا أشد شيء في الحفظ.

* * *

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

قال: (ليعلم) وهو العالم بذلك قبل وقوعه، يعني العلم الذي يتعلق به الجزاء وليس مطلق العلم، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١].

وهو ربنا أحاط بما لديهم، يعلم كل شيء عندهم، وهو ربنا أحصى كل شيء عدداً: «من القطر والرمل وورق الأشجار وزبد البحار، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه»(٢).

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٩.

قصة شعيب عليه السلام في سورتي الأعراف وهود

من سورة الأعراف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ

عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٩٣].

* * *

من سورة هود

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

* * *

من الظاهر في القصة الواردة في سورتي الأعراف وهود أن فيهما مواطن تشابه ومواطن اختلاف في التعبير وفي المواقف تتناسب مع السياق الواردة فيه كل منهما.

ومن أبرز هذه المواطن ما يأتي:

أ - لقد قال في قصة الأعراف: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال في سورة هود: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٥].

و(الكيل) على المشهور هو المصدر.

وأما (المكيال) فهو آلة الكيل. فالكيل هو الحدث، والمكيال هو ما يكال به، ومثله الوزن والميزان، فهما مختلفان، ولذا لا يصح وضع أحدهما مكان الآخر دوماً، فلا يصح مثلاً في قوله تعالى في قصة يوسف: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ [يوسف: ٨٨] أن يقال: (فأوف لنا المكيال)؛ لأن المعنى سيكون أن المكيال غير صحيح.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ [يوسف: ٦٠].

فإنه لا يصح أن يقال للمعنى نفسه: (فلا مكيال لكم عندي) كأنه ينكر أن يكون عنده مكيالهم.

فالمكيال - كما هو واضح - من الأموال، أما الكيل فهو الحدث. ويبين ذلك قوله تعالى في قصة يوسف: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢] والصواع هو مكيال كانوا يكيلون به.

أما سبب الاختلاف بين التعبيرين في قصة شعيب في السورتين فإن القصة في سورة هود يشيع فيها ذكر الأمور المالية أكثر مما في الأعراف،

فمما ذكره في هود من ذلك ولم يذكره في الأعراف:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤] وهما من الأموال.

٢ ـ وقوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود ٨٧] فذكر الأموال.

٣ ـ ثم ذكر الرزق الحسن فقال: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨] وهو أنسب بالأموال.

ولم يذكر مثل ذلك في الأعراف.

فلما كانت القصة في سورة هود شائعاً فيها ذكر المال ناسب ذكر المكيال؛ لأنه من الأموال.

أما القصة في الأعراف فيشيع فيها أمور الاعتقاد ومحاربة الفساد وموقف قومه من ذلك.

فما قاله في الأعراف ولم يذكره في هود:

١ ـ قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

٢ ـ وقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

٣ ـ ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

٤ ـ ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

ولم يذكر مثل ذلك في هود.

فناسب ذكر المصدر (الكيل) في الأعراف.

هذا ومن المناسب أن نذكر أن جوّ كل قصة من القصتين مناسب لمفتتح سورتها.

فإن مفتتح سورة هود يتناسب مع الأموال ، فقد قال: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣] ، وقال: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦].

وإن مفتتح سورة الأعراف إنما هو في العقيدة والأمور المعنوية ، فقد قال تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢ ـ ٣].

ب ـ ومن الملاحظ أيضاً أن أغلب القصص المذكورة في هود فيها إشارات إلى الأمور المالية والمعاشية ، وليس الأمر كذلك في الأعراف.

فقد قال في قصة نوح في هود:

١ ـ ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ﴾ [هود: ٢٩].

٢ ـ ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٢٩].

٣ ـ ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٣١].

٤ ـ ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾ [هود: ٣١].

ولم يرد في الأعراف مثل ذلك.

وقال في قصة هود في سورة هود:

١ ـ ﴿ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [هود: ٥١].

٢ ـ ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ﴾ [هود: ٥١].

٣ ـ ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢].

ولم يرد مثل ذلك في الأعراف.

وقال في قوم صالح: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

فكان سياق قصة شعيب أنسب في السورة مع القصص التي وردت فيها.

ج ـ ذكر في الأعراف من صفات قوم شعيب السيئة أكثر وأشد مما ذكره في هود.

فقد قال في الأعراف:

١ ـ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾.

٢ ـ ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾.

٣ ـ ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

ولم يقل مثل ذلك في هود.

٤ ـ وقال في الأعراف ذاكراً قول قوم شعيب: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

فتوعدوه بإخراجه من قريته مع من آمن معه إلا أن يعودوا في ملتهم، وأقسموا على ذلك بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ فجاء باللام الواقعة في جواب القسم مع نون التوكيد الثقيلة.

وأما في هود فقد قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ﴾ [هود: ٩١].

فهم لم يتوعدوه بالرجم، وإنما قالوا: إن الذي يمنعهم من رجمه وجود رهطه، فإن (لولا) حرف امتناع لوجود. فهم لا يرجمونه لوجود رهطه.

وأما في الأعراف فلم يمنع الذين استكبروا من إخراجه وجود رهطه.

٥ ـ دعا شعيب في الأعراف أن يفتح ربه بينه وبين قومه فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

ولم يفعل مثل ذلك في هود.

٦ ـ وصف قومه في الأعراف بالكفر فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٩٠].

وقال أيضاً: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ووصفهم في هود بالظلم فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤].

والكفر أشد من الظلم؛ إذ ليس كل ظالم كافراً.

د ـ ذكر عقوبة مدين في كل من السورتين على النحو الآتي:

١ ـ قال في الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٩١].

وقال في هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤].

والرجفة أشد من الصيحة؛ لأن الرجفة هي الزلزلة، وهو المناسب لعظم سيئاتهم.

٢ ـ وقال في الأعراف: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].

وقال في هود: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

فأفرد الدار في الأعراف، وجمعها في هود؛ ذلك أن الصيحة يبلغ مداها أبعد من الرجفة، فجمع الدار فقال: ديار[1].

٣ ـ ثم إن كل عقوبة أنسب بسياقها من جهة أخرى؛ ذلك أنه وصف القوم في الأعراف بالكفر، ووصفهم في هود بالظلم كما ذكرنا.

---

(١) انظر البرهان ١٧٢.

والظلم أعم من الكفر ؛ لأن الظالم يكون كافراً وغير كافر. فإن كل كافر ظالم ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وليس كل ظالم كافراً.

فلما كان الظلم أعم كان أنسب بذكر الديار التي هي أعم من الدار.

٤ ـ وصفهم بالخسران في الأعراف ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢].

ولم يصفهم بذلك في هود.

وهذا الوصف بالخسران مناسب لما ورد في القصة من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [٩٠].

فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [٩٢] بذكر ضمير الفصل وتعريف الخاسرين ، فحصر الخسران فيهم فجعلهم هم وحدهم الخاسرين دون غيرهم ، ولم يقل: (كانوا خاسرين) أو من الخاسرين.

٥ ـ قال في الأعراف: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢].

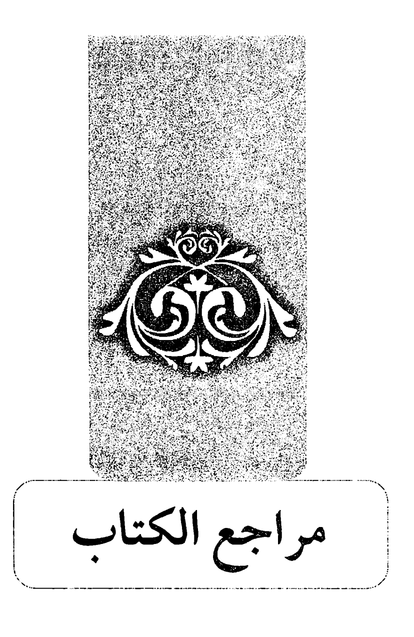
وقال في هود: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ﴾.

فزاد في الأعراف على قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ﴾.

٦ ـ ذكر في الأعراف على لسان نبيهم أنهم لا يستحقون أن يأسى عليهم ، فقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

فكانت العقوبة في الأعراف أشد ، وهو المناسب لسيئاتهم ومعاصيهم وكفرهم.

* * *



مراجع الكتاب

١ ـ الإتقان في علوم القرآن ـ للسيوطي ط٣/ ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر.

٢ ـ أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي ـ الطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ.

٣ ـ البحر المحيط لأبي حيان ـ ط١ سنة ١٣٢٨هـ ـ مطبعة السعادة بمصر.

ـ البحر المحيط لأبي حيان ـ تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١/ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٤ ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي ـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ـ ط١/ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م ـ دار إحياء الكتب العربية.

٥ ـ البرهان في متشابه القرآن ـ محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ط٢/ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م دار الوفاء للطباعة والنشر ـ مصر ـ المنصورة.

٦ ـ تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت، تصوير على الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦هـ.

٧ ـ التحرير والتنوير ـ محمد الطاهر بن عاشور ـ دار سحنون للنشر والتوزيع ـ تونس.

٨ ـ التعبير القرآني ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م.

٩ ـ تفسير أبي السعود.

١٠ ـ تفسير الطبري.

١١ ـ تفسير القرطبي.

١٢ ـ التفسير القيم لابن القيم ـ جمع محمد أويس الندوي ـ مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦هـ ـ ١٩٧٣م.

١٣ ـ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ـ المطبعة البهية ـ مصر.

١٤ ـ تفسير ابن كثير ـ طبع بدار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٥ ـ حاشية المعرب ـ طبع مع كتاب المعرب للجواليقي للدكتور ف. عبد الرحيم ـ دار القلم ـ دمشق ط١/ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٦ ـ درة الغواص في أوهام الخواص لأبي محمد القاسم بن علي الحريري ، نشرته بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

١٧ ـ ديوان الأدب لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي ـ تحقيق دكتور أحمد مختار عمر ـ القاهرة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٨ ـ روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ دار إحياء التراث العربي.

ـ روح المعاني ـ دار الفكر للطباعة ـ بيروت ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٩ ـ شرح الشافية لرضي الدين الإستراباذي ـ تحقيق محمد محيي الدين وجماعة ـ مطبعة حجازي بالقاهرة.

٢٠ ـ شرح الكافية لرضي الدين الإستراباذي ـ مطبعة الشركة الصحافية العثمانية سنة ١٣١٠هـ.

ـ شرح الرضي على الكافية ـ تحقيق يوسف حسن عمر.

٢١ ـ على طريق التفسير البياني ـ ج١/ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

٢٢ ـ فتح القدير للشوكاني ط١ ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩هـ.

٢٣ ـ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ـ تحقيق عماد زكي البارودي ـ المكتبة التوفيقية.

٢٤ ـ القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزأبادي ط٥ شركة فن الطباعة ـ مصر.

٢٥ ـ كتاب سيبويه ـ مصور عن طبعة بولاق ـ مكتبة المثنى ببغداد.

٢٦ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

ـ الكشاف تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ـ نشر مكتبة العبيكان ـ الرياض ط١/ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٧ ـ كشف الطرة عن الغرة لأبي الثناء محمود بن عبد الله الآلوسي ـ

مخطوطة بمكتبة الأوقاف ببغداد.

٢٨ ـ كشف المعاني في المتشابه من المثاني ـ بدر الدين بن جماعة ـ تحقيق د. عبد الجواد خلف ـ دار الوفاء ط١/ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ـ مصر ـ المنصورة.

٢٩ ـ لسان العرب لابن منظور ـ مصور على طبعة بولاق.

٣٠ ـ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

٣١ ـ المصباح المنير للفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.

٣٢ ـ معاني الأبنية في العربية ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

٣٣ ـ معاني القرآن لأبي زكريا الفراء ـ مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

٣٤ ـ معاني النحو ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ مطابع دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

٣٥ ـ المعرّب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي، حقق كلماته الدكتور ف. عبد الرحيم ـ دار القلم ـ دمشق ط١/ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٣٦ ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ـ طهران.

٣٧ ـ ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير، تحقيق الدكتور

محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٨ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي.

٣٩ ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي ط١/ ١٣٢٧هـ ـ مطبعة السعادة بمصر.

* * *

* * *

القرآن الكريم لا تنتهي أسراره ولا تنقضي عجائبه، وكل من أمعن النظر وأعمل الفكر ازداد يقيناً بأنه تنزيل من حكيم حميد.

يبين هذا الكتاب طرفاً من الأبنية القرآنية فيتكلم على:

- أبنية المصادر: كالثواب والمثوبة، والحكم والمحكمة، والرضوان والمرضاة، والشكر والمشكور، والعصيان والمعصية، والغفران والمغفرة.

- أبنية الصفات: كالتائب والتواب، والخائن والخوان، والظلوم والظلام.

- أبنية المفردات: كأتى وجاء، ورجع وردّ، والمهد والمهاد.

ثم يبحث في خواص الاستعمالات القرآنية: كالتوكيد والذكر والحذف والتقديم والتأخير، والتشابه والاختلاف.

ثم يتعرض للفاصلة القرآنية التي تعني الانسجام الموسيقي.

وأخيراً، فصول من تفسير آيات مختارة من البقرة والمائدة والإسراء والكهف والإنسان والنجم والقمر، تبين هذا الجانب من البيان القرآني العظيم ضمن أصول اللغة وضوابطها وقواعدها المعروفة.


ISBN 978-614-415-197-6



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com